بشارات أولياء الرحمن

وحسرات ضحايا الهوى والشيطان

تأليف

أبي عمر محمد عبد الملك الزغبي

الداعية والمؤلف المساهم برابطة العالم الإسلامي برقم (٤٩٣/ب)

والحاصل على المركز الأول على مستوى دولة الكويت

في الخطابة وفي المسجد المتميز

بشارات أولياء الرحمن وحسرات ضحايا الهوى والشيطان

تأليف

أبي عمر محمد عبد الملك الزغبي

الداعية والمؤلف المساهم برابطة العالم الإسلامي برقم (٤٩٣/ب)
والحاصل على المركز الأول على مستوى دولة الكويت
في الخطابة وفي المسجد المتميز

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٦٧٧٢

الترقيم الدولي: 9 - 090 - 429 - 977

دار التقوى

للطبع والنشر والتوزيع

الإدارة: ٤٤٧١٥٥٠٦ - ٠١٠١٦٦٨٠٦٧

١٥ ش ١٥ مايو - شبرا الخيمة

ف / ت / ٤٤٧١٥٥٠٦ - م / ٠١٠١٥٩٢٢٧١

٥ ش ابن البيطار خلف الجامع الأزهر

ت / ٢٥١٤١٧٠٤

موقعنا على الإنترنت:

www-daraltakoa.com

E-mail: webmaster@daraltakoa.com

التوزيع

اليقين - شبر الخيمة: ٤٤٧٣١٨٢٤

المدينة المنورة - مدينة نصر: ٢٧٥٥٣٠٤

مكتبة الشامي - بالإسكندرية: ٠٣٤٩٦٠٦٢٠

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

إن الحمد لله، نَحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، فإنه من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

ثم أما بعد:

الحمد لله الذى أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وختمهم بنبينا الأمي المكي الهادي للسبيل المستقيم والمرسل إلى جميع المخاطبين من إنس وجن من لدن بعثته إلى قيام ساعة رب العالمين.

فهو رسول الله إلى جميع الثقلين؛ الإنس والجن مبلغًا لهم عن الله تعالى ما أوحاه الله

إليه من هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ دينه الحنيف وشرعه.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ويقول تعالى مبيِّنًا الثقة في السنة النبوية: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فالقرآن والسنة محفوظان مكفولان من الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يسخِّر من عباده من يقوم بحفظ هذا الدين ونشره على مر العصور، وفي مختلف الأزمان، ومهما امتدت الحياة وطالت، ففي كل وقت وفي كل مكان هناك من يسعى لنشر دين الله سبحانه وتعالى، ومحاولة إيصاله إلى جميع الخلق في أنحاء المعمورة.

ومن دواعي الفخر أن الله سبحانه وتعالى قد وفقنا لخدمة هذا الدين، بأن يسر لنا إتمام طبع الكثير من الكتب التي تخدم الدين، والعديد من كتب التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، وندعو الله أن يجعله في ميزان حسناتنا، ويسعدنا اليوم أن نقدم لك أخي القارئ الكريم كتاب «بشارات أولياء الرحمن وحسرات ضحايا الهوى والشيطان» لفضيلة الشيخ محمد عبد الملك الزغبي - حفظه الله -، وهو إضافة جديدة مميزة لمطبوعاتنا، راجين من المولى أن يتقبله منا قبولًا حسنًا، وأن ينفع به المسلمين إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣) (٤).

ثم أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر

---

(١) سورة «آل عمران»: (١٠٢).

(٢) سورة «النساء»: (١).

(٣) سورة «الأحزاب»: (٧٠، ٧١).

(٤) الحديث: صحيح أخرجه أبو داود في «سننه» (٢/ ٥٩١، ٥٩٢) «كتاب النكاح» (٦) باب (٣٣) -ح- (٢١١٨)، والترمذي في «سننه» (٣/ ٤١٣- ٤١٤) «كتاب النكاح» (٩) -باب- «١٧» -ح- (١١٠٥)، والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٨٩) «كتاب النكاح» (٢٦)، وابن ماجة في «السنن» (١/ ٦٠٩، ٦١٠) «كتاب النكاح» (٩) -ح- (١٨٩٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» موقوفًا (٦/ ١٨٧، ١٨٨) -ح- (١٠٤٤٩)، وأبو داود الطيالسي (ص/ ٤٥) -ح- (٣٣٨)، والدارمي في «سننه» (٢/ ١٤٢) «كتاب النكاح»، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ١٤٦) «كتاب النكاح» وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٠٢، ٣٩٣)، ورواه مسلم في «صحيحه» بنحوه مختصرًا (٢/ ٥٩٣)، «كتاب الجمعة» (٧) باب (١٣) -ح- (٤٦/ ٨٦٨)، وغيره.

الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

فهذا كتاب قد جعلته تحت عنوان «**بشارات أولياء الرحمن وحسرات ضحايا الهوى والشيطان**»، وقد جعلته لأولياء الرحمن، ولضحايا الهوى والشيطان، لأولياء الرحمن ليزيد المؤمنين والمؤمنات ثباتًا وإيمانًا، ولضحايا الشيطان، علهم أن يتقوا علهم أن يتوبوا، علهم أن يعودوا إلى الرحمن، ويحق فيهم قوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، وقصدت بأولياء الرحمن المقتصدين منهم والسابقين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[2]، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، الحافظون لحدود الله، المتقربون إلى الله بفعل الطاعات وترك المعاصي والمحرمات، وقصدت بضحايا الشيطان: هؤلاء الذين انساقوا خلف شهواتهم ونزواتهم وأهوائهم دون تقى، فأوقعهم الشيطان في مصايده، وغرز فيهم مخالبه، فكانت حياتهم ضنكًا وشقاءً، وفي السكرات أصيبوا بالحسرات. نعوذ بالله من سوء الخاتمة وشؤم العاقبة.

كتبه/ أبو عمر

محمد بن عبد الملك الزغبي

داعية إسلامي

مؤلف مساهم برابطة العالم الإسلامي (٤٩٣/ ب)

الحاصل على المركز الأول بدولة الكويت لسنوات عديدة

رئيس لجنة البحث العلمي لمجلة الدرة الكويتية

---

(١) سورة «الزمر» (٥٣).

(٢) سورة «يونس» (٦٣).

ما هذه السكرة وأنتم صاحون؟!

إخواني، ما هذه السِّنةُ وأنتم منتبهون؟ وما هذه الحيرة وأنتم تنظرون؟ وما هذه الغفلة وأنتم حاضرون؟ وما هذه السكرة وأنتم صاحون؟ وما هذا السكون وأنتم مطالبون؟ وما هذه الإقامة وأنتم راحلون؟ أما لأهل الرقدة أن يستيقظوا؟ أما حان لأبناء الغفلة أن يتعظوا؟

واعلم أن الناس كلهم في هذه الدنيا على سفر، فاعمل لنفسك ما يخلصها يوم البعث من سقر.

آن الرَّحِيلُ فَكُنْ عَلى حَذَرٍ ... مَا قَدْ تَرَى يُغْنِي عَنِ الحَذَرِ

لَا تَغْتَرر بِاليومِ أَوْ بغَدٍ ... فَلَرُبَّ مَغْرورٍ عَلى خَطَرِ[1]

حسرات عليك يا فريسة الهوى والشيطان

حسرات عليك يا من أعرضت عن ذكر الله ولم لا؟ ولله جل وعلا يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2].

حسرات عليك يا من نُسِيتَ ونَسِيتَ نفسك وصِرْتَ من الفاسقين ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3].

حسرات عليك يا من أَشْرَكْتَ بالله ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ

---

(١) انظر «بحر الدموع» (ص/ ٢٤).

(٢) سورة «طه»: (١٢٤ - ١٢٦).

(٣) سورة «الحشر» (١٩).

(٤) سورة «لقمان»: (١٣).

بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[١] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[٢] . حسرات عليك يا من اتَّبَعْت الشيطان، وعبدته من دون الرحمن، ويلٌ لك من النيران ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[٣] ، ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤] ، ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٥] . حسرات عليك يا من عصيت الله ورسوله، واتَّبَعْتَ الشيطان ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا ﴾[٦] ، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[٧] ، حسرات عليك يا من صرت أسير هواك ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[٨] ، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[٩] ، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ

---

(١) سورة «الحج»: (٣١).

(٢) سورة «النساء»: (١١٦).

(٣) سورة «يس»: (٦٠- ٦٤).

(٤) سورة «إبراهيم»: (٢٢).

(٥) سورة «الحشر»: (١٦).

(٦) سورة «النساء»: (١٤).

(٧) سورة «الجن»: (٢٣).

(٨) سورة «الفرقان»: (٤٣).

(٩) سورة «الجاثية»: (٢٣).

أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[1].

فَرَّقُوا دينهم وكانوا شيعًا

فإن أعظم النعم على الإنسان العقل، لأنه الآلة في معرفة الإله سبحانه والسبب الذي يتوصل به إلى تصديق الرسل، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد، بُعثت الرسل وأُنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس، ولما ثبت عند العقل أقوال الأنبياء الصادقة بدلائل المعجزات الخارقة، سلم إليهم واعتمد فيما يخفى عنه عليهم. ولما أنعم الله على هذا الْعَالَمِ الإنسي بالعقل افتتحه الله بنبوة أبيهم آدم عليه السلام، فكان يعلمهم عن طريق وحي الله عز وجل فكانوا على الصواب إلى أن انفرد هابيل بهواه فقتل أخاه، ثم تشعبت الأهواء بالناس فشردتهم في بيداء الضلال حتى عبدوا الأصنام واختلفوا في العقائد والأفعال اختلافًا خالفوا فيه الرسل والعقول اتباعًا لأهوائهم، وميلًا إلى عاداتهم، وتقليدًا لكبرائهم، فصدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين. واعلم أن الأنبياء جاءوا بالبيان الكافي، وقابلوا الأمراض بالدواء الشافي وتوافقوا على منهاج لم يختلف، فأقبل الشيطان يخلط بالبيان شبهًا، وبالدواء سمًّا وبالسبيل الواضح جردًا مضلًا، وما زال يلعب بالعقول إلى أن فرق الجاهلية في مذاهب سخيفة، وبدع قبيحة، فأصبحوا يعبدون الأصنام في البيت الحرام ويحرمون السائبة والبحيرة والوصيلة والحام، ويرون وأد البنات، ويمنعونهن الميراث، إلى غير ذلك من الضلال الذي سوله لهم إبليس، فابتعث الله سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ فرفع المقابح وشرع المصالح فسار أصحابه معه وبعده في ضوء نوره، سالمين من العدو وغروره، فلما انسلخ نهار وجودهم أقبلت أغباش

---

(١) سورة «الكهف»: (٢٨).

الظلمات، فعادت الأهواء تنشئ بدعًا، وتضيق سبيلًا ما زال متسعًا، ففرق الأكثرون دينهم وكانوا شيعًا، ونهض إبليس يلبس ويزخرف ويفرق ويؤلف، وإنما يصح له التلصص في ليل الجهل. فلو قد طلع عليه صبح العلم افتضح[١].

وعن حذيفة قال: كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كُنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دخن». قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر.....**» إلى قوله: «**...فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[٢].

وعن عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يد الله على الجماعة، والشيطان مع من يخالف الجماعة**»[٣].

وعن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**». قال: ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[٤].

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٥].

---

(١) انظر «تلبيس إبليس» (ص/ ٥، ٦).

(٢) الحديث: رواه البخاري (٧٠٨٤)، وأحمد (٥/ ٣٨٦)، ومسلم (١٨٤٧)، وابن ماجه (٣٩٧٩)، وابن أبي شيبة (١٨٩٦١).

(٣) الحديث: رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٥) وهو صحيح.

(٤) الحديث: رواه ابن ماجه في «سننه» (١١) وهو صحيح.

(٥) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٢٦٩٧)، ومسلم في «صحيحه» (١٧١٨).

وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال:«من رغب عن سنتي فليس مني»[١].

وعن خالد بن معدان، حدثني عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر، قالا: أتينا العرباض بن سارية وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾. فسلمنا وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين. فقال عرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمَّرَ عليكم عبدٌ حبشيٌّ، فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[٢].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «**أنا فرطكم على الحوض، وليختلجن رجال دوني، فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[٣].

وعن أيوب السختياني قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلا ازداد من الله عز وجل بعدًا.

وقال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

وعن محمد بن بكر قال: سمعت فضيل بن عياض يقول: من جلس إلى صاحب بدعة فاحذروه.

وعن عبد الصمد قال: سمعت الفضيل يقول: إذا رأيت مبتدعًا في طريق فخذ في طريق آخر، ولا يرفع لصاحب البدعة إلى الله عز وجل عمل. ومن أعان

(١) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٥٠٦٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٤٠١).
(٢) الحديث: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).
(٣) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٧٥٧٦)، ومسلم في «صحيحه» (٢٤٩).

صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام[١].

وقال: من زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رَجَوْتُ أن يغفر الله له سيئاته[٢].

وعن أبي البختري قال: أخبر رجل عبد الله بن مسعود أن قومًا يجلسون في المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول: كبِّروا الله كذا وكذا، وسبِّحوا الله كذا وكذا، واحمدوا الله كذا وكذا، قال عبد الله فإذا رأيتهم فعلوا ذلك فائتني فأخبرني بمجلسهم، فأتاهم فلما سمع ما يقولون قام فأتى ابن مسعود فجاء، وكان رجلًا حديدًا- فقال: أنا عبد الله بن مسعود والله الذي لا إله غيره لقد جئتم ببدعة ظلمًا ولقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علمًا. فقال عمرو بن عتبة: أستغفر الله، فقال: عليكم بالطريق فالزموه ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لتضلن ضلالًا بعيدًا[٣].

وعن أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله قال: «**إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة، فهلكت سبعون فرقة، وخلصت فرقة واحدة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة يهلك إحدى وسبعون وتخلص فرقة**» قالوا: يا رسول الله، وما تلك الفرقة؟ قال: «**الجماعة**»[٤].

---

(١) انظر «تلبيس إبليس» (١٥-١٧).

(٢) انظر تنزيه الشريعة برقم (٢) (٢/ ٢٠٠)، وقال: رواه ابن حبان، وفيه الحسن بن محمد البلخي وإنما هذا من كلام الشعبي، ورفعه باطل، وانظر الفوائد المجموعة برقم (١١) (ص/ ١٢٣)، وقال: رواه ابن حبان عن أنس مرفوعًا، وقال: الحسن بن محمد البلخي. يروي الموضوعات، وإنما هذا من كلام الشعبي، ورفعه باطل، وكذا قال الذهبي.

(٣) انظر تلبيس إبليس (١٥-١٧).

(٤) الحديث: رواه ابن ماجه في «سننه» (٣٩٩٣) وهو صحيح.

تلبيس إبليس على الخوارج[١] ونماذج من سوء خاتمة بعضهم

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بعث علي ﷺ من اليمن إلى رسول الله ﷺ بذهبة في أديم مقروظ لم تخلص من ترابها فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة: بين زيد الخيل، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وعلقمة بن علاثة أو عامر بن الطفيل، شك عمارة فوجد من ذلك بعض أصحابه والأنصار وغيرهم فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء**»، ثم أتاه رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناتئ الجبهة كث اللحية مشمر الإزار محلوق الرأس فقال: اتق الله يا رسول الله. فرفع رأسه إليه فقال: «**ويحك أليس أحق الناس أن يتقي الله أنا**» ثم أدبر. فقال خالد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فلعله يكون يصلي**» فقال: إنه رب مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**» ثم نظر إليه النبي ﷺ وهو مقف فقال: «**إنه سيخرج من ضئضئ هذا قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**». هذا الرجل يقال له ذو الخويصرة التميمي، وفي لفظ أنه قال له: اعدل فقال: «**ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل**». فهذا أول خارجي خرج في الإسلام وآفته أنه رضى برأي نفسه ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله ﷺ، وأتباع هذا الرجل هم الذين قاتلوا عليًّا بن أبي طالب ﷺ. وذلك أنه لما طالت الحرب بين معاوية وعلي ﷺ رفع أصحاب معاوية المصاحف ودعوا أصحاب علي إلى ما فيها وقال: تبعثون منكم رجلًا ونبعث منا رجلًا. ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله عز وجل. فقال الناس: قد رضينا فبعثوا عمرو بن العاص، فقال أصحاب علي: ابعث أبا موسى فقال علي: لا أرى

---

(١) انظر «تلبيس إبليس» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص/ ١٠٢-١٠٨) بتصرف.

أن أُوَلِّي أبا موسى، هذا ابن عباس. قالوا: لا نريد رجلًا منك فبعث أبا موسى، وأخر القضاء إلى رمضان فقال عُروة بن أذينة: تحكمون في أمر الله الرجال لا حكم إلا لله. ورجع علي من صفين فدخل الكوفة ولم تدخل معه الخوارج، فأتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفًا وقالوا: لا حكم إلا لله وكان ذلك أول ظهورهم، ونادى مناديهم أن أمير القتال شبيب بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، وكانت الخوارج تتعبد إلا أن اعتقادهم أنهم أعلم من علي بن أبي طالب ﷺ وهذا مرض صعب.

وعن سماك بن زميل قال: قال عبد الله بن عباس: إنه لما اعتزلت الخوارج دخلوا دارًا وهم ستة آلاف وأجمعوا على أن يخرجوا على علي بن أبي طالب، فكان لا يزال يجيء إنسان فيقول: يا أمير المؤمنين إن القوم خارجون عليك فيقول: دعوهم فإني لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسوف يفعلون. فلما كان ذات يوم أتيته قبل صلاة الظهر فقلت له: يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة لعلي أدخل على هؤلاء القوم فأكلمهم. فقال: إني أخاف عليك. فقلت: كلا وكنت رجلًا حسن الخلق لا أوذي أحدًا فأذن لي، فلبست حلة من أحسن ما يكون من اليمن، وترجلت فدخلت عليهم نصف النهار، فدخلت على قوم لم أَرَ قط أشد منهم اجتهادًا، جباههم قرحة من السجود وأياديهم كأنها ثفن الإبل، وعليهم قمص مرحضة، مشمرين، مسهمة وجوههم من السهر، فسلمت عليهم فقالوا: مرحبًا بابن عباس ما جاء بك؟ فقلت: أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار ومن عند صهر رسول الله ﷺ، وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله منكم، فقالت طائفة منهم: لا تخاصموا قريشًا فإن الله عز وجل يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1] فقال اثنان أو ثلاثة لنكلمنه، فقلت: هاتوا ما قلتم على صهر رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار وعليهم نزل القرآن وليس فيكم من أحد، وهم أعلم بتأويله، قالوا: ثلاثًا قلت: هاتوا: قالوا: أما إحداهن: فإنه حكم

(١) سورة «الزخرف»: (٥٨).

الرجال في أمر الله وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[١] فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل، فقلت: هذه واحدة وماذا؟ قالوا: وأما الثانية فإنه قاتل وقتل ولم يسب ولم يغنم، فإن كانوا مؤمنين فلم يحل لنا قتالهم وقتلهم ولم يحل لنا سبيهم؟ قلت: وما الثالثة؟ قالوا: فإنه محا عن نفسه أمير المؤمنين فإن إن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين. قلت: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: كفانا هذا. قلت لهم: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله أنا أقرأ عليكم من كتاب الله ما ينقض هذا، فإذا نقض قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم. قلت: فإن الله قد صير من حكمه إلى الرجال في ربع درهم ثمن أرنب وتلا هذه الآية: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[٢] إلى آخر الآية وفي المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾[٣] إلى آخر الآية فنشدتكم بالله هل تعلمون حكم الرجال في إصلاح ذات بينهم وفي حقن دمائهم أفضل أم حكمهم في أرنب وبضع امرأة فأيهما ترون أفضل؟ قالوا: بل هذه. قلت: خرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم: قاتل ولم يسب ولم يغنم فتسبون أمكم عائشة رضي الله عنها. والله لئن قلتم ليست بأمنا لقد خرجتم من الإسلام، والله لئن قلتم لنسبينها ونستحل منها ما نستحل من غيرها لقد خرجتم من الإسلام. فأنتم بين ضلالتين لأن الله عز وجل قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[٤] أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم محا عن نفسه أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون. إن النبي ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو. فقال لعلي رضي الله عنه: «**اكتب لهم كتابًا فكتب لهم علي: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله ﷺ**» فقال المشركون: والله ما نعلم أنك

(١) سورة «يوسف»: (٤٠).

(٢) سورة «المائدة»: (٩٥).

(٣) سورة «النساء»: (٣٥).

(٤) سورة «الأحزاب»: (٦).

رسول الله لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «**اللهم إنك تعلم أني رسول الله امح يا علي**»[١]. **اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله**» فوالله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه. قال: فرجع منهم ألفان وخرج سائرهم فقتلوا. وعن أبي الشائعة عن جندب الأزدي قال: لما عدلنا إلى الخوارج ونحن مع علي ابن أبي طالب ﷺ قال: فانتهينا إلى معسكرهم فإذا لهم دوي كدوي النحل من قراءة القرآن. وفي رواية أخرى أن عليًّا ﷺ لما حكم، أتاه من الخوارج زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي فدخلا عليه فقالا له: لا حكم إلا لله. فقال علي: لا حكم إلا لله، فقال له حرقوص: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتنا واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا ولئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل لأقاتلنك أطلب بذلك وجه الله، واجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينسبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا التي إيثارها عناء آثر عنده من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق فاخرجوا بنا. فكتب إليهم علي بن أبي طالب ﷺ أما بعد: فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيا حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما ونحن على الأمر الأول، فكتبوا إليه: إنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك. وإلا فقد نابذناك على سواء والسلام. ولقي الخوارج في طريقهم عبد الله بن خباب فقالوا: هل سمعت من أبيك حديثًا تحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه قال: نعم، سمعت أبي يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول. قالوا: أنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله؟ قال: نعم فقدموه

---

(١) انظر الرحيق المختوم «للمباركفوري» مؤسسة الريان (ص/ ٢٤٢، ٢٤٣).

إلى شفير النهر فضربوا عنقه فسال دمه كأنه شراك نعل. وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها وكانت حبلى ونزلوا تحت نخل مواقير بنهروان فسقطت رطبة فأخذها أحدهم فقذف بها في فيه. فقال أحدهم أخذتها وبغير ثمنها فلفظها من فيه. واخترط أحدهم سيفه فأخذ يهزه، فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه به يجربه فيه فقالوا: هذا فساد في الأرض فلقي صاحب الخنزير فأرضاه في ثمنه. قال: فبعث إليهم علي ﷺ: أخرجوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب فقالوا: كلنا قتله. فناداهم ثلاثًا. كل ذلك يقولون هذا القول. فقال علي ﷺ لأصحابه. دونكم القوم. فما لبثوا أن قتلوهم وكان وقت القتال يقول بعضهم لبعض: تهيأ للقاء الرب الرواح الرواح إلى الجنة! وخرج على علي ﷺ بعدهم جماعة منهم فبعث إليهم من قاتلهم ثم اجتمع عبد الرحمن بن ملجم بأصحابه وذكروا أهل النهروان فترحموا عليهم وقالوا: والله ما قنعنا بالبقاء في الدنيا شيء بعد إخواننا الذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو أنا سرينا أنفسنا لله والتمسنا غير هؤلاء الأئمة الضلال فثأرنا بهم إخواننا وأرحنا منهم العباد. وعن محمد بن سعد عن أشياخ له. فقالوا: انتدب ثلاثة نفر من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي فاجتمعوا بمكة وتعاهدوا وتعاقدوا لنقتلن هؤلاء الثلاثة: عليًا ومعاوية، وعمرو بن العاص، ونريح العباد منهم. فقال ابن ملجم: أنا لكم بعلي. وقال البرك: أنا لكم بمعاوية. وقال عمرو: أنا لكم بعمرو فتواثقوا لا ينقض رجل منهم رجلًا عن صاحبه، فقدم ابن ملجم الكوفة فلما كانت الليلة التي عزم على قتل علي ﷺ فيها خرج علي ﷺ لصلاة الصبح فضربه فأصابه في جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه. فقال علي ﷺ: لا يفوتنكم الرجل فأخذ. فقالت أم كلثوم: يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين فبئس. قال: فلم تبكين إذن ثم قال: والله لقد سمعته يعني فإن أخلفني فأبعده الله وأسحقه. فلما مات علي ﷺ أخرج ابن ملجم ليقتل فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم، فكحل عينيه بمسمار محمي. فلم يجزع وجعل

يقرأ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[١] حتى ختمها وإن عينيه لتسيلان فعولج على قطع لسانه فجزع. فقيل له: لم تجزع؟ فقال: أكره أن أكون في الدنيا مواتًا لا أذكر الله، وكان رجلًا أسمر في جبهته أثر السجود لعنة الله عليه. ولما أراد الحسن ﷺ أن يصالح معاوية خرج عليه من الخوارج الجراح بن سنان. وقال أشركت كما أشرك أبواك ثم طعنه في أصل فخذه. ومازالت الخوارج تخرج على الأمراء ولهم مذاهب مختلفة. وكان أصحاب نافع بن الأزرق يقولون: نحن مشركون مادمنا في دار الشرك فإذا خرجنا فنحن مسلمون قالوا: ومخالفونا في المذهب مشركون. ومرتكبو الكبائر مشركون. والقاعدون عن موافقتنا في القتل كفرة وأباح هؤلاء قتل النساء والصبيان من المسلمين وحكموا عليهم بالشركِ، وكان نجدة بن عامر الثقفي من القوم فخالف نافع ابن الأزرق وقال بتحريم دماء المسلمين وأموالهم، وزعم أن أصحاب الذنوب من موافقيه يعذبون في غير نار جهنم وإن جهنم لا يعذب بها إلا مخالفوه في مذهبه.

وقال إبراهيم: الخوارج قوم كفار وتحل لنا مناكحتهم ومواريثهم كما كان الناس في بدء الإسلام. وكان بعضهم يقول: لو أن رجلًا أكل من مال يتيم فلسين وجبت له النار؛ لأن الله عز وجل أوعد على ذلك النار. واعتقدوا أن علي بن أبي طالب ﷺ على الخطأ وأنهم على الصواب. واستحلوا دماء الأطفال ولم يستحلوا أكل ثمرة بغير ثمنها وتعبوا في العبادات وسهروا، وجزع ابن ملجم عند قطع لسانه من فوات الذكر، واستحل قتل علي ﷺ ثم شهروا السيوف على المسلمين ولا أعجب من اقتناع هؤلاء بعلمهم واعتقادهم أنهم أعلم من علي ﷺ، فقد قال ذو الخويصرة لرسول الله ﷺ: اعدل فما عدلت. وما كان إبليس ليهتدي إلى هذه المخازي. نعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) سورة «العلق»: (١، ٢).

تلبيس إبليس على الرافضة[١]

كما لبس إبليس على هؤلاء الخوارج حتى قاتلوا عليًّا بن أبي طالب، حمل آخرين على الغلو في حُبه، فزادوه على الحد، فمنهم من كان يقول هو الإله، ومنهم من يقول هو خير من الأنبياء، ومنهم من حمله على سب أبي بكر وعمر حتى إن بعضهم كَفَّرَ أبا بكر وعمر إلى غير ذلك من المذاهب السخيفة التي يرغب عن تضييع الزمان بذكرها.

وغلو الرافضة في حب علي ﷺ حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله أكثرها تشينه وتؤذيه، منها: أن الشمس غابت، ففاتت عليًّا صلاة عصر، فرُدت له الشمس[٢]، وكذلك وضعوا أن فاطمة اغتسلت، ثم ماتت، وأوصت أن تكتفي بذلك الغسل، وهذا من حيث النقل كذب[٣]، ثم لهم خرافات لا يسندونها إلى مستند، ولهم مذاهب في الفقه ابتدعوها، وخرافات تخالف الإجماع.

ومنها: أنه لا يجوز السجود على ما ليس بأرض ولا من نبات الأرض، فأمَّا الصوف والجلود والوبر فلا. وأن الاستجمار لا يجزئ في البول، بل في الغائط خاصة. ولا يجزئ مسح الرأس إلا بباقي البلل الذي في اليد فإن استأنف للرأس بللًا مستأنفًا لم يجزئه حتى لو نشفت يده من البلل احتاج إلى استئناف الطهارة. وانفردوا بتحريم من زنى بها وهي تحت زوج أبدًا، فلو طلقها زوجها لم تحل

---

(١) انظر «تلبيس إبليس» مرجع سابق (ص ١٠٧، ١١٠، ١١١) بتصرف.

(٢) الحديث: موضوع قال أبو الفرج – رحمه الله-: (وهذا من حيث النقل موضوع لم يروه ثقة، ومن حيث المعنى، فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد فلا يرد الوقت) انظر «التلبيس» (ص/ ١١٠).

(٣) قال أبو الفرج: هذا من حيث النقل كذب، ومن حيث المعنى قلة فهم، لأن الغسل عن حدث الموت فكيف يصح قبله. انظر «التلبيس» (ص/ ١١٠).

للزاني بها بنكاح أبدًا. وحرموا الكتابيات، وأن الطلاق لا يقع إلا بحضور شاهدين عدلين.... إلخ. في مسائل كثيرة يطول ذكرها خرقوا فيها الإجماع، وسوَّل لهم إبليس وضعها على وجه لا يستندون فيه إلى أثر ولا قياس، بل إلى الواقعات، وقد حرموا الصلاة لكونهم لا يغسلون أرجلهم في الوضوء والجماعة لطلبهم إمامًا معصومًا، وابتلوا بسب الصحابة، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه**»[(١)].

وعن المنهال بن عمرو عن سويد بن غفلة قال: مررت بنفر من الشيعة يتناولون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وينقصونهما فدخلت على علي بن أبي طالب فقلت: «**يا أمير المؤمنين مررت بنفر من أصحابك يذكرون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بغير الذي هما ولولا أنهم يرون أنك تضمر لهما على مثل ما أعلنوا ما اجترؤوا على ذلك**» قال علي: أعوذ بالله أن أضمر لهما إلا الذي ائتمنني النبي عليه. لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل أخوا رسول الله وصاحباه ووزيراه رحمة الله عليهما، ثم نهض دامع العينين يبكي قابضًا على يدي حتى دخل المسجد، فصعد المنبر وجلس عليه متكئًا قابضًا على لحيته وهو ينظر فيها وهي بيضاء حتى اجتمع لنا الناس، ثم قام فتشهد بخطبة موجزة بليغة. ثم قال: ما بال أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه منزه، ومما قالوه بريء وعلى ما قالوا معاقب أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن تقي ولا يبغضهما إلا كل فاجر شقي صحبا رسول الله ﷺ على

---

(١) الحديث: صحيح: رواه البخاري (٣٦٧٣) في صحيحه، ومسلم في صحيحه (٦٦٣٤، ٦٦٣٥، ٦٣٣٦)، والترمذي (٣٨٦١)، وأبو داود في سننه (٤٦٨٥)، وأحمد في مسنده عن أبي سعيد، ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة، وانظر تحفة الأشراف -ح- (٤٠٠١)،(١٢٥٣٦).

الصدق والوفاء يأمران وينهيان ويغضبان ويعاقبان فيما يتجاوزان فينا يصنعان رأي رسول الله ﷺ ولا كان رسول الله ﷺ يرى غير رأيهما ولا يحب كحبهما أحدًا. مضى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهما، ومضيا والمؤمنون عنهما راضون. أمَّره رسول الله ﷺ على صلاة المؤمنين فصلى بهم تسعة أيام في حياة رسول ﷺ فلما قبض الله نبيه واختار له ما عنده. ولاه المؤمنون ذلك وفوضوا إليه الزكاة ثم أعطوه البيعة طائعين غير مكرهين. وأنا أول من سن له ذلك من بني عبد المطلب وهو لذلك كاره يود لو أن منا أحدًا كفاه ذلك.

وكان والله خير من أبقى أرحمه رحمة وأرأفه رأفة وأسنه ورعًا وأقدمه سنًّا وإسلامًا. شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورحمة، وبإبراهيم عفوًا ووقارًا فسار بسيرة رسول الله ﷺ حتى مضى على ذلك رحمة الله عليه، ثم ولى الأمر بعده عمر ﷺ وكنت فيمن رضي، فأقام الأمر على منهاج رسول الله ﷺ وصاحبه، يتبع أثرهما كما يتبع الفصيل أثر أمه وكان والله رفيقًا رحيمًا بالضعفاء ناصرًا للمظلومين على الظالمين. لا يأخذه في الله لومة لائم وضرب الله الحق على لسانه وجعل الصدق من شأنه، حتى إن كنا لنظن أن ملكًا ينطق على لسانه أعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قوامًا وألقى له في قلوب المنافقين الرهبة، وفي قلوب المؤمنين المحبة، شبهه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجبريل فظا غليظًا على الأعداء.

فمن لكم بمثلهما رحمة الله عليهما ورزقنا المضي في سبيلهما فمن أحبني فليحبهما ومن لم يحبهما فقد أبغضني وأنا منه بريء، ولو كنت تقدمت إليكم في أمرهما لعاقبت في هذا أشد العقوبة، ألا فمن أوتيت به يقول بعد هذا اليوم فإن عليه ما على المفتري ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ﷺ ثم الله أعلم بالخير

أين هو. أقول قولي وأستغفر الله لي ولكم.

وعن أبي المحياه قال: حدثني رجل قال: خرجنا في سفر، ومعنا رجل يشتم أبا بكر ﷺ فنهيناه، فلم ينته، فخرج لبعض حاجته فاجتمع عليه الدبر -يعني الزنابير- فاستغاث فأغثناه فحملت علينا حتى تركناه، فما أقلعت عنه حتى قطعته وأكلته[١].

تلبيس إبليس على الباطنية[٢]

قال أبو الفرج: الباطنية قوم تستروا بالإسلام، ومالوا إلى الرفض، وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع، وإبطال النبوة، والعبادات، وإنكار البعث، ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم، بل يزعمون أن الله حقٌّ، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، والدين صحيح، لكنهم يقولون: لذلك سر غير ظاهر، وقد تلاعب بهم إبليس، فبالغ، وحسن لهم مذاهب مختلفة، ولهم أسماء ثمانية: الباطنية، والإسماعيلية، والسبعية، والبابكية، والمحمرة، والقرامطة، والخرمية، والتعليمية.

أرادوا الانسلال من الدين فشاوروا جماعة من المجوس، والمزدكية، والثنوية، وملحدة الفلاسفة في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين عليهم حتى أخرسوهم عن النطق بما يعتقدونه من إنكار الصانع، وتكذيب الرسل، وجحد البعث، وزعمهم أن الأنبياء ممخرقون وممسوسون، ورأوا أمر محمد ﷺ قد استطار في الأقطار، وأنهم قد عجزوا عن مقاومته فقالوا: سبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم أزكاهم عقلًا وأتحفهم رأيًا وأقبلهم للمحاولات

(١) تلبيس إبليس (ص/ ٦٩) برقم (٧٠).

(٢) تلبيس إبليس (ص/ ١١٣- ١١٨) بتصرف.

والتصديق بالأكاذيب وهم الروافض فتحصن بالانتساب إليهم، ونتودد إليهم بالحزن على ما جرى على آل محمد ﷺ من الظلم والذل، ليمكننا شتم القدماء الذين نقلوا إليهم الشريعة، فإذا هان أولئك عندهم لم يلتفتوا إلى ما نقلوا، فأمكن استدراجهم إلى الانخداع عن الدين، فإن بقي منهم معتصم بظواهر القرآن والأخبار أوهمناه أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن، وأن المنخدع بظواهرها أحمق، وإنما الفطنة في اعتقاد بواطنها، ثم نبث إليهم عقائدنا، ونزعم أنها المراد بظواهرها عندكم، فإذا تكثرنا بهؤلاء تسهل علينا استدراج باقي الفرق، ثم قالوا: وطريقنا أن نختار رجلًا ممن يساعد على المذهب، ويزعم أنه من أهل البيت، وأنه يجب على كل الخلق كافة متابعته، ويتعين عليهم طاعته لكونه خليفة رسول الله ﷺ، والمعصوم من الخطأ والزلل من جهة الله عز وجل، ثم لا تظهر هذه الدعوة على القرب من جوار هذا الخليفة الذي وسمناه بالعصمة... وقصدهم بهذا كله الاستيلاء على أموال الناس، والانتقال منهم لما عاملوهم به من سفك دمائهم، ونهب أموالهم قديمًا فهذا غاية مقصودهم ومبدأ أمرهم.

من جرائم الباطنية

التهبت جمرة الباطنية المتأخرين في سنة أربع وتسعين وأربعمائة، فقتل السلطان جلال الدولة برقيادق خلقًا منهم لما تحقق مذهبهم، فبلغت عدة القتلى ثلاثمائة ونيفًا، وتتبع أموالهم فوجد لأحدهم سبعون بيتًا من اللآلئ المحفورة وكتب بذلك كتابًا إلى الخليفة، فتقدم بالقبض على قوم يظن فيهم ذلك المذهب ولم يتجاسر أحد أن يشفع في أحد لئلا يظن ميله إلى ذلك المذهب، وزاد تتبع العوام لكل من أرادوا، وصار كل من في نفسه شيء من إنسان يرميه بهذا المذهب فيقصيه

وينتهب ماله، وأول ما عرف من أحوال الباطنية في أيام الملك شاه جلال الدولة أنهم اجتمعوا فصلوا صلاة العيد في ساوة.

ففطن بهم ابن الشحنة فأخذهم وحبسهم، ثم أطلقوا ثم اغتالوا مؤذنًا من أهل ساوة، اجتهدوا أن يدخل معهم فلم يفعل فخافوه أن ينم عليهم فاغتالوه فقتلوه، فبلغ الخبر إلى نظام الملك فتقدم يأخذ من يتهم فيقتله، فقتل المتهم وكان نجارًا وكانت أول فتكة لهم فتكهم بنظام الملك، وكانوا يقولون: قتلتم منا نجارًا فقتلنا به نظام الملك.

واستفحل أمرهم بأصبهان فلما مات الملك شاه وآل الأمل إلى أنهم كانوا يسرقون الإنسان ويقتلونه ويلقونه في البئر، وكان الإنسان إذا دنا وقت العصر ولم يعد إلى منزله أيسوا منه، وفتش الناس المواضع فوجدوا امرأة في دار لا تبرح فوق حصير. فأزالوها فوجدوا تحت الحصير أربعين قتيلًا. فقتلوا المرأة وأحرقوا الدار والمحلة وكان يجلس رجل ضرير على باب الزقاق الذي فيه هذه الدار. فإذا مر إنسان سأله أن يقوده خطوات إلى الزقاق فإذا حصل هناك جذبه من الدار، واستولوا عليه، فجد المسلمون في طلبهم بأصبهان وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأول قلعة تملكها الباطنية قلعة في ناحية يقال لها الروذباد من نواحي الديلم وكانت هذه القلعة لقماح صاحب ملكشاه وكان يستحفظها مهتمًا بمذهب القوم، فأخذ ألفًا ومائتي دينار وسلم إليهم القلعة في سنة ثلاثة وثمانين في أيام ملكشاه وقدمها الحسن بن الصباح وأصله من مرود وكان كاتبًا للرئيس عبد الرازق بن بهرام إذ كان صبيًا ثم جاء إلى مصر وتلقى من دعاتهم المذاهب وعاد داعية القوم ورأسًا فيهم وحصلت له هذه القلعة.

وكانت سيرته في دعاته ألا يدعوا إلا غبيًا لا يفرق بين يمينه وشماله مثلًا ومن لا

يعرف أمور الدنيا ويطعمه الجوز والعسل والشونيز حتى ينبسط دماغه ثم يذكر له حينئذ ما تم على أهل بيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعليهم من الظلم والعدوان حتى يستقر ذلك في نفسه، ثم يقول: إذا كانت الأزارقة والخوارج سمحوا بنفوسهم في قتال بني أمية فما سبب بخلك بنفسك في نصرة إمامك فيتركه بهذه المقالة طعمة للسيف، وكاملكشاه قد أرسل إلى هذه ابن الصباح يدعوه إلى الطاعة ويتهدده إن خالفه ويأمره بالكف عن بث أصحابه لقتل العلماء والأمراء، فقال في جواب الرسالة والرسول حاضر الجواب: ما تراه. ثم قال لجماعة وقوف بين يديه: أريد أن أنفذكم إلى مولاكم في حاجة فمن ينهض لها فاشرأب كل منهم لذلك، فظن رسول السلطان أنها رسالة يحملها إياهم. فأومأ إلى شاب منهم فقال له اقتل نفسك فجذب سكينه وضرب بها غلصمته فخر ميتًا.

وقال لآخر: ارم نفسك من القلعة فألقى نفسه فتمزق. ثم التفت إلى رسول السلطان فقال: أخبره أن عندي من هؤلاء عشرين ألفًا هذا حد طاعتهم لي وهذا هو الجواب، فعاد الرسول إلى السلطان ملكشاه فأخبره به بما رأى، فعجب من ذلك وترك كلامهم وصارت بأيديهم قلاع كثيرة، ثم قتلوا جماعة من الأمراء والوزراء[1].

نماذج من سوء خاتمة بعض الباطنية

وهذا رجل من ناحية خوزستان قدم سواد الكوفة فأظهر الزهد ودعا إلى إمام من أهل بيت الرسول ﷺ ونزل على رجل يقال له: كرميته؛ لقب بهذا لحمرة عينيه، وهو بالنبطية: حاد العين، فأخذه أمير تلك الناحية فحبسه وترك مفتاح البيت تحت رأسه ونام، فرقت له جارية؛ فأخذت المفتاح ففتحت البيت

(١) تلبيس إبليس (١/ ١٣٣).

وأخرجته، وردت المفتاح إلى مكانه، فلما طلب فلم يوجد، زاد افتتان الناس به فخرج إلى الشام، فسمي: كرميته؛ باسم الذي كان نازلًا عليه، ثم خفف فقيل: قرمط ثم توارث مكانه أهله وأولاده.

والثاني: أن القوم قد لقبوا بهذا؛ نسبة إلى رجل يقال له: حمدان قرمط، كان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له جماعة فسموا قرامطة وقرمطية، وكان هذا الرجل من أهل الكوفة، وكان يميل إلى الزهد، فصادفه أحد دعاة الباطنية في فريق وهو متوجه إلى قريبة وبين يديه بقر يسوقها، فقال حمدان لذلك الراعي -وهو لا يعرفه-: أين مقصدك؟ فذكر قرية حمدان فقال له: اركب بقرة من هذه لئلا تتعب فقال: إني لم أومر بذلك، فقال: وكأنك لا تعمل إلا بأمر؟ قال: نعم. قال: وبأمر مَنْ تعمل؟ قال: بأمر مالكي ومالكك ومالك الدنيا والآخرة. فقال: ذلك إذن هو الله رب العالمين. فقال: صدقت. قال له: فما غرضك في هذه القرية التي تقصدها؟ قال: أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم ومن الضلالة إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر وأملكهم ما يستغنون به عن الكد، فقال له حمدان: أنقذني أنقذك الله، وأفض عليَّ من العلم ما تحييني به فما أشد احتياجي إلى مثل هذا، فقال: ما أمرت أن أخرج السر المخزون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به والعهد إليه.

فقال: اذكر عهدك فإني ملتزم به. فقال له: أن تجعل لي وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه ألا تخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك، ولا نفس سري -أيضًا- فالتزم حمدان عهده ثم اندفع الراعي في تعليمه فنون جهله حتى استغواه فاستجاب له، ثم انتدب للدعاء، وصار أصلًا من أصول هذه البدعة فسمي أتباعه القرامطة والقرمطية، ثم لم يزل بنوه يتوارثون مكانه، وكان أشدهم بأسًا رجل يقال له: أبو

سعيد ظهر في سنة ست وثمانين ومائتين، وقوي أمره، وقتل ما لا يحصى من المسلمين، وخرب المساجد وأحرق المصاحف، وفتك بالحجاج، وسن لأهله وأصحابه سننًا وأخبرهم بمحالات.

وكان إذا قاتل يقول: وعدت النصر في هذه الساعة، فلما مات بنوا على قبره قبة وجعلوا على رأسها طائرًا من جص، وقالوا: إذا طار هذا الطائر خرج أبو سعيد من قبره وجعلوا عند القبر فرسًا، وخُلْعَةً ثيابًا، وسلاحًا، وقد سول إبليس لهذه الجماعة أنه من مات وعلى قبره فرس حشر راكبًا وإن لم يكن له فرس حشر ماشيًا.

وكان أصحاب أبي سعيد يصلون عليه إذا ذكروه ولا يصلون على رسول الله ﷺ فإذا سمعوا من يصلي على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون: أتأكل رزق أبي سعيد وتصلي على أبي القاسم؟. وخلف بعده ابنه أبا طاهر ففعل مثل فعله وهجم على الكعبة فأخذ ما فيها من الذخائر وخلع الحجر الأسود فحمله إلى بلده وأوهم الناس أنه الله عز وجل.

الخبيث صاحب الزنج[1]

المدعي أنه طالبي، وهو كاذب، دخل جيشه البصرة، سنة ٢٥٧هـ، فقتل من أهلها خلقًا، وأحرق الزنج جامع البصرة، ودورًا كثيرة وانتهبوها، ثم نادى فيهم إبراهيم بن الهلبي أحد أصحاب الزنجي: من أراد الأمان فليحضر، فاجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة، فرأى أنه قد أصاب فرصة، فغدر بهم وأمر بقتلهم فلم يفلت منهم إلا الشاذ. كانت الزنج تحيط بجماعة من أهل البصرة، ثم يقول

(١) انظر «البداية والنهاية» (١١/ ٤٥-٤٨)، وتاريخ الطبري (٥/ ٢٧٥-٢٨٨)، وانظر «الجزاء من جنس العمل» (ص/ ١٨٥-١٨٧).

بعضهم لبعض: كيلوا- وهي الإشارة بينهم إلى القتل - فيحملون عليهم بالسيوف فلا يسمع إلا تشهدهم، وضجيجهم وهم يقتلون، أي: صراخ الزنج وضحكهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وهكذا كانوا يفعلون في كل محال بالبصرة، في عدة أيام نحسات وهرب الناس منهم كل مهرب، وحرقوا الكلأ من الجبل إلى الجبل، فكانت النار تحرق ما وجدت من شيء من إنسان، أو بهيمة أو أثار أو غير ذلك، وأحرقوا المسجد الجامع، وقتلوا جماعة كثيرة من الأعيان والمحدثين والعلماء.

روى ابن جرير عمن سمعه، يقول: دعوت الله على أهل البصرة فخوطبت فقيل: إنما أهل البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف، خربت البصرة، فأولت الرغيف القمر، وانكساره انكسافه وقد كان هذا شائعًا في أصحابه، حتى وقع الأمر طبق ما أخبر به.

قال ابن كثير: ولا شك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه، كما كان يأتي الشيطان مسيلمة وغيره.

وقال: ولما وقع من الزنج بأهل البصرة ما وقع، قال هذا الخبيث لمن معه: إني صبيحة ذلك، دعوت الله على أهل البصيرة، فرفعت لي البصرة بين السماء والأرض، ورأيت أهلها يقتلون ورأيت الملائكة تقاتل مع أصحابي وإني لمنصور على الناس والملائكة تقاتل معي، وتثبت جيوشي، ويؤيدوني في حروبي.

وبعد أن عاث في الأرض فسادًا، وقتل من قتل، كتب إليه ولي عهد المسلمين الموفق، أخو الخليفة المعتمد ودعاه إلى الحق فلم يجبه، استهانة به فركب إليه من فوره في جيوش عظيمة قريب من خمسين ألف مقاتل قاصدًا إلى المختارة -مدينة صاحب الزنج- وجرت بينهم حروب عظيمة ومازالت الحروب ناشبة، حتى

انسلخت السنة وهم محاصرون للخبيث صاحب الزنج، وظفر الموفق ببهبوذ بن عبد الله فقتله وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين وأعظم الرزايا عند الزنج، وخرب الموفق بالله مدينة صاحب الزنج واحتاز ما كان بها من الأموال وقتل من كان بها من الرجال وسبى من وجد فيها من النساء والأطفال، ولما فر الخبيث وتحصن ببلدة أخرى أخرجوه منها ذليلًا، ثم بعث السرايا والجيوش، وراء صاحب الزنج فأسروا عامة من كان معه من خاصته وجماعته منهم سليمان بن جامع فاستبشر الناس بأسره وكبروا الله وحمدوه فرحًا بالنصر والفتح، وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة على أصحاب الخبيث فاستعر فيهم القتل، وما انجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج وأتى برأسه معه غلام لؤلؤة الطولوني، فلما تحقق الموفق أنه رأسه بعد شهادة الأمراء، الذين كانوا معه أصحابه خر ساجدًا لله، وسجد ابن الموفق وقواده ومواليه وغلمانه، شكرًا لله، وأكثروا حمد الله والثناء عليه، وأمر الموفق برفع رأس الخبيث على قناة ونصبه بين يديه فتأمله الناس، وعرفوا صحة الخبر، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله.

وكان يومًا مشهودًا، وفرح المسلمون بذلك في المغارب والمشارق، وجيء بولده بانكلاني، وأبان بن علي المهلبي، مسعر حربهم مأسورين، ومعهم قريب من خمسة آلاف أسير، فتم السرور.

وسار الموفق إلى بغداد وقدَّم ولده أبا العباس بين يديه ومعه رأس الخبيث يحمل ليراه الناس، وكان يومًا مشهودًا، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعي الكذاب - قبحه الله.

* * *

الشيطان بابك الخرمي[١]

هذا الشقي الثنوي، الذي كان على دين ماني ومزدك، وكان يقول بتناسخ الأرواح ويستحل البنت وأمها.

قيل: كان ولد زنا، وكانت أمه عوراء، يقال لها: رومية العلجة، وكان علي بن مزد كان يدعي أنه زنى بها، وبابك منه، وقيل: كانت صعلوكة من قرى أذربيجان، فزنى بها نبطي، فحملت منه ببابك، فرُبي أجيرًا في القرية، وكان هناك قوم من الخرمية لهم كبيران: جاوندان، وعمران فتفرس جاوندان النجابة في بابك، فاكتراه من أمه، فهويته زوجة جاوندان، وأطلعته على الأسرار، ثم قتل زوجها في محاربة لابن عمه، فزعمت أن زوجها استخلف بابك، فصدقها الجميع فأمرهم أن يقتلوا من وجدوه في الليل، فأصبح عدة قتلى، وانضاف إليهم كل شرير، وقاطع طريق، وصار أمر بابك إلى ما صار، ولقد أخاف الإسلام وأهله، وغلب على أذربيجان وغيرها، وأراد أن يقيم الملة المجوسية، وكان هذا الشقي يدعو إلى الإباحية، وظهر في أيامه المازيار بالمجوسية في طبرستان، وعظم البلاء، ولقد دخل مازيا في الإسلام، وتسمى محمدًا وكان صاحب جبال طبرستان، ولقد أعلن العصيان بطبرستان، وطلع المعتصم.

وكان المعتصم والمأمون قد أنفقوا على حرب بابك، قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، ولقد جهز خلفاء بني العباس جيوشًا كثيرة إليه مع إفشين الحاجب، ومحمد ابن يوسف الثغري، وأبي دلف العلجي، وأقرانهم وفي سنة ٢٢٢ هـ بعث المعتصم جيشه مع الإفشين، وكانت نفقات الجيش ثلاثين ألف ألف درهم،

(١) انظر «تاريخ الطبري» (٩/ ٢٢٠- ٢٣٥)، وانظر «الجزاء من جنس العمل» (ص/ ١٨٧- ١٨٩).

وأخذت البذُّ مدينة بابك اللعين واختفى في غيضة وأسر أهله وأولاده، وقطع دابر الخرمية، وبعد أن هرب أوقعه الله في يد الإفشين، وسار به الإفشين إلى المعتصم بسامراء ولعناية المعتصم بأمر بابك وأخباره، ولفساد الطريق بالثلج وغيره، جعل من سامراء إلى عقبة حلوان خيلًا مضمرة، على رأس كل فرسخ فرسًا معه مجر مرتب، فكان يركض بالخبر ركضًا حتى يؤديه من واحد إلى واحد، يدًا بيد، وكان من خلف حلوان إلى أذربيجان، قد رتبوا فيه المرج، فكان يركض فيها يومًا أو يومين، ثم تبدل ويصير غيرها، ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج، كل دابة على رأس فرسخ، وجعل لهم ديادبه على رؤوس الجبال بالليل والنهار، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق، فيأخذ الخريطة منه، فجاء الخبر في أربعة أيام، وذلك مسيرة شهر، ودخل بابك إلى سامراء، فلم يصبر المعتصم، حتى ركب إليه بين الحائطين فدخل إليه متنكرًا، ونظر إليه وتأمله، وأراد المعتصم أن يشهره، ويريه الناس، فقال: على أي شيء يحمل هذا؟ وكيف يشهر؟ فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به، فجعل في قباء ديباج، وقلنسوة سمور مدورة، وهو وحده، وفي هذا قال الشاعر:

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمل شيطان خراسان

والفيل لا تخضب أعضاؤه ... إلا لذي شأن من الشَّان

واصطف الناس سماطين، وأدخل بابك إلى أمير المؤمنين فأحضر جزارًا يقطع يديه ورجليه ثم أمر أن يحضر سيافه، فخرج الحاجب من باب العامة، وهو ينادي نودنود –وهو اسم سياف بابك– فارتفعت الصيحة بنود نود حتى حضر، فدخل،

فدخل دار العامة، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما وأمر أمير المؤمنين بذبحه وشق بطنه ووجه برأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامراء عند العقبة بموضع خشبة مشهور، وكان الإباحي بابك قد شرب الخمر ليلة قتله، وكذا قتل أخوه، وكان جزاء هذا اللعين من جنس عمله.

يقول ابن جرير البطري: كان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان.

تلبيس إبليس على أدعياء الزهد[1]

وطريقة هؤلاء كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرونه عندهم من الراحة واللعب، فكان لابد من كشف تلبيس إبليس عليهم في طريقة القوم، ولا ينكشف ذلك إلا بكشف أصل هذه الطريقة وفروعها وشرح أمورها، وكان أصل تلبيسه عليهم أن صدهم عن العلم، وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر، والوساوس، والخطرات، ومازال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننًا، وادعوا أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، وما ذلك إلا بسبب قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار، وإقبالهم على ما

(١) انظر تلبيس إبليس (ص/ ١٧٧ - وما بعدها) بتصرف.

استحسنوه من طريقة القوم، وجمهور التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض، ودونوها، وقد سموها بالعلم الباطني.

نماذج من هؤلاء وسوء خاتمتهم

الحارث الكذاب

وعن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال[1]: كان الحارث الكذاب من أهل دمشق وكان مولى لأبي الجلاش، وكان له أب بالغوطة تعرض له إبليس. وكان متعبدًا زاهدًا لو لبس جبة من ذهب لرأيت عليه زهادة، وكان إذا أخذ في التحميد لم يصغ السامعون إلى كلام أحسن من كلامه قال: فكتب إلى أبيه: يا أبتاه أعجل عليَّ فإني قد رأيت أشياء أتخوف منها أن تكون من الشياطين قال: فزاده أبوه غيًّا وكتب إليه: يا بُنَيَّ أقبل على مَا أُمِرْتَ به إنَّ الله يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ولست بأفاك ولا أثيم فَامْضِ لما أمرت به.

وكان يجيء إلى أهل المساجد رجلًا رجلًا فيذكر لهم أمره ويأخذ عليهم العهود والمواثيق إن هو رأى ورضي وقبل وإلا كتم عليه. وكان يريهم الأعاجيب. كان يأتي إلى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح. وكان يطعمهم فاكهة الصيف في الشتاء ويقول: اخرجوا حتى أريكم الملائكة فيخرجهم إلى دير المران. فيريهم رجالًا على خيل، فتبعه بشر كثير، وفشا الأمر وكثر أصحابه حتى وصل خبره إلى القاسم بن مخيمرة، فقال له: إني نبي، فقال له القاسم: كذبت يا عدو الله، فقال له

(١) انظر تلبيس إبليس (ص/ ٤١٢- ٤١٤) بتصرف.

أبو إدريس: بئس ما صنعت إذ لم تلن له حتى تأخذه. الآن يفر وقام من مجلسه حتى دخل على عبد الملك فأعلمه بأمره فبعث عبد الملك في طلبه فلم يقدر عليه وخرج عبد الملك حتى نزل العنيبرة فاتهم عامة عسكره بالحارث أن يكونوا يرون رأيه، وخرج الحارث حتى أتى بيت المقدس واختفى وكان أصحابه يخرجون يلتمسون الرجال يدخلونهم عليه، وكان رجل من أهل البصرة قد أتى بيت المقدس فأدخل على الحارث، فأخذ في التحميد وأخبره بأمره وأنه نبي مبعوث مرسل، فقال: إن كلامك لحسن ولكن لي في هذا نظر. قال: فانظر. فخرج البصري ثم عاد إليه فرد عليه كلامه فقال: إن كلامك لحسن وقد وقع في قلبي وقد آمنت بك وهذا هو الدين المستقيم. فأمر ألا يحجب عنه متى أراد الدخول فأقبل البصري يتردد إليه ويعرف مداخله ومخارجه وأين يهرب حتى صار من أخبر الناس به، ثم قال له: ائذن لي فقال: إلى أين؟ فقال: إلى البصرة فأكون أول داعٍ لك بها قال: فأذن له فخرج مسرعًا إلى عبد الملك وهو بالعنيبرة فلما دنا من سرادقه صاح: النصيحة النصيحة. فقال أهل العسكر: وما نصيحتك؟ قال نصيحة لأمير المؤمنين فأمر الخليفة عبد الملك أن يأذنوا له بالدخول عليه فدخل وعنده أصحابه، قال: فصاح النصيحة، قال: وما نصيحتك؟ قال: اخلني لا يكن عندك أحد فأخرج مَنْ في البيت وقال له: ادنني. قال: ادن فدنا وعبد الملك على السرير قال: ما عندك؟ قال: الحارث، فلما ذكر الحارث طرح عبد الملك نفسه من أعلى السرير إلى الأرض ثم قال: أين هو؟ قال: يا أمير المؤمنين هو ببيت المقدس قد عرفت مداخله ومخارجه وقص عليه قصته وكيف صنع به، فقال: أنت صاحبه وأنت أمير بيت المقدس وأميرنا ههنا فمرني بما شئت، قال: يا أمير المؤمنين

ابعث معي قومًا لا يفقهون الكلام، فأمر أربعين رجلًا من فرغانة فقال: انطلقوا مع هذا فما أمركم به من شيء فأطيعوه. قال: وكتب إلى صاحب بيت المقدس أن فلانًا هو الأمير عليك حتى يخرج فأطعه فيما أمرك به، فلما قدم بيت المقدس أعطاه الكتاب فقال: مرني بما شئت. فقال: اجمع لي كل شمعة تقدر عليها ببيت المقدس وادفع كل شمعة إلى رجل ورتبهم على أزقة بيت المقدس، وزواياه فإذا قلت: أسرجوا. أسرجوا جميعًا فرتبهم في أزقة بيت المقدس وزواياها بالشمع، وتقدم البصري إلى منزل الحارث فأتى الباب فقال للحاجب: استأذن لي على نبي الله. قال: في هذه الساعة ما يؤذن عليه حتى يصبح قال: أعلمه أني ما رجعت إلا شوقًا إليه قبل أن أصل فدخل عليه وأعلمه بكلامه فأمره بفتح الباب. قال: ثم صاح البصري أسرجوا الشموع فأسرجت حتى كانت كأنها النهار ثم قال: من مَرَّ بكم فاضبطوه كائنًا من كان ودخل هو إلى الموضع الذي يعرفه فطلبه فلم يجده، فقال أصحاب الحارث: هيهات تريدون تقتلون نبي الله قد رفع إلى السماء. قال فطلبه في شق قد هيأه سربًا فأدخل البصري يده في ذلك السرب فإذا هو بثوبه فاجتره فأخرجه إلى خارج ثم قال للفرغانيين: اربطوه، فربطوه، فبينما هم يسيرون به على البريد إذ قال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ فقال رجل من الفرغانيين: أولئك العجم هذا كرامتنا فهات كرامتك أنت، وساروا به حتى أتَوْا به عبد الملك فلما سمع به أمر بخشبة فنصبت، فصلبه، وأمر بحربة، وأمر رجلًا فطعنه فلما صار إلى ضلع من أضلاعه انكفأت الحربة عنه، فجعل الناس يصيحون ويقولون: الأنبياء لا يجوز فيهم السلاح. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين، تناول الحربة ثم مشى إليه وأقبل يتحسس، حتى وافى بين ضلعين، فطعنه بها فأنفذها فقتله.

الحلاج عقيدته، وسوء خاتمته[1]

قال ابن كثير: ونحن نعوذ بالله أن نقول عليه، ما لم يكن قاله، أو نتحمل عليه في أقواله وأفعاله، فنقول: هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث، ويقال أبو عبد الله، كان جده مجوسيًّا اسمه محمى من أهل فارس من بلدة يقال لها البيضاء، ونشأ بواسط، ويقال بتستر، ودخل بغداد وتردد إلى مكة وجاور بها في وسط المسجد في البرد والحر، مكث على ذلك سنوات متفرقة، وكان يصابر نفسه ويجاهدها، ولا يجلس إلا تحت السماء في وسط المسجد الحرام، ولا يأكل إلا بعض قرص ويشرب قليلًا من الماء معه وقت الفطور مدة سنة كاملة، وكان يجلس على صخرة في شِدَّةِ الحر في جبل أبي قبيس، وقد صحب جماعة من سادات المشايخ الصوفية، كالجنيد بن محمد، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي الحسين النوري.

قال الخطيب البغدادي: والصوفية مختلفون فيه، فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم، وأبى أن يعده فيهم، وقبله من متقدميهم أبو العباس بن عطاء البغدادي، ومحمد ابن خفيف الشيرازي، وإبراهيم بن محمد النصرآباذي النيسابوري، وصححوا له حاله، ودونوا كلامه، حتى قال ابن خفيف: الحسين بن منصور عالم رباني.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي - واسمه محمد بن الحسين - سمعت إبراهيم بن محمد النصرآباذي وعوتب في شيء حكي عن الحلاج في الروح فقال للذي عاتبه:

---

(١) انظر «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير (١١/ ١١٥-١٢٤)، وانظر «تلبيس إبليس» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص/ ١٨٩، ٤٢٠- ٤٢١) بتصرف.

إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج.

قال أبو عبد الرحمن: وسمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت الشبلي يقول: كنت أنا والحسين بن منصور شيئًا واحدًا، إلا أنه أظهر وكتمت.

وقد روي عن الشبلي من وجه آخر أنه قال: وقد رأى الحلاج مصلوبًا: ألم أنهك عن العالمين ؟ قال الخطيب: والذين نفوه من الصوفية نسبوه إلى الشعبذة في فعله، وإلى الزندقة في عقيدته وعقده.

قال: وله إلى الآن أصحاب ينسبون إليه ويغالون فيه ويغلون وقد كان الحلاج في عبارته حلو المنطق، وله شعر على طريقة الصوفية. قلت: لم يزل الناس منذ قتل الحلاج مختلفين في أمره. فأما الفقهاء فحكي عن غير واحد من العلماء والأئمة إجماعهم على قتله، وأنه قُتل كافرًا، وكان كافرًا ممخرقًا مموهًا مشعبذًا، وبهذا قال أكثر الصوفية فيه ومنهم طائفة كما تقدم أجملوا القول فيه، وغرهم ظاهره ولم يطلعوا على باطنه ولا باطن قوله، فإنه كان في ابتداء أمره فيه تعبد وتأله وسلوك، ولكن لم يكن له علم ولا بنى أمره وحاله على تقوى من الله ورضوان فلهذا كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

وقال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا، كان فيه شبه من النصارى، ولهذا دخل على الحلاج الحلول والاتحاد، فصار من أهل الانحلال والانحراف.

وقد روي من وجه أنه تقلبت به الأحوال وتردد إلى البلدان، وهو في ذلك كله يظهر للناس أنه من الدعاة إلى الله عز وجل وصح أنه دخل إلى الهند وتعلم بها السحر وقال: أدعو به إلى الله، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث - أي أنه من رجال الغيث - ويكاتبه أهل سركسان بالمقيت، ويكاتبه أهل خراسان بالمميز،

وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد. وأهل خوزستان بأبي عبد الله الزاهد حلاج الأسرار.

وكان بعض البغاددة حين كان عندهم يقولون له: المصطلم، وأهل البصرة يقولون له: المحير، ويقال: إنما سماه الحلاج أهل الأهواز؛ لأنه كان يكاشفهم عن ما في ضمائرهم، وقيل: لأنه مرة قال لحلاج: اذهب لي في حاجة كذا وكذا، فقال: إني مشغول بالحلج، فقال: اذهب فأنا أحلج عنك، فذهب ورجع سريعًا فإذا جميع ما في ذلك المخزن قد حلجه، يقال إنه أشار بالمرود، فامتاز الحَبّ عن القطن، وفي صحة هذا ونسبته إليه نظر، وإن كان قد جرى مثل هذا، فالشياطين تعين أصحابها ويستخدمونهم وقيل: لأن أباه كان حلاجًا ومما يدل على أنه كان ذا حلول في بدء أمره أشياء كثيرة، منها شعره في ذلك فمن ذلك قوله:

جَبلت رُوحكِ في رُوحي كَمَا ... يُجْبَلُ العَنْبَرَ بِالمِسْكِ الفَتِق

فَإذا مَسَّك شيء مَسَّني ... وَإذا أَنْتَ أَنَا لا نَفْتَرِق

وقوله:

مُزِجَتْ رُوحُكِ في رُوحِي كَمَا ... تُمْزَجُ الخَمْرَةُ بِالمَاءِ الزُّلالِ

فَإذا مَسّك شيءٌ مَسَّني ... فَإذا أَنْتَ أَنَا في كُلِّ حَالِ

وقوله أيضًا:

قَدْ تَحقَّقتُكَ في سِرِّ ... ي فَخَاطَبْتُكَ لِسَانِي

فَاجْتَمَعْنَا لمَعَانٍ ... وافْتَرَقْنَا لمَعَانِ

إنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التَّعظيـ ... ـمُ عَنْ لَحْظِ العَيَانِ

لَقَدْ صَيَّرَكَ الْوَجْـ ... ـدُ مِنَ الأَحْشَاءِ دَانِ

وقد أنشد لابن عطاء قول الحلاج:

أُرِيْـــدُك لا أُرِيْـــدُكَ لِلثَّـــوَابِ ... وَلَكِنِّـــي أُرِيْـــدُكَ لِلعِقَـــابِ
وَكُـــلُّ مَـــأربي قَـــدْ نِلْـــتُ مِنْهَـــا ... سِـــوَى ملْـــذُوذِ وَجْـــدِي بِالعَـــذَابِ

فقال ابن عطاء: قال هذا ما تزايد به عذاب الشغف وهيام الكلف، واحترق الأسف، فإذا صفا ووفا علا إلى مشرب عذب وهاطل من الحق دائم سكب، وقد أنشد لأبي عبد الله بن خفيف قول الحلاج:

سُـــبْحَان مَـــنْ أَظْهَـــر نَاسُـــوَته ... سِر سَـــنَا لاهُوتـــه الثَّاقِـــب
ثُـــمَّ بَـــدَا فِي خَلْقـــه ظَـــاهِرًا ... فِي صُـــورَةِ الآكـــل والـــشَّارِبِ
حَتَّـــى لقَـــدْ عَايَنَـــه خَلْقُـــه ... كَلَحْظَـــة الحَاجِـــبِ بِالحَاجِـــبِ

فقال ابن خفيف: على من يقول هذا لعنه الله ؟ فقيل له: إن هذا من شعر الحلاج، فقال: قد يكون مقولًا عليه، وينسب إليه أيضًا:

أَوْشَكْت تَسْأَلَ عَنِّي كَيْف كُنت؟ ... وَمَا لاقِيتُ بِعْدك مِنْ همٍّ وَحُزْنِ
لا كُنت إن كُنت أَدْرِي كَيْفَ كُنت؟ ... وَلَا لَا كُنْت أَدرِي كَيفَ لَمْ أَكُنِ؟

قال ابن خلكان: ويُروى لسمنون لا للحلاج. ومن شعره أيضًا قوله:

مَتَى سَهِرتْ عيني لغَيْرِكَ أَوْ بَكَتْ ... فَلا أعْطِيت مَا أُمِلَتْ وَتَمَنَّتِ
وَإِنْ أَضْمَرتْ نَفْسي سِوَاكَ فَلَا زَكَتْ ... رِيَاضُ المُنَى مِنْ وجْنَتِيك وَجَنَت

ومن شعره أيضًا:

دُنْيَـــا تُغَـــالِطُنِي كَأَنـــ ... ـــني لَـــسْتُ أَعْـــرِفُ حَالَهَـــا
حَظَـــر المَلِيـــكَ حَرامَهَـــا ... وأَنِ احْتَمَيْـــتَ حَلَالَهَـــا
فَوَجَـــدتها مُحتَاجَـــة ... فَوَهبَـــتْ لَـــذَّتَها لَهَـــا

وقد كان الحلاج يتلون في ملابسه، فتارة يلبس لباس الصوفية وتارة يتجرد في ملابس زرية، وتارة يلبس لباس الأجناد ويعاشر أبناء الأغنياء والملوك والأجناد، وقد رآه بعض أصحابه في ثياب رثة وبيده ركوة وعكازة وهو سائح فقال له: ما هذه الحالة يا حلاج ؟ فأنشأ يقول:

لَئِن أَمْسَيْتَ فِي ثَوْبِي عَدِيمٍ ... لَقَدْ بَلَيَا عَلَى حُرٍّ كَرِيمِ

فَلَا يَغْرُرْكَ أَنْ أَبْصَرت حَالًا ... مُغَيَّرَةً عَنِ الحَالِ القَدِيمِ

فَلِي نَفْسٌ سَتَتْلف أَوْ سَتَرْقَى ... لَعَمْرُكَ بِي إِلى أَمْرٍ جَسِيمِ

ومن مستجاد كلامه وقد سأله رجل أن يوصيه بشيء ينفعه الله به فقال: عليك نفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك عن الحق وقال له رجل: عظني فقال: كن مع الحق بحكم ما أوجب.

وروى الخطيب بسنده إليه أنه قال: علم الأولين والآخرين مرجعه إلى أربع كلمات: حب الجليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل.

قلت: وقد أخطأ الحلاج في المقامين الأخيرين، فلم يتبع التنزيل ولم يبق على الاستقامة بل تحول عنها إلى الاعوجاج والبدعة والضلالة، نسأل الله العافية.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي عن عمرو بن عثمان المكي: أنه قال: كنت أماشي الحلاج في بعض أزقة مكة وكنت أقرأ القرآن فسمع قراءتي فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا، ففارقته.

قال الخطيب: وحدثني مسعود بن ناصر أنبأنا ابن باكوا الشيرازي، سمعت أبا زرعة الطبري يقول: الناس فيه - يعني حسين بن منصور الحلاج - بين قبول وردٍّ ولكن سمعت محمد بن يحيى الرازي يقول: سمعت عمرو بن عثمان يلعنه ويقول:

لو قدرت عليه لقتلته بيدي. فقلت له: إيش الذي وجد الشيخ عليه؟ قال: قرأت آية من كتاب الله فقال: يمكنني أن أؤلف مثله وأتكلم به.

قال أبو زرعة الطبري: وسمعت أبا يعقوب الأقطع يقول: زوجت ابنتي من الحسين الحلاج لما رأيت من حسن طريقته واجتهاده، فبان لي منه بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال، خبيث كافر.

قلت: كان تزويجه إياها بمكة، وهي أم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع فأولدها ولده أحمد بن الحسين بن منصور، وقد ذكر سيرة أبيه كما ساقها من طريق الخطيب. وذكر أبو القاسم القشيري في رسالته في باب حفظ قلوب المشايخ: أن عمرو بن عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئًا في أوراق فقال له: ما هذا ؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن: قال: فدعا عليه فلم يفلح بعدها، وأنكر على أبي يعقوب الأقطع، تزويجه إياه ابنته.

وكتب عمرو بن عثمان إلى الآفاق كتبًا كثيرة يلعنه فيها ويحذر الناس منه، فشرد الحلاج في البلاد فعاث يمينًا وشمالًا، وجعل يظهر أنه يدعو إلى الله ويستعين بأنواع من الحيل، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقتله بسيف الشرع الذي لا يقع إلا بين كتفي زنديق، والله أعدل من أن يسلطه على صديق، كيف وقد تهجم على القرآن العظيم، وقد أراد معارضته في البلد الحرام حيث نزل به جبريل، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ولا إلحاد أعظم من هذا.

وقد أشبه الحلاج كفار قريش في معاندتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ

---

(١) سورة الحج: (٢٥).

عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

أشياء من حيل الحلاج

روى الخطيب البغدادي: أن الحلاج بعث رجلًا من خاصة أصحابه وأمره أن يذهب بين يديه إلى بلد من بلاد الجبل، وأن يظهر لهم العبادة والصلاح والزهد، فإذا رآهم قد أقبلوا عليه وأحبوه واعتقدوه أظهر لهم أنه قد عمي، ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد تكسح، فإذا سعوا في مداواته، قال لهم: يا جماعة الخير! إنه لا ينفعني شيء مما تفعلون، ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول له: إن شفاءك لا يكون إلا على يدي القطب، وإنه سأقدم عليك في اليوم الفلاني في الشهر الفلاني، وصفته كذا وكذا، وقال له الحلاج: إني سيقدم عليك في ذلك الوقت فذهب ذلك الرجل إلى تلك البلاد فأقام بها يتعبد ويظهر الصلاح والتنسك ويقرأ القرآن فأقام مدة على ذلك فاعتقدوه وأحبوه، ثم أظهر لهم أنه قد عمي فمكث حينًا على ذلك؛ ثم أظهر لهم أنه قد زمن، فسعوا بمداواته بكل ممكن فلم ينتج فيه شيء، فقال لهم: يا جماعة الخير! هذا الذي تفعلونه معي لا ينتج شيئًا وأنا قد رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول لي: إن عافيتك وشفاءك إنما هو على يدي القطب، وإنه سيقدم عليك في اليوم الفلاني في الشهر الفلاني، وكانوا أولًا يقودونه إلى المسجد ثم صاروا يحملونه ويكرمونه كان في الوقت الذي ذكر لهم، واتفق هو والحلاج عليه، أقبل الحلاج حتى دخل البلد مختفيًا وعليه ثياب صوف بيض، فدخل المسجد ولزم سارية يتعبد فيه، لا يلتفت إلى أحد، فعرفه الناس بالصفات التي وصف لهم ذلك العليل، فابتدروا إليه،

(١) سورة الأنفال: (٣١).

ويتمسحون به، ثم جاؤوا إلى ذلك الزمن المتعافي فأخبره بخبره، فقال: صفوه لي، فوصفوه له فقال: هذا الذي أخبرني عنه رسول الله ﷺ في المنام، وأن شفائي على يديه، اذهبوا بي إليه.

فحملوه حتى وضعوه بين يديه فكلمه فعرفه فقال: يا أبا عبد الله! إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام ثم ذكر له رؤياه، فرفع الحلاج يديه فدعا له ثم تفل من ريقه في كفيه ثم مسح بهما على عينيه ففتحهما كأن لم يكن بهما داء قط فأبصر، ثم أخذ من ريقه فمسح على رجليه فقام من ساعته فمشى كأنه لم يكن به شيء والناس حضور، وأمراء تلك البلاد وكبراؤهم عنده، فضج الناس ضجة عظيمة وكبروا الله وسبحوه وعظموا الحلاج تعظيمًا زائدًا على ما أظهر لهم من الباطل والزور، ثم أقام عندهم مدة يكرمونه ويعظمونه ويودون لو طلب منهم ما عساه أن يطلب من أموالهم فلما أراد الخروج عنهم أرادوا أن يجمعوا له مالًا كثيرًا فقال: أما أنا فلا حاجة لي بالدنيا، وإنما وصلنا إلى ما وصلنا إليه بترك الدنيا، ولعل صاحبكم هذا أن يكون له إخوان وأصحاب من الأبدال الذين يجاهدون بثغر طرسوس، ويحجون ويتصدقون، محتاجين إلى ما يعينهم على ذلك، فقال ذلك الرجل المتزامن المتعافي: صدق الشيخ، قد رَدَّ الله عَلَيَّ بصري ومنَّ الله علي بالعافية، لأجعل بقية عمري في الجهاد في سبيل الله، والحج إلى بيت الله مع إخواننا الأبدال والصالحين الذين نعرفهم، ثم حثهم على إعطائه من المال ما طابت به أنفسهم، ثم إن الحلاج خرج عنهم ومكث ذلك الرجل بين أظهرهم مدة إلى أن جمعوا له مالًا كثيرًا ألوفًا من الذهب والفضة، فلما اجتمع له ما أراد ودَّعهم وخرج عنهم، فذهب إلى الحلاج فاقتسما ذلك المال.

وروي عن بعضهم قال: كنت أسمع أن الحلاج له أحوال وكرامات فأحببت أن

أختبر ذلك فجئته فسلمت عليه فقال لي: تشتهي على الساعة شيئا ؟ فقلت: أشتهي سمكًا طريًّا. فدخل منزله فغاب ساعة ثم خرج عليّ ومعه سمكة تضطرب، ورجلاه عليهما الطين فقال: دعوت الله فأمرني أن آتي البطائح، لآتيك بهذه السمكة، فخضت الأهواز وهذا الطين منها فقلت: إن شئت أدخلتني منزلك حتى أنظر ليقوى يقيني بذلك، فإن ظهرت على شيء وإلا آمنت بك فقال: ادخل، فدخلت فأغلق علي الباب وجلس يراني فدرت البيت فلم أجد فيه منفذًا إلى غيره، فتحيرت في أمره ثم نظرت فإذا أنا بتأزيرة - وكان مؤزرًا بإزار ساج - فحركتها فانفلقت فإذا هي باب منفذ فدخلته فأفضى بي إلى بستان هائل، فيه من سائر الثمار الجديدة والعتيقة، قد أحسن إبقاءها، وإذا أشياء كثيرة معدودة للأكل، وإذا هناك بركة كبيرة فيها سمك كثير صغار وكبار، فدخلتها فأخرجت منها واحدة فنال رجلي من الطين مثل الذي نال رجليه، فجئت إلى الباب فقلت: افتح قد آمنت بك فلما رآني على مثل حاله أسرع خلفي جريًا يريد أن يقتلني. فضربته بالسمكة في وجهه، وقلت: يا عدو الله أتعبتني في هذا اليوم ولما خلصت منه لقيني بعد أيام فضاحكني وقال: لا تفش ما رأيت لأحد وإلا بعثت إليك من يقتلك على فراشك قال: فعرفت أنه يفعل إن أفشيت عليه فلم أحدث به أحدًا حتى صلب.

وقال الحلاج يومًا لرجل: آمن بي حتى أبعث لك بعصفورة تأخذ من ذرقها وزن حبة فتضعه على كذا من نحاس فيصير ذهبًا فقال له الرجل: آمن أنت بي حتى أبعث إليك بفيل إذا استلقى على قفاه بلغت قوائمه إلى السماء، وإذا أردت أن تخفيه وضعته في إحدى عينيك قال: فبهت وسكت ولما ورد بغداد جعل يدعو إلى نفسه ويظهر أشياء من المخاريق والشعوذة وغيرها من الأحوال الشيطانية،

وأكثر ما كان يروج على الرافضة لقلة عقولهم وضعف تمييزهم بين الحق والباطل، وقد استدعى يومًا برئيس من الرافضة فدعاه إلى الإيمان به فقال له الرافضي: إني رجل أحب النساء وإني أصلع الرأس، وقد شبت، فإن أنت أذهبت عني هذا وهذا آمنت بك وأنك الإمام المعصوم، وإن شئت قلت إنك نبي، وإن شئت قلت إنك أنت الله قال: فبهت الحلاج ولم يحر إليه جوابًا.

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي: كان الحلاج متلونًا تارة يلبس المسوح، وتارة يلبس الدراعة، وتارة يلبس القباء، وهو مع كل قوم على مذهبهم: إن كانوا أهل سنة أو رافضة أو معتزلة أو صوفية أو فساقًا أو غيرهم، ولما أقام بالأهواز جعل ينفق من دراهم يخرجها يسميها دراهم القدرة، فسئل الشيخ أبو علي الجبائي عن ذلك فقال: إن هذا كله مما يناله البشر بالحيلة، ولكن أدخلوه بيتًا لا منفذ له ثم سلوه أن يخرج لكم جرزتين من شوك. فلما بلغ ذلك الحلاج تحول من الأهواز.

قال الخطيب: أنبأ إبراهيم بن مخلد أنبأ إسماعيل بن علي الخطيب في تاريخه قال: وظهر أمر رجل يقال له الحلاج الحسين بن منصور، وكان في حبس السلطان بسعاية وقعت به، وذلك في وزارة علي بن عيسى الأولى، وذكر عنه ضروب من الزندقة ووضع الحيل على تضليل الناس، من جهات تشبه الشعوذة والسحر، وادعاء النبوة، فكشفه علي بن عيسى عند قبضه عليه وأنهى خبره إلى السلطان - يعني الخليفة المقتدر بالله - فلم يقر بما رمي به من ذلك فعاقبه وصلبه حيًّا وأيامًا متوالية في رحبة الجسر، في كل يوم غدوة، وينادى عليه بما ذكر عنه، ثم ينزل به ثم يحبس، فأقام في الحبس سنين كثيرة ينقل من حبس إلى حبس، خوفًا من إضلاله أهل كل حبس إذا طالت مدته عنده، إلى أن حبس آخر حبسة في دار السلطان،

فاستفرى جماعة من غلمان السلطان وَموَّهَ عليهم واستمالهم بضروب من الحيل، حتى صاروا يحمونه ويدفعون عنه ويرفهونه بالمآكل المطيبة، ثم أرسل جماعة من الكتاب وغيرهم ببغداد وغيرها، فاستجابوا له وترقى به الأمر إلى أن ادعى الربوبية، وسعى بجماعة من أصحابه إلى السلطان فقبض عليهم ووجد عند بعضهم كتب تدل على تصديق ما ذكر عنه، وأقر بعضهم بذلك بلسانه، وانتشر خبره وتكلم الناس في قتله، فأمر الخليفة بتسليمه إلى حامد بن العباس، وأمره أن يكشفه بحضرة القضاة والعلماء ويجمع بينه وبين أصحابه، فجرى في ذلك خطوب طوال، ثم استيقن السلطان أمره ووقف على ما ذكر عنه، وثبت ذلك على يد القضاة وأفتى به العلماء فأمر بقتله وإحراقه بالنار، فأحضر مجلس الشرطة بالجانب الغربي في يوم الثلاثاء لتسع بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلثمائة فضرب بالسياط نحوًا من ألف سوط، ثم قُطعت يداه ورجلاه، ثم ضربت عنقه، وأحرقت جثته بالنار، ونصب رأسه للناس على سور الجسر الجديد وعلقت يداه ورجلاه.

وقال أبو عبد الرحمن بن الحسن السلمي: سمعت إبراهيم بن محمد الواعظ يقول: قال أبو القاسم الرازي: قال أبو بكر بن ممشاذ: حضر عندنا بالدينور رجل ومعه مخلاة فما كان يفارقها ليلًا ولا نهارًا، فأنكروا ذلك من حاله ففتشوا مخلاته فوجدوا فيها كتابًا للحلاج عنوانه: من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان - يدعونه إلى الضلالة والإيمان به - فبعث بالكتاب إلى بغداد فسئل الحلاج عن ذلك فأقر أنه كتبه فقالوا له: كنت تدعي النبوة فصرت تدعي الألوهية والربوبية؟ فقال: لا ولكن هذا عين الجمع عندنا. هل الكاتب إلا الله وأنا واليد آلة ؟ فقيل له: معك على ذلك أحد ؟ قال: نعم ابن عطاء، وأبو محمد الحريري، وأبو بكر

الشبلي، فسئل الحريري عن ذلك فقال: من يقول بهذا كافر. وسئل الشبلي عن ذلك فقال: من يقول بهذا يمنع، وسئل ابن عطاء عن ذلك فقال: القول ما يقول الحلاج في ذلك فعوقب حتى كان سبب هلاكه.

ثم روى أبو عبد الرحمن السلمي عن محمد بن عبد الرحمن الرازي أن الوزير حامد ابن العباس لما أحضر الحلاج، سأله عن اعتقاده فأقر به فكتبه، فسأل عن ذلك فقهاء بغداد فأنكروا ذلك وكفروا من اعتقده، فكتبه، فقال الوزير: إن أبا العباس بن عطاء يقول بهذا فقالوا: من قال بهذا فهو كافر، ثم طلب الوزير ابن عطاء إلى منزله فجاء فجلس في صدر المجلس، فسأله عن قول الحلاج فقال: من لا يقول بهذا القول فهو بلا اعتقاد فقال الوزير لابن عطاء: ويحك تصوب مثل هذا القول وهذا الاعتقاد ؟! فقال ابن عطاء: ما لك ولهذا، عليك بما نُصِّبْتَ له من أخذ أموال الناس وظلمهم وقتلهم فما لك ولكلام هؤلاء السادة من الأولياء فأمر الوزير عند ذلك بضرب شدقيه، ونزع خفيه، وأن يضرب بهما على رأسه، فمازال يفعل به ذلك حتى سال الدم من منخريه، وأمر بسجنه فقالوا له: إن العامة تستوحش من هذا ولا يعجبها، فحمل إلى منزله، فقال ابن عطاء: اللهم اقتله واقطع يديه ورجليه، ثم مات ابن عطاء بعد سبعة أيام، ثم بعد مدة قتل الوزير شر قتلة، وقطعت يداه ورجلاه وأحرقت داره، وكان العوام يرون ذلك بدعوة ابن عطاء على دعوتهم في مرائيهم فيمن أُوذي ممن لهم معه هوى، بل قد قال ذلك جماعة ممن ينسبون إلى العلم فيمن يؤذي ابن عربي أو يحط على حسين الحلاج أو غيره هذا بخطيئة فلان وقد اتفق علماء بغداد على كفر الحلاج وزندقته، وأجمعوا على قتله وصلبه، وكان علماء بغداد إذ ذاك هم الدنيا.

قال أبو بكر محمد بن داود الظاهري حين أحضر الحلاج في المرة الأولى قبل وفاة

أبي بكر هذا وسئل عنه فقال: إن كان ما أنزل الله علي نبيه صلى الله عليه وسلم حقًّا فما يقوله الحلاج باطل، وكان شديدًا عليه.

وقال أبو بكر الصولي: قد رأيت الحلاج وخاطبته فرأيته جاهلًا يتعاقل، وغبيًّا يتبالغ، وخبيثًا مدعيًا، وراغبًا يتزهد، وفاجرًا يتعبد.

ولما صلب في أول مرة، ونودي عليه أربعة أيام، سمعه بعضهم وقد جيء به ليصلب وهو راكب على بقرة يقول: ما أنا بالحلاج، ولكن أُلقي علي شبهه وغاب عنكم فلما أُدني إلى الخشبة ليصلب عليها سمعته وهو مصلوب يقول: يا معين الفنا علي أعني على الفنا.

وقال بعضهم سمعته وهو مصلوب يقول: إلهي أصبحت في دار الرغائب، أنظر إلى العجائب، إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك فكيف بمن يؤذى فيك؟!

صفة مقتل الحلاج

قال الخطيب البغدادي وغيره: كان الحلاج قد قدم آخر مرة له إلى بغداد، فصحب الصوفية وانتسب إليهم، وكان الوزير إذ ذاك حامد بن العباس، فبلغه أن الحلاج قد أَضَلَّ خلقًا من الحشم والحجاب في دار السلطان، ومن غلمان نصر القشوري الحاجب، وجعل لهم في جملة ما ادعاه أنه يحيي الموتى، وأن الجن يخدمونه ويحضرون له ما شاء ويختار ويشتهيه. وقال: إنه أحيا عدة من الطير.

وذكر لعلي بن عيسى أن رجلًا يقال له: محمد بن علي القنائي الكاتب يعبد الحلاج ويدعو الناس إلى طاعته، فطلبه فكبس منزله فأخذه فأقر أنه من أصحاب الحلاج، ووجد في منزله أشياء بخط الحلاج مكتوبة بماء الذهب في ورق الحرير مجلدة بأفخر الجلود، ووجد عنده سفطًا فيه من رجيع الحلاج وعذرته وبوله

وأشياء من آثاره، وبقية خبز من زاده.

فطلب الوزير من المقتدر أن يتكلم في أمر الحلاج ففوض أمره إليه، فاستدعى بجماعة من أصحاب الحلاج فتهددهم فاعترفوا له أنه قد صح عندهم أنه إله مع الله، وأنه يحيي الموتى، وأنهم كاشفوا الحلاج بذلك ورموه به في وجهه، فجحد ذلك وكذبهم وقال: أعوذ بالله أن أَدَّعِي الربوبية أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد الله وأكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير، لا أعرف غير ذلك.

وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيد، ويكثر أن يقول: سبحانك لا إله إلا أنت عملت سوءًا وظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وكانت عليه مدرعة سوداء، وفي رجليه ثلاثة عشر قيدًا، والمدرعة واصلة إلى ركبتيه، والقيود واصلة إلى ركبتيه أيضًا، وكان مع ذلك يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة.

وكان قبل احتياط الوزير حامد بن العباس عليه في حجرة من دار نصر القشوري الحاجب، مأذونًا لمن يدخل إليه، وكان يسمي نفسه تارة بالحسين بن منصور، وتارة محمد بن أحمد الفارسي، وكان نصر الحاجب هذا قد افتتن به وظن أنه رجل صالح، وكان قد أدخله على المقتدر بالله فرقاه من وجع حصل له فاتفق زواله عنه، وكذلك وقع لوالدة المقتدر السيدة رقاها فزالت عنها، فنفق سوقه وحظي في دار السلطان، فلما انتشر الكلام فيه، سلم إلى الوزير حامد بن العباس فحبسه في قيود كثيرة في رجليه، وجمع له الفقهاء فأجمعوا على كفره وزندقته، وأنه ساحر ممخرق.

ورجع عنه رجلان صالحان ممن كان اتبعه، أحدهما أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي، والآخر يقال له الدباس، فذكرا من فضائحه وما كان يدعو

الناس إليه من الكذب والفجور والمخرقة والسحر شيئًا كثيرًا، وكذلك أحضرت زوجة ابنه سليمان فذكرت عنه فضائح كثيرة.

من ذلك أنه أراد أن يغشاها وهي نائمة فانتبهت، فقال: قومي إلى الصلاة ؟ وإنما كان يريد أن يطأها، وأمر ابنتها بالسجود له فقالت: أو يسجد البشر لبشر ؟ فقال: نعم إله في السماء وإله في الأرض، ثم أمرها أن تأخذ من تحت بارية هنالك ما أرادت، فوجدت تحتها دنانير كثيرة مبدورة.

ولما كان معتقلًا في دار حامد بن العباس الوزير دخل عليه بعض الغلمان ومعه طبق فيه طعام ليأكل منه، فوجده قد ملأ البيت من سقفه إلى أرضه، فذعر ذلك الغلام وفزع فزعًا شديدًا، وألقى ما كان في يده من ذلك الطبق والطعام، ورجع محمومًا فمرض عدة أيام.

ولما كان آخر مجلس من مجالسه أحضر القاضي أبو عمر محمد بن يوسف وجيء بالحلاج وقد أحضر له كتاب من دور بعض أصحابه وفيه: من أراد الحج ولم يتيسر له فليبن في داره بيتًا لا يناله شيء من النجاسة ولا يمكن أحدًا من دخوله، فإذا كان في أيام الحج فليصم ثلاثة أيام وليطف به كما يطاف بالكعبة ثم يفعل في داره ما يفعله الحجيج بمكة، ثم يستدعي بثلاثين يتيمًا فيطعمهم من طعامه، ويتولى خدمتهم بنفسه، ثم يكسوهم قميصًا قميصًا، ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم - أو قال ثلاثة دراهم - فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج، وإن من صام ثلاثة أيام لا يفطر إلا في اليوم الرابع على ورقات هندبًا أجزأه ذلك عن صيام رمضان.

ومن صلى في ليلة ركعتين من أول الليل إلى آخره؛ أجزأه ذلك عن الصلاة بعد ذلك، وأن من جاور بمقابر الشهداء وبمقابر قريش عشرة أيام يصلي ويدعو

ويصوم ثم لا يفطر إلا على شيء من خبز الشعير والملح الجريش أغناه ذلك عن العبادة في بقية عمره.

فقال له القاضي أبو عمر: من أين لك هذا ؟ فقال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري. فقال له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شيء من هذا.

فأقبل الوزير على القاضي فقال له: قد قلت يا حلال الدم فاكتب ذلك في هذه الورقة، وَألحَّ عليه، وقدم له الدواة فكتب ذلك في تلك الورقة، وكتب من حضر خطوطهم فيها وأنفذها الوزير إلى المقتدر، وجعل الحلاج يقول لهم: ظهري حمى ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا علي ما يبيحه، واعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، وتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح، ولي كتب في السنة موجودة في الوارقين فالله الله في دمي، فلا يلتفتون إليه ولا إلى شيء مما يقول.

وجعل يكرر ذلك وهم يكتبون خطوطهم بما كان من الأمر، ورد الحلاج إلى محبسه، وتأخر جواب المقتدر ثلاثة أيام حتى ساء ظن الوزير حامد ابن العباس، فكتب إلى الخليفة يقول له: إن أمر الحلاج قد اشتهر ولم يختلف فيه اثنان وقد افتتن كثير من الناس به، فجاء الجواب بأن يسلم إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة، وليضربه ألف سوط، فإن مات وإلا ضربت عنقه ففرح الوزير بذلك، وطلب صاحب الشرطة فسلمه إليه، وبعث معه طائفة من غلمانه يصلونه معه إلى محل الشرطة من الجانب الغربي خوفًا من أن يستنقذ من أيديهم.

وذلك بعد عشاء الآخرة في ليلة الثلاثاء لستٍّ بقين من ذي القعدة من هذه السنة، وهو راكب على بغل عليه إكاف وحوله جماعة من أعوان السياسة، على

مثل شكله، فاستقر منزله بدار الشرطة في هذه الليلة، فذكر أنه بات يصلي تلك الليلة ويدعو دعاء كثيرًا.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا بكر الشاشي يقول: قال أبو الحديد - يعني المصري -: لما كانت الليلة التي قُتل في صبيحتها الحلاج قام يصلي من الليل فصلى ما شاء الله، فلما كان آخر الليل قام قائمًا فتغطى بكسائه ومد يده نحو القبلة فتكلم بكلام جائز الحفظ، فكان مما حفظت منه قوله: نحن شواهدك فلو دلتنا عزتك لتبدى ما شئت من شأنك ومشيئتك، وأنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله، تتجلى لما تشاء مثل تجليك في مشيئتك كأحسن الصورة، والصورة فيها الروح الناطقة بالعلم والبيان والقدرة، ثم إني أوعزت إلى شاهدك لأني في ذاتك الهوى كيف أنت إذا مثلت بذاتي عند حلول لذاتي، ودعوت إلى ذاتي بذاتي، وأبديت حقائق علومي ومعجزاتي، صاعدًا في معارجي إلى عروش أزلياتي عند التولي عن برياتي، إني اختصرت وقتلت وصلبت وأحرقت واحتملت سافيات الذاريات. ولججت في الجاريات، وأن ذرة من ينجوج مكان هالوك متجلياتي، لأعظم من الراسيات، ثم أنشأ يقول:

أنعي إليك نفوسًا طاح شاهدها ... فيما ورا الحيث بل في شاهد القدم

أنعي إليك قلوبًا طالما هطلت ... سحائب الوحي فيها أبحر الحكم

أنعي إليك لسان الحق منك ومن ... أودى وتذكاره في الوهم كالعدم

أنعى إليك بيانًا يستكين له ... أقوال كل فصيح مقول فهم

أنعي إليك إشارات العقول معًا ... لم يبق منهن إلا دارس العلم

أنعي وحبك أخلاقًا لطائفة ... كانت مطاياهم من مكمد الكظم

مضى الجميع فلا عين ولا أثر ... مضى عاد وفقدان الأولى إرم
وخلفوا معشرًا يحذون ليستهم ... أعمى من البُهم بل أعمى من النعم

قالوا: ولما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه ليذهب به إلى القتل أنشد:

طلبت المستقر بكل أرض ... فلم أر لي بأرض مستقرا
وذقت من الزمان وذاق مني ... وجدت مذاقه حُلْوًا ومُرًّا
أَطَعْتُ مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لَعِشْتُ حُرًّا

وقيل: إنه قالها حين قدم إلى الجذع ليصلب، والمشهور الأول، فلما أخرجوه للصلب مشى إليه وهو يتبختر في مشيته وفي رجليه ثلاثة عشر قيدًا وجعل ينشد ويتمايل:

نديمي غير منسوب ... إلى شيء من الحيف
مثل ما يشرب ... فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس ... دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح ... مع التنين في الصيف

ثم قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾[1] ثم لم ينطق بعد ذلك حتى فُعل به ما فُعل.

قالوا: ثم قدم فضرب ألف سوط ثم قطعت يداه ورجلاه وهو في ذلك كله ساكت ما نطق بكلمة، ولم يتغير لونه، ويقال: إنه جعل يقول مع كل سوط أحد أحد.

قال أبو عبد الرحمن: سمعت عبد الله بن علي يقول: سمعت عيسى القصار

(١) سورة «الشورى»: (١٨).

يقول: آخر كلمة تكلم بها الحلاج حين قُتل أن قال: حسب الواحد إفراد الواحد له.

فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ إلا رَقَّ له، واستحسن هذا الكلام منه.

وقال السلمي: سمعت أبا بكر المحاملي يقول: سمعت أبا الفاتك البغدادي - وكان صاحب الحلاج - قال: رأيت في النوم بعد ثلاث من قتل الحلاج كأني واقف بين يدي ربي عز وجل وأنا أقول: يا ربّ! ما فعل الحسين بن منصور ؟ فقال: كاشفته بمعنى فدعا الخلق إلى نفسه فأنزلت به ما رأيت.

ومنهم من قال: بل جزع عند القتل جزعًا شديدًا وبكى بكاءً كثيرًا، فالله أعلم.

وقال الخطيب: ثنا عبد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفي قال: قال لنا أبو عمر بن حيوية: لما أخرج الحسين بن منصور الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس، ولم أزل أزاحم حتى رأيته فدنوت منه فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا الأمر، فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يومًا، ثم قُتل فما عاد.

وذكر الخطيب أنه قال وهو يضرب لمحمد بن عبد الصمد والي الشرطة: أدع بي إليك فإن عندي نصيحة تعدل فتح القسطنطينية، فقال له: قد قيل لي: إنك ستقول مثل هذا وليس إلى رفع الضرب عنك سبيل، ثم قطعت يداه ورجلاه وحزّ رأسه وأحرقت جثته وأُلقي رمادها في دجلة، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر، ثم حُمل إلى خراسان وطيف به في تلك النواحي، وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه إليهم بعد ثلاثين يومًا.

وزعم بعضهم أنه رأى الحلاج من آخر ذلك اليوم وهو راكب على حمار في طريق النهروان فقال: لعلك من هؤلاء النفر الذين ظنوا أني أنا هو المضروب المقتول، إني لست به، وإنما أُلقي شبهي على رجل ففعل به ما رأيتم.

وكانوا بجهلهم يقولون: إنما قتل عدو من أعداء الحلاج.

فذكر هذا لبعض علماء ذلك الزمان فقال: إن كان هذا الرأي صادقًا فقد تبدى له شيطان على صورة الحلاج ليضل الناس به، كما ضلت فرقة النصارى بالمصلوب.

احذر.. سوء الخاتمة

اعلم أن سوء الخاتمة -أعاذنا الله منها-[1] لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به، والحمد لله، وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله، ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيمًا ثم يتغير حاله ويخرج عن سننه ويأخذ في طريقه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته.

كإبليس الذي عبد الله فيما يروى عن ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء، الذي أتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه، وبرصيص العابد الذي قال الله في حقه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الآية[2].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة»**[3].

---

(١) انظر «التذكرة» للقرطبي (ص/ ٣٦).

(٢) سورة «الحشر»: (١٦)، والرواية في «الكنز» (١٧١٠)، وفي «ذم الهوى» (ص/ ١٥٩)، وفي البداية (٩/ ٢٤٠)، وفي «روضة المحبين» (ص/ ١٩٥)، وفي «أخبار النساء» (ص/ ١٤٤).

(٣) الحديث: رواه مسلم في «صحيحه» (١١/ ٢٦٥١).

وعن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[١].

نماذج لبعض من ساءت خاتمتهم

جزاء قتلة الحسين رضي الله عنه

يقول ابن كثير[٢]: أما ما روي من الأحاديث والفتن التي أصابت من قتله؛ فأكثرها صحيح؛ فإنه قَلَّ من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة، وعاهة، في الدنيا فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض، وأكثرهم أصابهم الجنون.

وقال أيضًا: لا شك أن قتل قتلة الحسين كان متحتمًا، والمبادرة إليه كان مغنمًا ولكن إنما قدره الله على يد المختار الكذاب الذي صار بدعواه إتيان الوحي إليه كافرًا وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**» وقد قال تعالى في كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

فهذا شمر بن ذي الجوشن -قبحه الله- هذا الأبرص الذي أغرى الناس بقتل الحسين، يقتله أبو عمرة أمير حرس المختار ومن معه من الجنود، شرع المختار يتتبع قَتَلَةَ الحسين من شريف ووضيع فيقتله.

---

(١) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٦٦٠٧).

(٢) انظر «البداية والنهاية» (٨/ ٢٠٣، ٨/ ٢١٠، ٨/ ٢٧٥، ٢٧٦، ٨/ ٢٨٩)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٤٨، ٥٤٩) وانظر الجزاء من جنس العمل (ص/ ١٧٤ - ١٧٧).

قال ابن كثير: خطب المختار أصحابه، فقال: ما ذنبنا نترك أقوامًا، قتلوا حسينًا، يمشون في الدنيا أحياء آمنين، بئس ناصرو آل محمد، إني إذًا كذاب، كما سميتموني أنتم، فإني بالله أستعين عليهم، فالحمد لله الذي جعلني سيفًا أضربهم، ورمحًا أطعنهم، وطالبًا وترهم، وقائمًا بحقهم، وإنه كان حقًّا على الله أن يقتل من قتلهم، وأن يذل من جهل حقهم، فسموهم، ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم، فإنه لا يسيغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم، وأنفي من في المصر منهم، ثم جعل يتبع من في الكوفة -وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه، فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات، ما يناسب ما فعلوا-، ومنهم من حرقه بالنار، ومنهم من قطع أطرافه، وتركه حتى مات ومنهم من يرمى بالنبال حتى يموت، فأتوه بمالك بن بشير، فقال له المختار: أنت الذي نزعت برنس الحسين عنه؟ فقال: خرجنا، ونحن كارهون، فامنن علينا، فقال: اقطعوا يديه ورجليه، ففعلوا به ذلك، ثم تركوه يضطرب حتى مات وقتل عبد الله بن أسيد الجهني، وغيره شر قتلة. والجزاء من جنس العمل.

وأما خولي بن يزيد الأصبحي؛ الذي احتز رأس الحسين؛ فقد بعث إليه المختار أبا عمرة، صاحب حرسه، فكبس بيته فخرجت إليهم امرأته، فسألوها عنه، فقالت: لا أدري أين هو، وأشارت بيدها إلى المكان الذي هو مختفٍ فيه، -وكانت تبغضه من ليلة قدم برأس الحسين معه إليها، وكانت تلومه على ذلك-، فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قوصرة، فحملوه إلى المختار، فأمر بقتله قريبًا من داره، وأن يحرق بعد ذلك.

وقتل حكيم بن فضيل السبنسي، الذي سلب العباس بن علي بن أبي طالب.

وقتل يزيد بن ورقاء؛ وكان قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل.

وقتل فيما بعد سنان بن أنس، والجزاء من جنس العمل.

وعمر بن سعد بن أبي وقاص؛ أمير الذين قتلوا الحسين.

عمر هذا الذي دعا عليه سعد بن أبي وقاص، والده؛ وكان مستجاب الدعوة: اللهم اقتله، وأسل دمه، لما أسال دم غلام لسعد، عمر هذا الذي استجار بعبد الله بن جعد بن هبيرة، وكان صديقًا للمختار، فأتى المختار، فأخذ منه لعمر بن سعد أمانًا مضمونة أنه آمن على نفسه وأهله، وماله، ما أطاع، ولزم رحله ومصره، ما لم يحدث حدثًا، وأراد المختار ما لم يأت الخلاء فيبول أو يغوط.

وجعل عمر يتنقل من محلة إلى محلة، ولما بلغ المختار انتقاله من موضع إلى موضع، فقال: كلا والله، إن في عنقه سلسلة ترده لوجهه، إن يطر، لأدركه دم الحسين، فأخذ برجله ثم أرسل إليه أبا عمرة، فأراد الفرار منه، فعثر في جبته، فضربه أبو عمرة بالسيف حتى قتله، وجاء برأسه في أسفل قبائه، حتى وضعه بين يدي المختار، فقال المختار لابنه حفص -وكان جالسًا عند المختار-: أتعرف هذا الرأس؟ فاسترجع، وقال: نعم، ولا خير في العيش، بعده قال: صدقت، ثم أمر به فضربت عنقه، ووضع رأسه مع رأس أبيه، ثم قال المختار: هذا بالحسين، وهذا بعلي بن الحسين الأكبر، ولا سواء. «**والجزاء من جنس العمل**».

أما عبيد الله بن زياد رأس الفسق، الذي كتب كتابًا لعمر بن سعد في قتل الحسين، والذي قال لعمر بن سعد بعد قتل الحسين: أين الكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين؟ فقال له مضيت لأمرك، وضاع الكتاب، فقال له ابن زياد: لتجيئن به، قال: ضاع، قال: والله لتجئين به، قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهم بالمدينة، أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها

إلى سعد بن أبي وقاص، لكنت قد أديت حقه، فقال عثمان بن زياد، أخو عبيد الله: صدق عمر والله ولوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وأن حسينًا لم يقتل.

وقد قتل عبيد الله بن زياد في يوم عاشوراء، سنة سبع وستين، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين، ظفر به الأشتر، فقتله شر قتلة، على شاطئ نهر الخاز، قريبًا من الموصل بخمس مراحل، بعد هزيمة أمام جيش ابن الأشتر، ثم بعث ابن الأشتر برأسه إلى المختار ومعه رأس حصين بن نمير، وشراحبيل بن ذي الكلاع، وجماعة من رؤساء أصحابهم فَسُرَّ بذلك المختار، ولما جيء برأس ابن مرجانة وأصحابه، طرحت بين يدي المختار، فجاءت حية رقيقة ثم تخللت الرؤوس، حتى دخلت في فم ابن مرجانة وخرجت من منخره ودخلت في منخره وخرجت من فمه، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه من بين الرءوس، وروى الترمذي عن عمارة بن عمير قال: لما جيء برأس عبيد الله، وأصحابه، فنصبت في المسجد في الرحبة فانتهيت إليها، وهم يقولون: قد جاءت، قد جاءت، فإذا حية قد جاءت، تخللت الرؤوس، حتى دخلت في منخري عبيد الله بن زياد، فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت، حتى تغيبت، ثم قالوا: قد جاءت ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا.

مثلما فعل بالقضيب في فم ومنخري الحسين «**والجزاء من جنس العمل**».

قال ابن كثير: قال عبد الملك بن عمير: دخلت على عبيد الله بن زياد، وإذا رأس الحسين بن علي، بين يديه على ترس، فوالله، ما لبثت قليلًا، حتى دخلت على المختار بن أبي عبيد، وإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار على ترس، ووالله ما لبثت إلا قليلًا، حتى دخلت على مصعب، وإذا رأس المختار بين يدي مصعب على ترس وكان جزاء عبيد الله بن زياد في الدنيا من جنس عمله والمرد إلى الله،

فيعاقبه بقتل ابن بنت النبي ﷺ.

وعن أبي الطفيل قال: عزلنا سبعة أرؤس، وغطينا منها رأس عبيد الله بن زياد، فجئت فكشفتها، فإذا حية في رأس عبيد الله تأكل.

قتل شيخ على ردته

قال بعضهم: كنت جالسًا عند الحسن البصري ﷺ، فمر بنا قوم يجرون قتيلًا، فلما رآه الحسن وقع مغشيًا عليه، فلما أفاق من غشيته سألته عن أمره فقال: إن هذا الرجل كان من أفضل العباد وكبار السادات الزهاد، فقلت له يا أبا سعيد: أخبرنا بخبره وأطلعنا على أمره قال: إن هذا الشيخ خرج من بيته يريد المسجد ليصلي فيه، فرأى في طريقه جارية نصرانية فافتتن بها فامتنعت عنه فقالت له: لا أتزوجك حتى تدخل في ديني، فلما طالت المدة، وزاد به الأمر، جذبته شقوته، فأجاب إلى ذلك وبرئ من دين الحنيفية، فلمَّا صار نصرانيًا وكان منه ما كان، خرجت المرأة من خلف الستر وقالت: يا هذا لا خير فيك، خرجت من دينك الذي صحبته عمرك من أجل شهوة لا قدر لها، لكن أنا أترك دين النصرانية طلبًا لنعيم لا يفنى عني طول الأبد في جوار الواحد الصمد، ثم قرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فتعجب الناس من أمرها وقالوا لها: كنت تحفظين هذه السورة قبل هذا؟! قالت لا والله ما عرفتها قط، ولكن هذا الرجل لما أَلَحَّ عليَّ رأيت في المنام كأني دخلت النار فَعُرِضَ عليَّ مكاني منها فارتعبت وخفت خوفًا شديدًا فقال لي مالك: لا تخافي ولا تحزني فقد فداك الله بهذا الرجل منها، ثم أخذ بيدي وأدخلني الجنة فوجدت فيها سطرًا مكتوبًا فقرأته فوجدت فيه ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ثم

أقرأني سورة الإخلاص فأقبلت أرددها ثم انتبهت وأنا أحفظها، قال الحسن: فأسلمت المرأة وقتل الشيخ على ردته نسأل الله الثبات والعافية[١].

خَرَّ ميتًا

عن عبد الواحد بن زيد قال: كنا عند مالك بن دينار، ومعنا محمد بن واسع، وحبيب أبو محمد، فجاء رجل، فكلم مالكًا، وأغلظ له في قسمة قسمها، وقال: وضعتها في غير حقها، وتتبعت بها أهل مجلسك ومن يغشاك لتكثر غاشيتك وتصرف وجوه الناس إليك، قال: فبكى مالك، وقال: والله ما أردت هذا، قال: بلى والله لقد أردته، فجعل مالك يبكي، والرجل يغلظ له؛ فلما كثر ذلك عليهم، رفع حبيب يديه إلى السماء ثم قال: اللهم إن هذا قد شغلنا عن ذكرك فأرحنا منه كيف شئت، قال: فسقط -والله- الرجل على وجهه ميتًا فحمل إلى أهله على سرير[٢].

اسْوَدَّ وَجْهُهُ

عن علي بن زيد بن جدعان قال: كنت جالسًا إلى سعيد بن المسيب فقال: يا أبا الحسن: مُرْ قائدك يذهب بك فتنظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده، فانطلق، قال: فإذا وجهه وجه زنجي، وجسده أبيض، فقال سعيد: إني أتيت على هذا وهو يسب طلحة والزبير وعليًّا رحمة الله عليهم، فنهيته، فأبى، فقلت إن كنت كاذبًا فَسَوَّدَ الله وجهك فخرجت في وجهه قرحة فاسودَّ وجهه[٣].

---

(١) انظر كتابنا «الخائفون من الله» (ص/ ٣٨) ط. الإيمان- المنصورة.

(٢) انظر «مجابو الدعاء» (ص/ ٨١) برقم (٩٥).

(٣) المرجع السابق (ص/ ٦٩) برقم (٦٨) وانظر «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤/ ٢٤٢).

اضطرب حتى مات

وعن الحجاج بن صفوان بن أبي يزيد قال: وشى رجل ببسر بن سعيد إلى الوليد بن عبد الملك أنه يطعن على الأمراء، أو يعيب بني مروان، قال فأرسل إليه الوليد، والرجل عنده، قال فجيء به ترعد فرائصه فأدخل عليه، فسأله عن ذلك فأنكره بسر، وقال: ما فعلت، قال: فالتفت الوليد إلى الرجل فقال: يا بسر! هذا يشهد عليك بذلك، فنظر إليه بسر، وقال: أهكذا؟ قال: نعم، فنكس رأسه وجعل ينكت في الأرض، ثم رفع رأسه، فقال: اللهم قد شهد بما قد علمت أني لم أقله فإن كنت صادقًا فأرني به آية على ما قال. قال: فانكب لوجهه فلم يزل يضطرب حتى مات[1].

قتله ولده

كان رجل من المياسير بالبصرة، يتمنى أن يُرْزَقَ ابنًا، وينذر عليه النذور، حتى وُلد له، فسر به غاية السرور، وأحسن تربيته، حتى ارتفع عن مبلغ الأطفال إلى حدِّ الرجال، ولم يهمه شيء من أمر الدنيا سواه، ولم يؤخر ممكنًا من الإحسان عنه، فلم يشعر الأب ذات يوم إلا بخنجر خالط جوفه من وراء ظهره، فاستغاث بابنه فلم يجبه، ثم استغاث به ثانية، والتفت فإذا هو صاحب الضربة، فقال الشيخ: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أستغفر الله، صدق الله.

بدأ بالشهادة حتى تكون آخر كلامه من الدنيا وباستغفاره أن الله تعالى حذره فلم يحذر، وبقوله: صدق الله، لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ

(١) المرجع السابق (ص/ ٨٠) برقم (٩٤).

﴿وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[1].

من ضحايا الشيطان

صديق منصور بن عمار

وقال منصور بن عمار رحمه الله: كان لي صديق مسرف على نفسه ثم تاب، وكنت أراه كثير العبادة والتهجد، ففقدته أيامًا، فقيل لي: هو مريض.

فأتيت إلى داره فخرجت إليّ ابنته، فقالت: من تريد؟ قلت: فلانًا، فاستأذنت لي، ثم دخلت فوجدته في وسط الدار، وهو مضطجع على فراشه، وقد اسْوَدَّ وجهه، وأذرفت عيناه، وغلظت شفتاه، فقلت له وأنا خائف منه: يا أخي أكثر من قول: «لا إله إلا الله» ففتح عينيه فنظر إلي شزرًا، وغشي عليه، فقلت له ثانيًا: يا أخي أكثر من قول: «لا إله إلا الله» ثم ثالثًا: ففتح عينيه وقال: يا أخي منصور، هذه كلمة قد حيل بيني وبينها، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم قلت له: يا أخي، أين تلك الصلاة والصيام والتهجد والقيام؟!!

فقال: كان ذلك لغير الله، وكانت توبتي كاذبة، إنما كنت أفعل ذلك ليقال عني وأذكر به، وكنت أفعل ذلك رياء للناس، فإذا خلوت إلى نفسي أغلقت الباب وأرخيت الستور، وشربت الخمور، وبارزت ربي بالمعاصي، ودمت على ذلك مدة فأصابني المرض، وأشرفت على الهلاك.

فقلت لابنتي هذه: ناوليني المصحف، وقلت: اللهم بحق كلامك في هذا القرآن العظيم إلا ما شفيتني، وأنا لا أعود إلى ذنبٍ أبدًا، ففرج الله عني، فلما شفيت عدت إلى ما كنت عليه من اللهو واللذات، وأنساني الشيطان العهد الذي بيني

---

(١) سورة «التغابن»: (١٤).

وبين ربي فبقيت على ذلك مدة من الزمان، فمرضت مرضًا أشرفت فيه على الموت، فأمرت أهلي فأخرجوني إلى وسط الدار على عادتي، ثم دعوت بالمصحف فقرأت فيه، ثم رفعته وقلت: اللهم بحرمة ما في هذا المصحف الكريم من كلامك إلا فرجت عني: فاستجاب الله مني وفرج عني.

ثم عدت إلى ما كنت عليه من اللهو، فوقعت في هذا المرض، فأمرت أهلي فأخرجوني إلى وسط الدار كما تراني، ثم دعوت بالمصحف فقرأت فيه، فلم يتبين لي حرف واحد، فعلمت أن الله سبحانه وتعالى قد غضب علي، فرفعت رأسي إلى السماء وقلت: اللهم فرِّج عني يا جبار الأرض والسماء!

فسمعت كأن هاتفًا يقول:

تتوب عن الذنوب إذا مرضت ... وترجع للذنوب إذا برئت

فكم من كربةٍ نجاك منها ... وكم كشف البلاء إذا بليت

أما تخشى بأن تأتي المنايا ... وأنت على الخطايا قد دهيت

قال منصور بن عمار: فوالله ما خرجت من عنده إلا وعيني تسكب العبرات فما وصلت الباب، إلا وقيل لي: إنه قد مات[1].

احذروا

ولقد حكى ابن ظفر في كتاب «النصائح» له قال: كان يونس بن عبيد -رحمه الله تعالى- بزازًا، وكان لا يبيع في طرفي النهار ولا في يوم غيم، فأخذ يومًا ميزانه فَرَضَّهُ بين حجرين فقيل له: هلا أعطيته الصائغ فأصلح فساده؟ فقال: لو علمت فيه فسادًا لما أبقيت من مالي قوت ليلة: قيل له: فلم كسرته؟ قال: حضرت الساعة

(١) انظر كتابي «الأنيس» ط فياض -(ص/ ٨٩-٩٠)، وفي «الخائفون من الله» ط الإيمان (ص/ ٣٩-٤٠).

رجلًا احتضر فقلت له: قل لا إله إلا الله فامتعض، فألححت عليه فقال: ادع الله لي وقال: هذا لسان الميزان يمنعني من قولها، قلت: وما كان عملك به؟ قال: ما أخذت ولا أعطيت به إلا حقًا في علمي، غير أني كنت أقيم المدة لا أفتقده ولا أختبره، فكان يونس بعد ذلك يشترط على من يبايعه أن يأتي بميزان ويزن بيده وإلا لم يبايعه[1].

من ضحايا الشيطان

أحمد بن يحيى وقع في الإلحاد

هو أحمد بن يحيى بن إسحاق، وقع في الإلحاد، ولازم الملاحدة، فإذا عوتب قال: إنما أريد أن أعرف أقوالهم..

وكان لا يستقر على مذهب ولا نحلة، حتى صنف لليهود كتاب النصرة على المسلمين لدراهم أعطيها من يهود، فلما أخذ المال، رام نقضها، فأعطوه مائتي درهم حتى سكت.

وقال قبحه الله: في القرآن لحن، وقال: يقولون: لا يأتي أحد بمثل القرآن فهذا إقليدس لا يأتي أحد بمثله، وكذلك بطليموس.

وطلبه السلطان ليقتله، فاختفى عند ابن لاوي اليهودي، فوضع له كتاب «الدامغ»، ثم لم يلبث أن مرض مات إلى اللعنة، وقد سرد ابن الجوزي من بلاياه نحوًا من ثلاثة أوراق.

---

(١) انظر التذكرة – مرجع سابق (ص/ ٣٥)، ونفهم من هذا الموقف التأكيد على الالتزام بأوامر الله والانتهاء بنواهيه، وأن نفهم الوعيد الوارد في سياق ذلك من قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣] وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

ومات على سوء الخاتمة سنة ثمان وتسعين ومائتين[١].

من ضحايا الشيطان

ابن الخشكري

ابن الخشكري النعماني أحد الشعراء، اشتهر عنه أشياء عظيمة، منها: أنه يعتقد فضل شعره على القرآن المجيد، واتفق أن الصاحب علاء الدين صاحب الديوان انحاز إلى واسط، فلما كان بالنعمانية حضر ابن الخشكري عنده وأنشده قصيدة قد قالها فيه، فبينما هو ينشدها بين يديه، إذْ أذن المؤذن فاستنصته الصاحب. فقال ابن الخشكري: يا مولانا، اسمع شيئًا جديدًا، وأعرض عن شيء له سنين يعني الأذان!!

فثبت عند الصاحب ما كان يقال عنده عنه، ثم باسطه، وأظهر أنه لا ينكر عليه شيئًا مما قال حتى استعلم ما عنده، فإذا هو زنديق، فلما ركب قال لإنسان معه: استفرد به في أثناء الطريق واقتله، فسايره ذلك الرجل حتى إذا انقطع عن الناس قال لجماعة معه؛ أنزلوه عن فرسه كالمداعب له، فأنزلوه وهو يشتمهم ويلعنهم، ثم قال: انزعوا عنه ثيابه فسلبوها، وهو يخاصمهم، ويقول: إنكم أجلاف، وإن هذا لعب بارد!

ثم قال: اضربوا عنقه، فتقدم إليه أحدهم فضربه بسيفه، فقطع رأسه[٢].

* * *

(١) انظر «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ١١٦)، وانظر المنتظم (١٣/) لابن الجوزي.

(٢) انظر البداية والنهاية (١٣/ ٢٥٣).

عاقبة الظلم[1]

وهذه قصة واقعية من أيامنا هذه، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام، ونشرها محرر «بريد الجمعة» عبد الوهاب مطاوع في مقاله، تحت عنوان «الضوء الأخير» قالت فيها: دفعني للكتابة إليك بيتا الشعر، اللذان قرأتهما في ردك على إحدى الرسائل ويقولان:

إنما الدنيا هبات ... وعوار مسترده

شدة بعد رخاء ... ورخاء بعد شده

فأردت أن أروي لك قصتي، عسى أن تكون عبرة لغيري فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ولي ابن شاب متزوج ولديه طفلان، وزوجي ضابط عسكري بالمعاش، ونعيش حياة رغدة وقد استعنت طوال حياتي الزوجية على تربية أولادي بمربيات عديدة لا أتذكر عددهن من كثرتهن ولا عجب في ذلك فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندي أكثر من شهرين ثم تفر من قسوة زوجي العدواني بطبعه والذي لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته، أم أنها وراثية فيه؟ فقد كان يتفنن في تعذيب أي مربية تعمل عندنا ولا أنكر أني شاركته في بعض الأحيان جريمته، ومنذ خمسة عشر عامًا، وابنتي في السابعة من عمرها، وابني في المرحلة الإعدادية جاءنا مزارع من معارف زوجي، ومن أبناء بلدته يصطحب معه ابنته الطفلة ذات الأعوام التسعة فاستقبله زوجي بكبرياء وترفع، وقال المزارع البسيط: إنه أتى بابنته لتعمل عندنا

(١) انظر «صحيفة الأهرام» بتاريخ ١٥/ ١/ ١٩٩١ - الصفحة (١٦) «بريد الجمعة» وانظر «الجزاء من جنس العمل» (ص/ ٢٥٩- ٢٦٤).

مقابل عشرين جنيهًا في الشهر ووافقنا وترك المزارع المكافح طفلته الشقراء، فانخرطت الطفلة في البكاء وهي تمسك بجلباب أبيها وتستحلفه ألا يتأخر عن زيارتها وألا ينسى أن يسلم لها على أمها وإخوتها، وانصرف الرجل دامع العينين وهو يعدها بما طلبت وبدأت الطفلة حياتها الجديدة معنا وكانت تستيقظ في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاي لتساعدني في إعداد طعام الإفطار لهما ثم تحمل الحقائب المدرسية وتنزل بها إلى الشارع، وتظل واقفة مع ابنتي وابني حتى يحملهما أتوبيس المدرسة، وتعود للشقة فتتناول طعام إفطارها وكان غالبًا من الفول بدون زيت وخبز على وشك التعفن، وفي بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن ثم تبدأ في ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشراء الخضراوات والمسح وتلبية النداءات حتى منتصف الليل، فتسقط على الأرض كالقتيلة، وتستغرق في النوم، وعند أي هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب، ينهال عليها زوجي ضربًا بقسوة شديدة، فتتحمل الضرب باكية صابرة ورغم ذلك، فقد كانت طفلة في منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها، تفرح بأبسط الأشياء وتغني غناء حزينًا خافتًا يعبر عن شوقها لبلدتها، وأمها وإخوتها، وهي تغسل الأطباق، ورغم اعترافي بأني كنت شريكة لزوجي في قسوته على الخادمات وتفننه في تعذيبهن، حتى أنه كان أحيانًا يختلق الأسباب، لضرب أي خادمة تعمل عندنا، إلا أنه كانت تأخذني الشفقة في بعض الأحيان بهذه الفتاة، لطيبتها، وانكسارها وإخلاصها، فأناشد زوجي ألا يضربها وأقول له: إنها قد كبرت وَتَعَوَّدَتُ على طباعنا، وتحملتنا كثيرًا فلا داعي للاستمرار في ضربها فكان يقول لي مقهقهًا: إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها، لأنها قد تعودت عليه، وأن هذا «الصنف» من الناس لا تجدي معه المعاملة الطيبة،

واستمرت الفتاة تتحمل العذاب في صمت وصبر، وأتذكر الآن بأنني حين كان العيد يأتي، ويخرج طفلاي مبتهجين مهللين بينما تبقى هذه الطفلة التي تماثلهما في العمر تنظف وتغسل دون شفقة، وبعد أن تنتهي من أعمالها الشاقة ترتدي فستانًا قديمًا لكنه نظيف، لأنها كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاستلام أجرتها الشهرية، كما لم تر أمها وأخواتها إلا في ثلاث مناسبات محدودة؛ الأولى: حين مات شقيقها الأكبر في حادث عند عودته من الأردن، وكانت الفتاة المحرومة تعلق أملًا كبيرًا على عودته، وتحلم بأن ينشلها من العذاب الذي تعانيه عندنا، فإذا به يلقى مصرعه وتفقد آخر أمل لها فبكته بحرقة وسرًّا، حتى لا يراها زوجي فتلقى عقابًا على يديه والمرة الثانية: لم تكن تعطفا منا عليها، وإنما كانت تخلصًا منها في الحقيقة، فقد كانت مريضة بمرض معدٍ، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها وكانت المرة الثالثة: عند وفاة أبيها بعد أن دخلت مرحلة الصبا، واستقر الحزن والانكسار في قلبها.

وأرجو أن تصدقني يا سيدي، إذ ليس لدي ما يبرر أن أدعي شيئًا غير صادق وأنا كتبت لك بإرادتي، إذ قلت إني أبكي الآن كلما تذكرت قسوة عقابنا لها، إذا أخطأت أي خطأ، وكان لابد أن تخطئ، كأي طفلة وكأي إنسان، فقد كان زوجي يصعقها بسلك الكهرباء، وكثيرًا ما حرمناها من وجبة العشاء في ليالي البرد القاسية فباتت على الطوى جائعة، ولا أتذكر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكي وسوف تتساءل، ولماذا تحملت كل هذا العذاب، ولم تهرب بجلدها من جحيمكم؟ وأجيبك: بأن الفتاة حين قاربت سن الشباب خرجت ذات يوم

لشراء الخضروات ولم تعد، فسأل زوجي البواب عنها، وعرف أنها كانت تتحدث لفترات طويلة مع شاب يعمل لدي جزار بنفس الشارع، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفقت معه على أن يتزوجها وينشلها من هذه الحياة فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجي قد تكفل بإحضارها من مخبئها، واستقبلناها عند عودتها استقبالًا حافلًا بكل أنواع العذاب فقام زوجي بصعقها بالكهرباء وتطوع ابني بركلها بعنف، بينما بكت ابنتي، وهي تقول لأبيها: حرام يا بابا حرام... حرام فقد سيطرته على نفسه، واستدار إليها، وضربها وهي أيضًا، وكانت المرة الأولى في حياتها التي يضربها فيها أبوها!

وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا، واستسلمت لمصيرها، واستمر الوضع كما كان عليه، تخطئ أو تؤجل عمل شيء بعض الوقت فيضربها زوجي ضربًا مبرحًا، وتخرج في الأجازات إلى منطقة الأهرامات، لنستمتع بشيء من اللحم ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله... إلخ ثم شيئًا فشيئًا بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها وأنها كثيرًا تقع في مشيتها، فعرضناها على الطبيب، فأكد لنا أن نظرها قد ضعف جدًا وأنه ينسحب تدريجيًا وأنها لا ترى حاليًا ما تحت قدميها، أي أنها أصبحت شبه كفيفة ورغم ذلك لم نرحمها، وظلت تقوم بكل أعمال نظافة المسكن وتخرج لشراء الخضروات كما كانت تفعل بل وكثيرًا ما صفعتها إذا عادت من السوق بخضروات ليست طازجة وكثيرًا ما كانت تفعل، لضعف بصرها الشديد فأشفقت عليها زوجة البواب، فكانت تجلسها في مدخل العمارة وتذهب هي لشراء الخضروات لها حتى تنقذها من الإهانة والضرب، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن، ثم خرجت الفتاة ذات يوم من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريبًا ولم تعد إليه مرة أخرى، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة،

ومضت السنوات، فأحيل زوجي للتقاعد، واستقبل حياة الفراغ -وفقد المنصب والنفوذ- أسوأ استقبال، فتضاعفت عصبيته، وثوراته، وانفلاتاته إلى حد غير محتمل، ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين، وتخرج ابني في الجامعة، وعمل، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته، فخطبناها له، وهي فتاة رائعة الجمال، وتزوجها وسعدنا بها، واكتملت سعادتنا حين عرفنا أنها حامل، ثم جاءت اللحظة السعيدة، ووضعت مولودها، فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كفيف، لا يبصر، وتحولت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء، بلا فائدة واستسلم ابني وزوجته للأمر الواقع وانطفأ الأمل في قلبيهما، وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين، وقررت زوجة ابني ألا تحمل مرة أخرى، خوفًا من تكرار الكارثة لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل، لأنه لا توجد صلة قرابة بينها وبين زوجها، تؤكد العوامل الوراثية وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها وشجعناهم نحن أيضًا على ذلك، على أمل أن يرزق ابننا بطفل طبيعي ويخفف من حزنه، وصدمته في طفله الأول، وحملت زوجة ابني، وأنجبت طفلة جميلة شقراء، نزلت إلى الحياة فتوقفت قلوبنا حتى زف الطبيب البشري بأنها ترى وتبصر، كالأطفال العاديين وسعدنا بها سعادة مضاعفة، وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب، والملابس، والهدايا وبعد سبعة شهور لاحظنا عليها أن نظرها مركز في اتجاه واحد لا تحيد عنه، فعرضناها على أخصائي عيون، للاطمئنان على سلامة عينيها، فإذا به يصدمنا بحقيقة أشد هولًا وهي أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء، وأنها معرضة أيضًا لفقد بصرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله ورأى زوجي ذلك، فأصيب بحالة نفسية، فسدت معها أيامه، وكره كل شيء، ثم

تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية، لعلاجه من الاكتئاب وانقبض قلبي وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدري بقسوة وفي ضيقي وأحزاني تذكرت فجأة الفتاة الكسيرة التي هربت من جحيمنا كفيفة، بعد أن أمضت معنا عشر سنوات، ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء، والضرب والهوان والحرمان، وسألت نفسي في جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلنا بها؟ وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة، التي أهملنا علاجها، وتسببنا في كف بصرها تطاردني في وحدتي، فتعلق أملي في عفو ربي عما جنينا في أن أجد هذه الفتاة وأكفر عما فعلنا بها، ورحت أسأل الجميع، حتى دلنا أحد الجيران إلى مكانها، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد، فذهبت إليها وأحضرتها، لتعيش معي ما بقي لي من أيامي، ورغم كل قسوة الذكريات، فقد فرحت بسؤالي عنها، وسعي إليها، لإعادتها وحفظت العشرة التي لم نحفظها، وعادت معي تتحسس الطريق وأنا أمسك بيدها، وفرحت بسماع صوت ابنتي، الشابة التي طالما أحبتها هذه الفتاة الطيبة في طفولتها وصباها، وسماع صوت ابني الذي عرف الهمُّ طريقه إلى قلبه، واستقرت الفتاة معنا وأصبحت أرعاها، بل وأخدمها هي وحفيدي الكفيفين، وأهلي، ودعائي لربي أن يغفر لي ما كان، وأنا أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم إن الله حي لا ينام، فلا تقسوا على أحد، فسوف يجيء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين، وتندمون على مافعلتم في قوتكم وجبروتكم.

يا منَ غرَّه طُولُ تماديه

أيها المقيم على الخطايا والعصيان، التارك لما أمر به الرحمن، المطيع للهوى الفتان، إلى متى أنت على جرمك مصرٌّ! ومما يقربك إلى مولاك تفر؟ تطلب من

الدنيا ما لا تدركه، وتتقي من الآخرة بما لا تملكه، لا أنت بما قسم الله لك من الرزق واثق، ولا أنت بما أمرك به لاحق.

يا أخي! الموعظة، والله لا تنفعك، والحوادث لا تردعك، لا الدهر يدعك، ولا داعي الموت يسمعك، كأنك يا مسكين لم تزل حيًّا موجودًا، وكأنك لا تعود نسيًّا مفقودًا.

فاز والله المخفُّون من الأوزار، وسلم المتقون من عذاب النار، وأنت مقيمٌ على كسب الجرائم والأوزار.

وأنشدوا:

حيل صبري وحق لي أن أنوحا ... لم تدع لي الذنوب قلبًا صحيحا

أخلقت مهجتي أكف المعاصي ... ونعاني المشيب نعيًا صريحا

كلما قلت قد برى جرح قلبي ... عاد قلبي من الذنوب جريحا

إنما الفوز والنعيم لعبد ... جاء في الحشر آمنًا مستريحا

إخواني: ارفضوا هذه الدنيا كما رفضها الصالحون، وأعدوا الزاد لنقلة لابد لها أن تكون، واعتبروا بما تدور به عليكم الأيام والسنون.

يا من غدا في الغي والتيه ... وغره طول تماديه

أملي لك الله فبارزته ... ولم تخف غب معاصيه

بادروا بالتوبة من الذنوب، واقتفوا آثار التوابين، واسلكوا مسالك الأوابين، الذين نالوا التوبة والغفران، وأتعبوا أنفسهم في رضا الرحمن، فلو رأيتهم في ظلم الليالي قائمين، ولكتاب ربهم تالين، بنفوس خائفة، وقلوب واجفة، قد وضعوا جباههم على الثرى، ورفعوا حوائجهم لمن يرى وأنشدوا:

ألا قف ببابي عند قرع النوائب وثق بي تجدني خير خلٍّ وصاحب

ولا تلتفت غيري فتصبح نادمًا ومن يلتفت غيري يعش عيش خائب[1]

يَا عَبْدَ هَوَاه: اذْكُر مَا قَدَّمَتْ يَدَاك

يا أسير دنياه، يا عبد هواه، يا موطن الخطايا، ويا مستودع الرزايا، اذكر ما قدمت يداك، وكن خائفًا من سيدك ومولاك أن يطلع على باطن زللك وجفاك، فيصدك عن بابه، ويبعدك عن جنابه، ويمنعك من مرافقة أحبابه، فتقع في حضرة الخذلان، وتتقيد بشرك الخسران، وكلما رمت التخلص من غيك وعناك، صاح بك لسان الحال وناداك:

إليك عنا فما تحظى بنجوانا يا غادرًا قد لها عنا وقد خانا

أعرضت عنا ولم تعمل بطاعتنا وجئت تبغي الرضا والوصل قد بانا

بأي وجه نراك اليوم تقصدنا وطال ما كنت في الأيام تنسانا

يا ناقض العهد ما في وصلنا طمع إلا المجتهد بالجد قد دانا

يا من باع الباقي بالفاني، أما ظهر لك الخسران، ما أطيب أيام الوصال، وما أمرُّ أيام الهجران، ما طاب عيش القوم حتى هجروا الأوطان، وسهروا الليالي بتلاوة القرآن فيبيتون لربهم سجدًا وقيامًا.

يا عبد السوء كم تعصي ونستر؟! كم تكسر باب نهي ونجبر؟! كم نستقطر من عينيك دموع الخشية ولا يقطر؟! كم نطلب وصلك بالطاعة، وأنت تفر وتهجر؟! كم لي عليك من النعم، وأنت بعد لا تشكر؟! خدعتك الدنيا وأعمال الهوى وأنت لا تسمع ولا تبصر. سخرت لك الأكوان وأنت تطغى وتفكر، وتطلب الإقامة في

(١) انظر «بحر الدموع» (ص/ ٣٢، ٣٣، ٣٤) بتصرف.

الدنيا وهي قنطرة لمن يعبر.

منعوك من شرب المودة والصفا ... لما رأوك على الخيانة والجفا

إن أنت أرسلت العنان إليهم ... جادوا عليك تكرمًا وتعطفا

حشا هم أن يظلموك وإنما ... جعلوا الوفاء منهم لأرباب الوفاء[1]

قَلْبُكَ فِي سَهْوٍ وَلَهْوٍ وَغَفْلَةٍ

ذنوبك يا مغرور تحصى وتحسب ... وتجمع في لوحٍ حفيظ وتكتب

وقلبك في سهو ولهو وغفلة ... وأنت على الدنيا حريص معذب

تباهي بجمع المال من غير حله ... وتسعى حثيثًا في المعاصي وتذنب

أما تذكر الموت المفاجيك في غدٍ ... أما أنت من بعد السلامة تعطب

أما تذكر القبر الوحيش ولحده ... به الجسم من بعد العمارة يخرب

أما تذكر اليوم الطويل وهوله ... وميزان قسطٍ للوفاء سينصب

تروح وتغدو في مراحك لاهيًا ... وسوف بأشراك المنية تنشب

تعالج نزع الروح من كل مفصل ... فلا راحم ينجي ولا ثَمَّ مهرب

وغمضت العينان بعد خروجها ... وبسطت الرجلان والرأس تعصب

وقاموا سراعًا في جهازك أحضروا ... حنوطًا وأكفانًا وللماء قربوا

وغاسلك المحزون تبكي عيونه ... بدمع غزير واكفٍ يتصبب

وكل حبيب لبه متحرق ... يحرك كفيه عليك وينددب

وقد نشروا الأكفان من بعد طيها ... وقد بخروا منشورهن وطيبوا

---

(١) انظر «بحر الدموع» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص/ ١٩، ٢٢).

وألقـوك فـيما بيـنهن وأدرجـوا ... عليـك مثـاني طـيهن وعـصبوا
وفي حفـرة ألقـوك حـيران مفـردًا ... تضمك بيداء مـن الأرض بسبسب
إذا كـان هـذا حالنـا بعـد موتنـا ... فكيف يطيب اليوم أكـل ومـشرب؟!
وكيف يطيب العيش والقبر مسكنٌ ... بـه ظلـمات غيهـب ثـم غيهـب
وهـول وديـدان وروع ووحـشة ... وكـل جديـدٍ سـوف يـبلى ويـذهب
فيـا نفـس خـافي الله وارجـي ثوابـه ... فهـادم لـذات الفتـى سـوف يقـرب
وقـولي إلهـي أولنـي منـك رحمـة ... وعفـوًا فـإن الله للـذنب يُـذهب
ولا تحـرقن جـسمي بنـارك سـيدي ... فجسمي ضعيف والرجا منك أقـرب

استيقظ يا مغرورًا بالأماني[1]

يا مغرورًا بالأماني: لعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أُمِرَ بها، وأُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من مسكر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم، فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[2].

دخلت امرأة النار في هرة، وإن الرجل ليتكلم الكلمة ولا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جاء في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار، العمر بآخره

(١) انظر «الفوائد» لابن قيم الجوزية -رحمه الله- بتحقيقنا (ص/ ٨٠)- والعنوان من عندنا..
(٢) سورة «الشمس»: (١٥).

والعمل بخاتمته، من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عمره؛ لقي ربه بذلك الوجه، لو قدمت لقمة وجدتها ولكن يؤذيك الشره.

كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فرده بواب «**سوف ولعل وعسى**».

كيف الفلاح بين إيمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طبيب له ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد ساهيًا في غمرته، عَمِهًا في سكرته، سابحًا في لجة جهله، مستوحشًا من ربه، مستأنسًا بخلقه، ذكر الناس فاكهته وقوته، وذكر الله حبسه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره:

لا كان من لسواك فيه بقية ... يجد السبيل بها إليه العدل

ضحايا الهوى والعشق

كم مِنْ نَظْرَةٍ حقيرة زَلَّتْ بِهَا الأقدام؟!!!

الدنيا سموم قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة. كم من نظرة تحلو في العاجلة، ومرارتها لا تطاق في العاقبة الآجلة؟! يا ابن آدم! قلبك قلب ضعيف، ورأيك في إطلاق الطرف رأي سخيف، عينك مطلوقة ولسانك يجني الآثام، وجسدك يتعب في كسب الحطام، كم من نظرة محتقرة ذلت بها الأقدام؟!

عَاتَبْتُ قَلْبِي لَمَّا رَأَيْتُ جِسْمِي نحيلًا

فَلَام قَلْبِي طرفي وقال كنت أنت الرسولا

فقال طرفي لقلبي بل كُنْتَ أنت الدليلا

فَقُلْتُ كفى جميعًا تركتماني قتيلًا

إمَّا سُرُورٌ ونعيمٌ وإمَّا همومٌ وغمومٌ[1]

ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب، وابتلى العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء؛ وأمدّ كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالًا ودولًا بين الفريقين إلى أن يستولي أحدهما على الآخر، ويكون الآخر مقهورًا معه.

فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك، فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر، والفوز بالغنائم.

وإذا كانت التوبة للنفس والهوى والشيطان، فهنالك الغموم والهموم والأحزان

---

(١) انظر الفوائد – لابن قيم الجوزية – رحمه الله (ص/ ٧٥- ٧٦) بتحقيقنا. – والعنوان وضعناه من عندنا.

وأنواع المكاره وضيق الصدر، وحبس الملك فما ظنك بملك استولى عليه عدوه فأنزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه، وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره ولا يستغيث بمن يغيثه ولا يستنجد بمن ينجده، وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يقهر، وغالب لا يغلب، وعزيز لا يذل، فأرسل إليه إن استنصرتني نصرتك وإن استغثت بي أغثتك، وإن التجأت إليّ أخذت بثأرك، وإن هربت إليّ وأويت إليّ؛ سلطتك على عدوك وجعلته تحت أسرك.

فإن قال هذا الملك المأسور: قد شد عدوي وثاقي وأحكم رباطي واستوثق مني بالقيود ومنعني من النهوض إليك، والفرار إليك والمسير إلى بابك، فإن أرسلت جندًا من عندك يحل وثاقي ويفك قيودي ويخرجني من حبسه، أمكنني أن أوافي بابك وإلا لم يمكنني مفارقة محبسي ولا كسر قيودي.

فإن قال ذلك احتجاجًا على ذلك السلطان ودفعًا لرسالته ورضًا بما هو فيه عند عدوه خلاه السلطان الأعظم وحاله وولاه ما تولى.

وإن قال ذلك افتقارًا إليه وإظهارًا لعجزه وذله وأنه أضعف وأعجز من أن يسير إليه بنفسه، ويخرج من حبس عدوه ويتخلص منه بحوله وقوته، وأن من تمام نعمة ذلك عليه كما أرسل إليه هذه الرسالة أن يمده من جنده ومماليكه بمن يعينه على الخلاص ويكسر باب محبسه ويفك قيوده، فإن فعل به ذلك فقد أتم إنعامه عليه وإن تخلى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقًّا هو له، وأن رحمته وحكمته اقتضت منعه وتخليته في محبسه، ولاسيما إذا علم أن الحبس حبسه وأن هذا العدو الذي حبسه مملوك من مماليكه وعبد من عبيده، ناصيته بيده، لا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته، فهو غير ملتفت إليه ولا خائف منه، ولا معتقد أن له شيئًا من الأمر ولا

بيده نفع ولا ضر، بل هو ناظر إلى مالكه ومتولي أمره ومن ناصيته بيده، قد أفرده بالخوف والرجاء والتضرع إليه، والالتجاء والرغبة والرهبة. فهناك تأتيه جيوش النصر والظفر.

أشْقِ البدنَ بنعيم الرُّوح[1]

خلق بدن ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما. فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلى الموضع الذي خُلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي، وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن إلى الموضع الذي خُلق منه، فانجذبت الروح معه، فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذب.

بالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي. وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى وبدنه عندك، فيكون نائمًا على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش، وآخر واقف في الخدمة ببدنه. وروحه في السفل تجول حول السفليات، فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة، وعند الرفيق الأسفل كل همٍّ وغمٍّ وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2]. فذكره كلامه الذي

---

(١) المرجع السابق (ص٢١٤، ٢١٥) بتحقيقي.

(٢) سورة «طه»: (١٢٤).

أنزل على رسوله، والإعراض عنه ترك تدبره والعمل به، والمعيشة الضنك فأكثر ما جاء في التفسير: أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس. وفيه حديث مرفوع.

وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة وكل ما ضاق فهو ضنك. يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك، في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسَّعْتَ عليها ضَيَّقْتَ على القلب حتى تصير معيشة ضنكًا، وكُلَّمَا ضَيَّقْتَ عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسخ، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما.

فَأَشْقِ البدن بنعيم الروح. ولا تُشْقِ الروح بنعيم البدن، فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون.

أيها العاصي! احذر هذا الباب المهلك

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من أبواب أربعة، أخطرها اللحظات. فهي رائدة الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج، فمن أطلق بصره؛ أورد نفسه موارد الهلكات.

وقال النبي ﷺ: «**لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الأخرى**»[(١)].

وقال: «**غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم**»[(٢)].

(١) الحديث: أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٥٣)، وأبو داود في «كتاب النكاح» (٢/ ٢١٤٩).

(٢) الحديث: رواه أحمد في «مسنده» وابن حبان، وابن خزيمة، والبيهقي في «الشعب»، وله شاهد متصل،=

وقال: «**وإياكم والجلوس على الطرقات**». قالوا: يا رسول الله مجالسنا، ما لنا بد منها، قال: «**فإن كنتم لابد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه**». قالوا: وما حقه؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام**»[1].

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوي فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: «**الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده**».

قال الشاعر:

كل الحوادث مَبْدؤُهَا من النظر ... ومعظم النار من مُسْتَصْغَرِ الشرر

كم نظرة بلغت من قلب صاحبها ... كم بلغ السَّهْمُ بين القوس والوتر

والعبد مادام ذا طرف يقلبه ... في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته ... لا مرحبًا بسرورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

ومن آفات النظر: **أنه يورث الحسرات والزفرات الحارقات، فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه، وهذا من أعظم العذاب: أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة على بعضه قال الشاعر:**

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا، أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه، ولا عن بعضه أنت صَابِرُ

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، مراده: أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه. ولا

=وانظر «الصحيحة» (٣/ ١٤٧٠).

(١) الحديث: متفق عليه، رواه البخاري -فتح- «كتاب الاستئذان» (١١/ ٦٢٢٩)، ومسلم في «صحيحه» (٣/ ٢١٢١) «كتاب اللباس والزينة».

تقدر عليه، فإن قوله: «لا كله أنت قادر عليه» نفي لقدرته على الكل الذي لا ينفي إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد.

كم مَنْ أَرْسَلَ لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلًا، كما قيل:

يـا نـاظرًا! مـا أقلعـت لحظاتـه ... حتـى تَـشَحَّطَ بيـنهنَّ قتـيلًا

مـلَّ الـسلامة فاغتـدت لحظاتـه ... وقفًـا عـلى طلـل يظـن جمـيلًا

مـازال يتبـع إثـره لحظاتـه ... حتـى تـشحط بيـنهن قتـيلًا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه، حتى يتبوأ مكانًا من قلب الناظر:

يـا راميًـا بـسهام اللحـظ مجتهـدًا ... أنـت القتيـل بـما ترمـي، فـلا تـصب

يـا باعـث الطـرف يرتـاد الـشفاء لـه ... احبس رسـولك، لا يأتيـك بالعطـب

وأعجب من ذلك، أن النظرة تجرح القلب جرحًا، فيتبعها جرحًا على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، ولي أيضًا في هذا المعنى:

مازلـت تتبـع نظـرة في نظـرة ... في إثـر كـل مليحـة ومليـح

تظـن ذاك دواء جرحـك وهـو في الـ ... ـتحقيق تجـريح عـلى تجـريح

فـذبحت طرفـك باللحـاظ وبالبكـا ... فالقلـب منـك ذبـيح أي ذبـيح

وقد قيل: إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات[1].

* * *

(١) الجواب الكافي (ص١٧٠ - ١٧٢) بتحقيقي.

مَنَاظَرَةٌ بين القلبِ والعينِ في الْهَوَى[١]

لما كانت العين رائدًا، والقلب باعثًا وطالبًا، وهذه لها لذة الرؤية، وهذا له لذة الظفر، كانا في الهوى شريكي عنان، ولما وقعا في العناء، واشتركا في البلاء، أقبل كل منهما يلوم صاحبه ويعاتبه.

فقال القلب للعين: أنت التي سقتني إلى موارد الهلكات، وأوقعتني في الحسرات بمتابعتك اللحظات، ونزهت طرفك في تلك الرياض، وطلبت الشفاء من الحدق المراض، وخالفت قول أحكم الحاكمين: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾[٢].

فمن الملوم سوى من رمى صاحبه بالسهم المسموم؟ أو ما علمت أنه ليس شيء أَضَرَّ على الإنسان من العين واللسان؟ فما عطب أكثر من عطب إلا بهما، وما هلك أكثر من هلك إلا بسببهما، فلله كم من مورد هلكة أورداه، ومصدر ردى عنه أصدراه، فمن أحب أن يحيا سعيدًا أو يعيش حميدًا فليغض من عنان طرفه ولسانه ليسلم من الضرر، فإنه كامن في فضول الكلام وفضول النظر، وقد صرح الصادق المصدوق بأن العينين تزنيان وهما أصل زنى الفرج، فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد سئل رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمر السائل أن يصرف بصره[٣]، فأرشده إلى ما ينفعه ويدفع عنه ضرره، وقال لابن عمه عليّ رضي الله عنه محذرًا له مما يوقع في الفتنة ويورث الحسرة: «**لا تتبع النظرة النظرة**»[٤]. أوما سمعت قول

---

(١) انظر «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن قيم الجوزية (ص١٠٤- ١٠٧).

(٢) سورة «النور»: (٣٠).

(٣) ورد بلفظ سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: «اصرف بصرك» رواه مسلم برقم (١٦٢٣) في صحيحه وانظر الرياض (ص/ ٦٥٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي والحاكم وانظر المشكاة (٣١١٠)، وصحيح الجامع (٧٩٥٣)،=

العقلاء: من سرح ناظره، أتعب خاطره، ومن كثرت لحظاته، دامت حسراته، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عَبراته، وقول الناظم:

نظر العين إلى العين هو الذي ... جعل الْهَلاكَ إلى الفؤاد سبيلا

مازالت اللحظات تغزو قلبه ... حتى تَشَحَّطَ بينهنَّ قتيلا

وقال آخر:

تمتعتما يا مقلتي بنظرة ... وأوردتما قلبي أمر المواردِ

أعينيَّ كُفَّا عن فؤادي فإنه ... من الظلم سعي اثنين في قَتْلِ واحد

فصل: قالت العين: ظلمتني أولًا وآخرًا، وبؤت بإثمي باطنًا وظاهرًا، وما أنا إلا رسولك الداعي إليك، ورائدك الدال عليك.

وإذا بعثت برائدٍ نحو الذي ... تهوى وتعتبه ظَلَمْتَ الرائدا

فأنت الملك المطاع، ونحن الجنود والأتباع، أركبتنى في حاجتك خيل البريد ثم أقبلت عَلَيَّ بالتهديد والوعيد، فلو أمرتني أن أغلق عليَّ بابي، وأرخي عليَّ حجابي، لسمعت وأطعت، ولما رعيت في الحمى ورتعت، أرسلتني لصيد قد نصبت لك حبائله وأشراكه، واستدارت حولك فخاخه وشباكه، فغدوت أسيرًا، بعد أن كنت أميرًا، وأصبحت مملوكًا، بعد أن كنت مليكًا، هذا وقد حكم لي عليك سيد الأنام وأعدل الحكام عليه الصلاة والسلام، حيث يقول: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[1]، وقال أبو هريرة ﷺ: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك

=وحجاب المرأة (٣٤).

(١) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» «كتاب الإيمان» (١/ ١٥٧) برقم (٥٢)، ومسلم في «صحيحه» (١٥٩٩).

طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، ولو أمعنت النظر لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك، وصلاحها ورشدها برشادك، ولكنك هلكت وأهلكت رعيتك، وحملت على العين الضعيفة خطيئتك، وأصل بليتك أنه خلا منك حب الله وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته، وأقبلت على غيره وأعرضت عنه، وتعوضت بحب من سواه والرغبة فيه منه، هذا وقد سمعت ما قَصَّ عليك من إنكاره سبحانه على بني إسرائيل استبدالهم طعامًا بطعام أدنى منه، فذمهم على ذلك ونعاه عليهم، وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[1]. فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره، ووليه ومالك أمره، الذي لا صلاح له ولا فلاح، ولا نعيم ولا سرور، ولا فرحة ولا نجاة، إلا بأن يوجد في الحب، ويكون أحب إليه مما سواه، فانظر بالله بمن استبدلت؟ وبمحبة من تعوضت؟ رضيت لنفسك بالحبس في الحشِّ، وقلوب محبيه تجول حول العرش.

فلو أقبلت عليه وأعرضت عَمَّن سواه لرأيت العجائب، ولأمنت من المتالف والمعاطب، أوما علمت أنه خَصَّ بالفوز والنعيم، من أتاه بقلب سليم، أي سليم مما سواه، ليس فيه غير حبه واتباع رضاه، قالت: وبين ذنبي وذنبك عند الناس كما بين عماي وعماك في القياس. وقد قال من بيده أزمة الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2].

فصل: فلما سمعت الكبد تحاورهما الكلام، وتناولهما الخصام، قالت: أنتما على هلاكي تساعدتما، وعلى قتلي تعاونتما، ولقد أنصف من حكى مناظرتكما، وعلى لساني متظلمًا منكما:

---

(١) سورة «البقرة» (٦١).

(٢) سورة «الحج»: (٤٦).

يقـول طـرفي لقلـب هجـت سـقما ... والعـين تـزعم أَنَّ القلـبَ أَنْكَاهَـا
والجـسم يـشهد أَنَّ الْعَـيْنَ كاذبـةٌ ... وهـي التـي هَيَّجْـتَ للقلـب بَلْوَاهَـا
لـولا العيـون ومـا يجنـين مـن سـمم ... ما كنـت مطرحًـا مـن بعـض قتلاهـا
فقالـت الكبـد المظلومـة اتئـدا ... قطعـتماني ومـا راقبـتما الله

وقال آخر:

يقـول قلبـي لطـرفي أن بكـى جزعًـا ... تبكـي وأنـت الـذي حَمَّلْتَنِـي الوجعـا
فقـال طـرفي لـه فـيما يعاتبـه: ... بـل أنـت حَمَّلْتَنِـي الآمـال والطمعـا
حتـى إذا مـا خـلا كـل بـصاحبه ... كلاهمـا بطويـل الـسقم قـد قنعـا
نـادتهما كبـدي لا تبعـدا فلقـد ... قطعـتماني بـما لاقيـتما قطعـا

وقال آخر:

عاتبـتُ قلبـي لَـمَّا ... رَأَيْـتُ جـسمي نحـيلا
فَـلَامَ قلبـي طـرفي ... وقـال كنـت الرسـولا
فقـال طـرفي لقلبـي ... بـل كنـت أنـت الـدليلا
فقلـت كفـى جميعًـا ... تـركتماني قتـيلا

ثم قالت: **أنا أتولى الحكم بينكما، أنتما في البلية شريكا عنان، كما أنكما في اللذة والمسرة فرسا رهان، فالعين تلتذ، والقلب يتمنى ويشتهي، ولهذا قال فيكما القائل:**

ولمـا سـلوت الحـب بـشر نـاظري ... لقلبـي فقـال القلـب لي ولـك الهنـا
تخلـصت مـن إحيـاء ليلـك سـاهرًا ... وخلصتني مـن لوعـة الهجـر والـضنا
كلانـا مهنًـا بالبقـاء فـإن تعـد ... فـلا أنـت يبقيـك الغـرام ولا أنـا

وإن لم تدركهما عناية مقلب القلوب والأبصار، وإلا فما لك من قرة ولا للقلب من قرار، قال الشاعر:

فـــوالله مـــا أدري أنفـــسي ألومهـــا ... على الحب أم عيني المشومة أم قلبي

فإن لمت قلبي قال لي العين أبصرت ... وإن لمت عيني قالت الذنب للقلب

فعيني وقلبي قد تقاسمتها دمي ... فيا رب كن عونًا على العين والقلب

قالت: ولما سقيت القلب ماء المحبة بكؤوسك، أو قدت عليه نار الشوق فارتفع إليك البخار، فتقاطر منك فشرقت بشربه أولًا، وشرقت بحر ناره ثانيًا، قال:

خذي بيدي ثم اكشفي الثوب فانظري ... ضنى جسدي لكنني أتستر

وليس الذي يجري من العين ماؤها ... ولكنها روحُ تذوب فتقطر

قالت: والحاكم بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه فإن في الأثر المشهور[1]: لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلائق حتى تختصم الروح والجسد فيقول الجسد للروح: أنت الذي حركتني وأمرتني وصرفتني، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك. فتقول الروح له: وأنت الذي أكلت وشربت وباشرت وتنعمت، فأنت الذي تستحق العقوبة، فيرسل الله سبحانه إليهما ملكًا يحكم بينهما فيقول: مثلكما مثل مقعد بصير وأعمى يمشي، دخلا بستانًا فقال المقعد للأعمى: أنا أرى ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيع القيام، وقال الأعمى: أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر شيئًا، فقال له المقعد: تعال فاحملني فأنت تمشي وأنا أتناول، فعلى من تكون العقوبة؟ فيقول: عليهما، قال: فكذلك أنتما.

* * *

(١) المرجع السابق «الفوائد» بتحقيقي (١٧١-١٧٢).

احذر.. أن تتفق الشُّبْهَةُ والشَّهْوَةُ[١]

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولاسيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشبهات فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ولاسيما إذا قامت له شبهة فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال لي مخرج بالتوبة، وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[٢].

وقال تعالى فيهم أيضًا: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٣].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟ فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون وتارة يقولون عليه ما

---

(١) المرجع السابق – بتحقيقنا (ص/ ١٢٧ - ١٣١).

(٢) سورة «مريم»: (٥٩).

(٣) سورة «الأعراف»: (١٦٩).

يعلمون بطلانه، وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران فإن اتباع الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة.

فهذه آفة العلماء إذا أثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث ﴾[1]. فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذَمِّهِ وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولم يقل تبعه. فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد، والغي: الضلال في العلم والقصد. وهو أخص

(١) سورة «الأعراف»: (١٧٥، ١٧٦).

بفساد القصد والعمل. كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالًا عليه. فهو إن لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خِسَّةِ همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض. وميل بكليته إلى ما هناك. وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض. ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به. قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك ... وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسًا وأبخلها وأشد كلبًا ولهذا سمي كلبًا.

وعاشرها: أنه شَبَّهَ لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها، بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا.

هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الري وحال العطش. فضربه الله مثلًا لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث وذلك أخس ما يكون وأشنعه.

فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة، وأما العابد الجاهل فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه، ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره: احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذلك بِغَيِّهِ يدعو إلى الفجور.

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الحشر: ١٦، ١٧]. وقصته معروفة فإنه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل فأوقعه الشيطان بجهله وكفره بجهله، فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري، وذاك إمام كل عالم فاجر يختار الدنيا على الآخرة.

وقد جعل سبحانه رضا العبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه، ولا يجتمع هذان -أعني: الرضا بالدنيا والغفلة عن آيات الرب- إلا في قلب من لا يؤمن بالمعاد ولا يرجو لقاء رب العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد لما رضي الدنيا ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله.

الصَّبْرُ عن الشَّهْوَةِ أفضل[١]

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إمَّا أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه وإما أن تذهب مالًا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضيع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق.

خُذْ لنفسك نُورًا تَسْتَضِيءُ به

يا بائعًا نفسه بيع الهوان لو استـ ـترجعت ذا البيع قبل الفوات، لم تخب
وبائعًا طيب عيش ما له خطر بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبنًا فاحشًا ولدى يوم التغابن تلقى غاية الحرب
ووارِدًا صفو عيش كله كدر أمامك الورد حقًّا ليس بالكذب
وحاطب الليل في الظلماء منتصبًا لكل داهية تدنى من العطب
ترجو الشفاء بأحذاق بها مرض فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومفنيًا نفسه في إثر أقبحهم وصفًا للطخ جمال فيه مستلب

---

(١) «الفوائد» -لابن قيم الجوزية-رحمه الله- بتحقيقي [ص/ ١٧٧].

وواهبًا نفسه من مثل ذى سَفَهٍ ... لو كنت تعرف قدر النفس لم تهب

شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب ... وضاع وقتك بين اللهو واللعب

وشمس عمرك قد حان الغروب لها ... والفيء في الأفق الشرقي لم يغب

وفاز بالوصل من قد جدَّ وانقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب

كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسل ربك قد وافتك في الطلب

ما في الديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصلب من شكر ولا أرب

فافرش الخد ذياك التراب وقل ... ما قاله صاحب الأشواق والحقب

ما ربع ميةَ محفوفًا يطيف به ... غيلان أشهى له من ربعك الخرب

منازلًا كان يهواها ويألفها ... أيام كان منال الوصال عن كثب

ولا الخدود ولو أدمين من ضرج ... أشهى إلى ناظري من ربعك الخرب

وكلما جليت تلك الربوع له ... يهوى إليها هوى الماء في الصبب

أحْيَا لَهُ الشوق تذكار العهود بها ... فلو ادعى القلب للسلوان لم يجب

هذا وكم منزل في الأرض يألفه ... وما له في سواها الدهر من رغب

ما في الخيام أخو وجد يريحك إن ... بثثته بعض شأن الحب فاغترب

وأسر في غمرات الليل مهتديًا ... بنفحة الطيب لا بالعود والحطب

وعاد كل أخي جبن ومعجزة ... وحارب النفس لا تلقيك في الحرب

وخذ لنفسك نورًا تستضيء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب

فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه ... إلا بنور ينجي العبد في الكرب

* * *

ذَمُّ الهوى والشَّهَوَات

اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد يخلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضب دفاع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار.

ولما كان الغالب من موافق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع، أطلق ذم الهوى والشهوات، لعموم غلبة الضرر، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى في النفس، وإذا فهم تعذر وجود العمل به وندر، مثاله: أن شهوة المطعم إنما خلقت لاجتلاب الغذاء، فيندر من يتناول بمقتضى مصلحته ولا يتعدى، فإن وجد ذلك انغمر ذكر الهوى في حق هذا الشخص، وصار مستعملًا للمصالح، وأما الأغلب من الناس فإنهم يوافقون الهوى، فإن حصلت مصلحة حصلت ضمنًا وتبعًا، فلما كان هذا هو الغالب ذكرت في هذا الباب ذم الهوى والشهوات مطلقًا.

وقد روى عن ابن عباس أنه قال: ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه، وقال الشعبي: إنما سمي هوى، لأنه يهوي بصاحبه.

واعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل ومنع لذاتٍ في الآجل.

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أداه إلى التلف.

فكم أفات الهوى من فضيلة، وكم قد أوقع في رزيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلة أوجبت انكسار جاهٍ وقبح ذكر مع إثم!

غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى[١]!

واعلم أن الهوى يسير بصاحبه في فنون، ويخرجه من دار العقل إلى دائرة الجنون.

وما حرم الله على عباده شيئًا إلا عوضهم خيرًا منه، كما حرم عليهم الاستقسام بالأزلام، وعوضهم منه دعاء الاستخارة، وحرم عليهم الربا وعوضهم منه التجارة الرابحة، وحرم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام، وحرم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن، وحرم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح والتسري بصنوف النساء الحسان، وحرم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثاني، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني، وحرم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات، ومن تلمح هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المردي، واعتاض عنه بالنافع المجدي، وعرف حكمة الله ورحمته وتمام نعمته على عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وفيما أباحه لهم[٢].

* * *

(١) انظر: «ذم الهوى» (ص/ ١٨).

(٢) انظر «روضة المحبين» (ص/ ٢١، ٢٢).

الهوى يهوي بصاحبه[1]

الهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خُلِقَ في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث له، لما يريده، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أن الغضب لا يذم مطلقًا ولا يحمد مطلقًا، وإنما يذم المفرط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر، لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، بل لابد من غلبة أحد الأخلاط والكيفيات عليه، فحرص الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمَّه، وكذلك في السنة لم يجئ إلا مذمومًا.

وقد قيل: الهوى كمين لا يؤمن. قال الشعبي: وسُمِّي هوى لأنه يهوي بصاحبه، ومطلقه يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلًا وآجلًا، فللدنيا عاقبة الآخرة، والهوى يعمى صاحبه من ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهي عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب، ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى، وإن أداه إلى التلف لضعف ناهي العقل عنده، ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أداه إلى هلاكه في الآخرة

---

(١) روضة المحبين (ص/ ٣٦٨-٣٨٠) بتصرف، واختصار، وتحقيق.

لضعف ناهي الدين، ومن لا مروءة له يؤثر ما يهواه وإنْ ثَلَمَ مروءته أو عدمها لضعف ناهي المروءة؟

وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه، وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها. وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لابد لهم منه، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادرًا في الأحيان، غير أن العادة مقتضية ذلك فليقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة، ولو زال عنه دين الهوى لعلم أنه قد سقى من حيث قدر السعادة، واغتم من حيث ظن الفرح، وألم من حيث أراد اللذة، فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نال الحبة ولا هو تخلص مما وقع فيه.

فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

أحدهما: عزيمة حُرٍّ يغار لنفسه وعليها.

الثاني: جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة وخير عيش أدركه العبد بصبره.

الرابع: ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادس: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابع: إيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوِّه وقهره له ورده خاسئًا بغيظه وغمِّه وهمّه حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوَّه ويغيظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (١)، وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (٣)، أي مكانًا يراغم فيه أعداء الله، وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التاسع: التفكر في أنه لم يلق للهوى وإنما هيئ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

العاشر: أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالًا منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أعطي العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره كان حال الحيوان البهيم أحسن منه.

الحادي عشر: أن يسير بقلبه في عواقب الهوى، فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعته في رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذة فَوَّتَتْ لذات، وكم من شهوة كسرت جاهًا، وَنكَّسَتْ رأسًا، وَقبَّحَتْ ذكرًا، وأورثت ذمًّا، وأعقبت ذلًّا، وألزمت عارًا لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوى عمياء (٤).

---

(١) سورة «التوبة»: (١٢٠).

(٢) سورة «الفتح»: (٢٩).

(٣) سورة «النساء»: (١٠٠).

(٤) لأن الهوى يُعمي عن رؤية العيوب، ويصمُّ عن سماع النصيحة.

الثاني عشر: أن يتصور العقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر وما فاته وما حصل له:

فأفضل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يميز لما تجنى عواقبه

الثالث عشر: أن يتصور ذلك في حق غير حق التصور، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

الرابع عشر: أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك. ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إذا أعجب أحدكم بامرأة فليذكر مناتنها، وهذا أحسن من قول أحمدَ بن الحسين:

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

لأن ابن مسعود ﷺ ذكر الحال الحاضرة الملازمة، والشاعر حال على أمر متأخر.

الخامس عشر: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلًّا. ولا يعتز بصولة أتباع الهوى وكبرهم فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذل.

السادس عشر: أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر: أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهرة عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلًا إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد، ومتى أحسَّ منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا اختلاسًا وسرقة.

الثامن عشر: أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصده عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطوف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلًا إلا من باب الهوى، فيسري معه سريان السُّمِّ في الأعضاء.

العشرون: أن الله سبحانه جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلًا لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين؛ أتباع الوحي، وأتباع الهوى، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[2].

الحادي والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى شبَّه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[3]، وبالحمر تارة كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[4] وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

(١) سورة «القصص»: (٥٠).
(٢) سورة «البقرة»: (١٢٠).
(٣) سورة «الأعراف»: (١٧٦).
(٤) سورة «المدثر»: (٥٠، ٥١).

الثاني والعشرون: أن متبع الهوى ليس أهلًا أن يطاع، ولا يكون إمامًا ولا متبوعًا، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [١] أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالمًا، وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٢]، وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [٣].

الثالث والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [٤] بزيادة الفاء بعد همزة الاستفهام، في موضعين من كتابه، قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه. وقال أيضًا: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئًا إلا فعله.

الرابع والعشرون: أن الهوى هو حظار جهنم المحيط بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**حُفّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**» [٥].

الخامس والعشرون: أنه يخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان، وهو لا يشعر، وصح عنه أنه قال: «**أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**».

---

(١) سورة «البقرة»: (١٢٤).

(٢) سورة «الروم»: (٢٩).

(٣) سورة «الكهف»: (٢٨).

(٤) سورة «الفرقان»: (٤٣).

(٥) الحديث: رواه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٧)، ورواه مسلم (٢٨٢٢)، والترمذي (٢٥٥٩)، والدارمي (٢٨٤٣).

السادس والعشرون: أن اتباع الهوى من المهلكات. قال ﷺ: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات: فأما المنجيات: فتقوى الله عز وجل في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوى متبع، وشحٌّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه»[(١)].

السابع والعشرون: أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده، وفي الحديث الصحيح المرفوع: «ليس الشديد بالصُّرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». وكلما تمرن على مخالفة هواه اكتسب قوة إلى قوته.

الثامن والعشرون: أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه.

قال معاوية: ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يزمن المروءة ومخالفته تنعشها.

التاسع والعشرون: أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان في صاحبه، فأيهما قوي على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له. قال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعًا لعمله فيومه يوم صالح.

الثلاثون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أُشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى.

الحادي والثلاثون: أن الهوى داء ودواؤه مخالفته، قال بعض العارفين: إن شئت

(١) الحديث: رواه الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وانظر «الصحيحة» (١٨٠٢).

أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته.

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى: البلاء كله في هواك، والشفاء كله مخالفتك إياه.

الثاني والثلاثون: أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه، قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد! أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك.

قال ابن القيم: وسمعت شيخنا يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم.

الثالث والثلاثون: أن الهوى تخليط ومخالفته حمية، ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه. قال عبد الملك بن قريب: مَرَرْتُ بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر، فقلت: ألا تشتهي شيئًا؟: فقال: بلى ولكن أحتمي، إن أهل النار غلبت شهوتهم حِميتُهُم فهَلكوا.

الرابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا، وقد سدَّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفضيل بن عياض: من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق.

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب، والشهوة، والرغبة، والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلًا غضب فقتل أمه، ورجلًا عشق فتنصَّر، وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها

ثم قال:

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني ... فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت: دع أحدهما تَنَلِ الآخر.

الخامس والثلاثون: أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه.

وقال المعتصم يومًا لبعض أصحابه: يا فلان إذا نصر الهوى ذهب الرأي.

وسمعت رجلًا يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم، سلبه الله معرفة النقد -أو قال نسيه- فقال الشيخ: هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم.

السادس والثلاثون: أن من فسَّح لنفسه في اتباع الهوى ضُيق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليه في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[1] فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة، وقال أبو سليمان الداراني -رحمه الله تعالى- في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.

السابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوش يوم القيامة عن السعي مع الناجين، كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم.

قال محمد بن أبي الورد: إن لله عز وجل يومًا لا ينجو من شره منقاد لهواه، وإن

---

(١) سورة «الإنسان»: (١٢).

العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظًّا من يطالبها بقدر ما صحبه، والعقل معدن، والفكر معول.

الثامن والثلاثون: أن اتباع الهوى يحلُّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدها وتقويها، والعزائم هي مركب العبد الذي يسيره إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوب أوشك أن ينقطع المسافر. قيل ليحيى بن معاذ: من أصح الناس عزمًا؟ قال: الغالب لهواه.

ودخل خلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها: البدر من أحسن الناس وجهًا، فقال له سليمان: كيف ترى هذه الجارية؟ فقال: أصلح الله الأمير ما رأت عيناي أحسن منها قط، فقال له: خذ بيدها، فقال: ما كنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدة عجبه بها، فقال: ويحك! خذها على شدة عجبي بها ليعلم هواي أني له غالب، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول:

لقد حباني وأعطاني وفضلني ... عن غير مسألة منه سليمان

أعطاني البدر خودًا في محاسنها ... والبدر لم يعطه إنس ولا جان

ولست يومًا بناسٍ فضله أبدًا ... حتى يغيبني لحد وأكفان

التاسع والثلاثون: أن مثل راكب الهوى كمثل راكب فرس حديد، صعب جموح، لا لجام له فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريه به أو يسير به إلى مهلك. قال بعض العارفين: أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادي الهلكات. وقال آخر: أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى، وقال عطاء: من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح.

الأربعون: أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولًا. قال الحسن بن علي المطوعي: صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة، وتأمل قول الخليل ﷺ لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[1] كيف تجد مطابقًا للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

الحادي والأربعون: أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته مجلبة لداء القلب والبدن، فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى، لو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه.

الثاني والأربعون: أن أصل العداوة والشر والحسد، والواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح. قال أبو بكر الوراق: إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخُلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها؟!

الثالث والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلًا فأيهما ظهر توارى الآخر، كما قال أبو علي الثقفي: من غلبه هواه توارى عنه عقله، فانظر

(١) سورة «الأنبياء»: (٥٢).

(٢) سورة «الفرقان»: (٤٤).

عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه، وقال علي بن سهل رحمه الله: العقل والهوى يتنازعان، فالتوفيق قرين العقل، والخذلان قرين الهوى، والنفس واقفة بينهما، فأيهما غلب كانت النفس معه.

الرابع والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب ملك الجوارح ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعدتين فالحق والزهد والهدى سلطان وأعوانه الملائكة وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل سلطان وأعوانه الشياطين وجنده وعدته اتباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين، ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوِّه عليه فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوها عدة من قلبها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب.

الخامس والأربعون: أن أعدى عدوٍّ للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوِّه واستأسر له وأشمته به ساء صديقه ووليه، وهذا بعينه هو جَهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

السادس والأربعون: أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه كما قال القائل:

مأرب كانت في الشباب لأهلها ... عذابًا فصارت في المشيب عذابا

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز

والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس، قال أبو علي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته، وقيل للمهلب بن أبي صفرة: بِمَ نلت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه، والنار نهاية من اتبع هواه.

السابع والأربعون: أن الهوى رق في القلب، وغلٌّ في العنق، وقيد في الرِّجل، ومتابعه أسير لكل سيئ الملكة، فمن خالفه عَتَق من رقِّه وصار حرًّا، وخلع الغل من عنقه والقيد من رجله وصار بمنزلة رجل سالم لرجل بعد أن كان رجلًا فيه شركاء متشاكسون.

رُبَّ مستورٍ سبته شهوةٌ ... فتعرى سترة فانهتكا

صاحب الشهوة عبدٌ فإذا ... غلب الشهوة أضحى ملكا

وقال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ ... أن لا يرى لك عن هواك نزوع

العبد عبد النفس في شهواتها ... والحرُّ يشبع تارة ويجوع

الثامن والأربعون: أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه، فهو كمن رغب عن بعرةٍ فأعطي عوضها درة. ومتبع الهوى يفوته من مصالحة العاجلة والآجلة والعيش الهنيء ما لا نسبة لما ظفر به من هواه ألبتة، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حسابًا يسيرًا ثم أمر بي إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حسًّا ولا حركة إِذْ سمعت قائلًا يقول: سفيان بن سعيد، فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يومًا؟ قلت: إي والله فأخذني النثار من كل جانب.

وقال عبد الرزاق: بعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة وقال: إن رأيتم سفيان فاصلبوه، فجاءوا ونصبوا الخشب، وطلب ورأسه في حجر الفضيل فقال له أصحابه: اتق الله عز وجل ولا تشمت بنا الأعداء، فتقدم إلى الأستار ثم أخذها بيده وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر، فمات قبل أن يدخل مكة، فتأمل عاقبة مخالفة الهوى كيف أقامه في هذا المقام.

التاسع والأربعون: أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة، وتذله في الظاهر والباطن، وإذا جمع الله الناس في صعيد واحد نادى منادٍ، ليعلمن أهل الجمع من أهل الكرم اليوم، ألا ليقم المتقون، فيقومون إلى محل الكرامة، وأتباع الهوى ناكسو رؤوسهم في الموقف في حر الهوى وعرقه وألمه، وأولئك في ظل العرش.

الخمسون: أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله[1]، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى.

* * *

(١) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٦٦٠)، ومسلم في «صحيحه» (٧١٥).

مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة

عشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما ذكره ذاكر، فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد ثغر التوحيد.

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام حتى إن كثيرًا من الناس يصبر على الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالًا، بل يحمد.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابًا، وشهوة الشاب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبًا ليس له زوجة ولا سرية تكسر قوة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه بين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا أبية، فإن كثيرًا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس

يزيده الإباء والامتناع إرادة وحبًّا، كما قال الشاعر:

وزادني كلفًا في الحب أن منعت ... أحب شيء إلى الإنسان ما مُنعا

فطباع النفس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ويضمحل عند إبائها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع المرأة أو سريته وإبائها، بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره اللذات بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها. بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقًا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي.

كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد وطول السواد، تعني قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن، لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[١].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن ووقع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وللمرأة: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[٢]، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه[٤].

مَا فُتِنَ بِهِ الْعُشَّاقُ[٥]

وتلك لعمر الله الفتنة الكبرة، والبلية العظمى، التي استعبدت النفوس لغير خلاقها، وملكت القلوب لمن يسيمها الهوان من عشاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد، فصيرت القلب للهوى

---

(١) سورة «يوسف»: (٣٣).

(٢) سورة «يوسف»: (٢٩).

(٣) سورة «يوسف»: (٣٣).

(٤) انظر الجواب الكافي (ص/ ٢٣٣- ٢٣٥) بتحقيقي.

(٥) انظر «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» -لابن قيم الجوزية- (٢/ ١٠٨، ١٠٩) بتحقيقي- ط المنار، وفياض.

أسيرًا، وجعلته عليه حاكمًا وأميرًا، فأوسعت القلوب محنة، وملأتها فتنة، وحالت بينها وبين رشدها، وصرفتها عن طريق قصدها، ونادت عليها في سوق الرقيق فباعتها بأبخس الأثمان، وإعاضتها بأخس الحظوظ وأدنى المطالب عن العالي من غرف الجنان، فضلًا عما هو فوق ذلك من القرب من الرحمن، فسكنت إلى ذلك المحبوب الخسيس، الذي ألمها به أضعاف لذتها، ونيله والوصول إليه أكبر أسباب مضرتها، فما أوشكه حبيبًا يستحيل عدوًّا عن قريب، ويتبرأ منه محبه لو أمكنه حتى كأن لم يكن له حبيب، وإن تمتع به في هذه الدار فسوف يجد به أعظم الألم بعد حين، لا سيما إذا صار الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوًّا إلا المتقين[1].

فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس، وشهوة عاجلة، ذهبت لذتها، وبقيت تبعتها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة، وبقيت الشقوة، وزالت النشوة، وبقيت الحسرة، فوارحمتاه لصبٍّ جمع له بين الحسرتين: حسرة فوت المحبوب الأعلى والنعيم المقيم، وحسرة ما يقاسيه من النصب في العذاب الأليم، فهناك يعلم المخدوع أي بضاعة أضاع، وإن من كان مالك رقه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والأتباع، فأي مصيبة أعظم من مصيبة ملك أُنزل عن سرير ملكه، وجُعِلَ لمن لا يصلح أن يكون مملوكه أسيرًا، وجعل تحت أوامره ونواهيه مقهورًا، فلو رأيت قلبه وهو في يد محبوبه لرأيته كعصفور في كف طفل يسومها حياض الردى، والطفل يلهو ويلعبّ.

ولو شاهدت حاله وعيشه لقلت:

وما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيًا في كل حينٍ ... مخافة فرقة، أو لاشتياق

---

(١) من قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ -سورة «الزخرف»: (٦٧).

فيبكـــي إن نـــأوا، شـــوقًا إلـــيهم ويبكـــي إن دنـــوا، حـــذر الفـــراق

ولو شاهدت نومه وراحته، لعلمت أن المحبة والمنام تعاهدا وتحالفا أن ليس يلتقيان ولو شاهدت فيض مدامعه، ولهيب النار في أحشائه لقلت:

سـبحان رب العـرش مـتقن صـنعه ومؤلـــف الأضـــداد دون تعانـــد

قطـر تولـد عـن لهيـب في الحـشا مـــاء ونـــار في محـــل واحـــد

ولو شاهدت مَسْلَكَ الحب في القلب وتغلغله فيه، لعلمت أن الحب ألطف مسلكًا فيه من الأرواح في أبدانها، فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا الملك المطاع لمن يسومه سوء العذاب، ويوقع بينه وبين وليه ومولاه الحق الذي لا غناء له عنه ولا بد له منه أعظم الحجاب؟ فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل، إن دعاه لباه، وإن قيل له: ما تتمنى؟ فهو غاية ما يتمناه، لا يأنس ولا يسكن إلى سواه، فحقيق به أن لا يملك رقه إلا لأجل حبيب، وأن لا يبيع نصيبه منه بأخس نصيب.

أَضْرَارُ الْعِشْقِ[1]

وأما ضرر العشق في الدنيا: فإنه يورث الهم الدائم، والفكر اللازم، والوسواس، والأرق، وقلة المطعم، وكثرة السهر، ثم يتسلط على الجوارح، فتنشأ الصفرة في البدن، والرعدة في الأطراف، واللجلجة في اللسان، والنحول في الجسد، فالرأي عاطل والقلب غائب في تدبير مصلحته والدموع هواطل والحسرات تتابع والزفرات تتوالى والأنفاس لا تمتد، والأحشاء تضطرم فإذا غشي على القلب إغشاء تامًّا أخرجت إلى الجنون، وما أقربه حينئذٍ من التلف، هذا وكم يجني من

(١) انظر «ذم الهوى» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص/ ٢٥٢).

جناية على العرض، ووهن الجاه بين الخلق، وربما أوقع في عقوبات البدن وإقامة الحد وقد أنشدوا:

وما عاقل في الناس يحمد أمره ... ويذكر إلا وهو في الحب أحمق

وما من فتىً ذاق بؤس معيشة ... من الناس إلا ذاقها حين يعشق

قال جالينوس: العشق من فعل النفس، وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاثة مساكن: مسكن للتخيل وهو في مقدم الرأس، ومسكن للفكر وهو في وسطه، ومسكن للذكر وهو في مؤخره، ولا يسمى عاشقًا إلا من إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيله، فيمتنع عن الطعام والشراب باشتغال الكبد، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والفكر والذكر فتكون جميع النفس قد اشتغلت به.

نماذج مِمَّن أَضَرَّ بهم الْعِشْقُ[1]

مَرَّ عمرو بن مناة الخزاعي، بليلى الخزاعية، وهي تحت أراكة ومعها نسوة من قومها، وكان عمرو معروفًا بحسن الحديث، ورقة الشعر، فقال له النسوة، هلم فحدثنا، فجلس يحدثهن، فرأى ليلى بنت عيينة، فعلقها وتزايد الأمر به، فهام حتى كان لا ينام إلا حيث يرى بيوت أهلها، وإلا لم ينم، وأخذته الوسوسة، وفقد عقله، وكان لا يهدى إلا بذكرها، وقال فيها أشعارًا كثيرة، فمن قوله فيها:

توسد أحجارًا ودقعاء بائتًا ... مبيت عسيق الحي غير المكرم

أرى بيت حين أغلق بابه ... ألذ وأشهى من مهادٍ مقدم

عن عبد الله بن همام، قال: خرجت أريد بعض الحوائج، فإذا أنا بابن أبي مالك،

(١) ذم الهوى (٢٦٦- ٢٧٠)، (٢٧٧، ٢٧٨)، (٣٥٥- ٣٦٠) بتصرف، واختصار، وتهذيب.

وهو قاعد في الصحراء بين الحيرة والكوفة، فقلت: ما تصنع ههنا؟ فقال: أصنع ما كان صاحبنا يصنع، فقلت: ومن صاحبكم؟ قال مجنون بني عامر صاحب ليلى.

قال: وإلى جانبه حجر، فتناوله، وعدا خلفي، فتجاوزني الحجر، وعدت فقعدت بعيدًا منه، قال: فقال لي: والله ما أحسن، ولا أجمل حيث يقول:

علقتك إذ عيني عليها غشاوة ... فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

ما له لم يقل كما قلت:

رماني الهوى منه بأعظم شجوة ... وعسكر حولي الهجر دون حبيبي

فصبرٌ لعلَّ الدهر يجمع بيننا ... بإلف حبيب أو بموت رقيب

قال: ثم قال: ألا تقول ما هو أحسن من هذا: لا إله إلا الله الواحد الأحد خلق فقدر، وحكم فعدل.!

وعن العباس بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري قال: حدثني أبي، قال: سمعت عبد الله بن إدريس يقول: رأيت ابن أبي مالك جالسًا في موضع قد كان فيه رماد، ومعه قطعة جص يخطط بها، ويستبين بياض الجص في سواد الرماد، قال: قلت له: يا ابن أبي مالك: ما تصنع؟ قال: ما كان صاحبنا يصنع -يعني مجنون بني عامر- قال: قلت: وما كان يصنع؟ قال: سمعته يقول:

عشية مالي حيلة غير أنني ... بلقط الحصا والخط في الدار مولع

أخط وأمحو فيه ما قد خططته ... بدمعي والغربان في الدار وقع

قلت: ما سمعته، قال: فتضاحك ثم قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، أفسمعته أو رأيته يا ابن إدريس؟! هذا كلام العرب.

وعن محمد بن أبي نصر الأزدي قال: رأيت بالبصرة مجنونًا، قاعدًا على ظهر الطريق بالمربد، وكلما مَرَّ به ركب قال:

ألا أيها الركب اليما نون عرجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا

لنسألكم هل سال نعمان بعدنا ... فحب إلينا بطن نعمان واديًا

قال: فسألت عنه، فقيل: هذا رجل من البصرة، كانت له ابنة عم، وكان يحبها، فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها، فاستوله عليها.

* وعن محمد بن زناد الأعرابي، قال: رأيت بالبادية أعرابيًّا في عنقه تمائم، وهو عريان وعلى سوأته خرقة، وفي رجله حبل، وخلفه عجوز تمسكه بطرف الحبل، وإذا هو يعض ذراعيه، فقلت للعجوز من هذا؟ فقالت ابن ابنتي، فقلت لها: ما حاله؟ أبه مَسٌّ من الجن؟ قالت: لا والله، لكنه نشأ وابنة عم له في مكان واحد، فعلقها وعلقته، فحبسها أهلها عنه، ومنعوها منه، فزال عقله، وصار إلى ما ترى، فقلت لها: ما اسمه؟ فقالت: عكرمة، فقلت: أيا عكرمة: ما أصابك، فقال:

أصابني داء قيس ... وعروة وجميل

فالجسم مني نحيل ... وفي الفؤاد غليل

قال: فتركته ومضيت.

* وعن عباس بن عبيدة قال: كان بالمدينة جارية ظريفة حاذقة بالغناء، فهويت فتى من قريش، فكانت لا تفارقه، ولا يفارقها، فملها الفتى وتزايدت هي في محبته، وأسفت، وغارت، وولهت، وجعل مولاها لا يعبأ بذلك ولا يرق لشكواها، فتفاقم الأمر بها، حتى هامت على وجهها، ومزقت ثيابها، وضربت من لقيها، فلما رأى مولاها ذلك عالجها فلم ينجع فيها العلاج، وكانت تدور بالليل

في السكك بعد الطوف، فلقيها مولاها ذات يوم في الطريق، ومعه أصحاب له فجعلت تبكي وتقول:

الحب أول ما يكون لحاجة ... تأتي به وتسوقه الأقدار

حتى إذا اقتحم الفتى لج الهوى ... جاءت أمور لا تطاق كبار

قال:فما بقي أحد إلا رحمها، فقال لها مولاها: يا فلانة، امضي معنا إلى البيت فأبت وقالت: شغل الحلي أهله أن يعارا.

قال:وذكر بعض من رآها ليلة وقد لقيتها مجنونة أخرى، فقالت لها: يا فلانة كيف أنت؟ فقالت: كما لا أحب، فكيف أنت من ولهك وحبك؟ فقالت: على ما لم يزل يتزايد على مر الأيام، قالت لها: فغني بصوت من أصواتك، فإني قريبة الشبه بك، فأخذت قصبة توقع بها وغنت:

يا من شكا ألمًا للحب شبهه ... بالنار في القلب من حزن وتذكار

إني لأعظم ما بي أن أشبهه ... شيئًا يقاس إلى مثل ومقدار

لو أن قلبي في نار لأحرقها ... لأن أحزانه أزكى من النار

قال:ثم مضت.

* وعن محمد بن قيس العبدي قال:إني لبمزدلفة بين النائم واليقظان، إذ سمعت بكاء حرقًا ونفسًا عاليًا، فاتبعت الصوت، فإذا جارية كأنها الشمس حسنًا، ومعها عجوز؛ فلططت بالأرض، ألاحظها، وأمتع عيني بحسنها، فسمعتها تقول:

دعوتك يا مولاي سرًّا وجهرة ... دعاء ضعيف القلب عن محمل الحب

بليت بقاسي القلب لا يعرف الهوى ... وأقتل خلق الله للهائم الصب

فإن كنت لم تقض المودة بيننا ... فلا يخل من حب له أبدًا قلبي

رضيت بهذا ما حييت فإن أمت فحسبي ثوابًا في المعاد به حسبي

قال: وجعلت تردد هذه الأبيات وتبكي فقمت إليها وقلت: بنفسي أنت مع هذا الوجه وهذا الجمال يمتنع عليك من تريدين؟! قالت: نعم والله والله يفعل هذا تَصبُّرًا، وفي قلبه أكثر مما في قلبي. قلت: فإلى كم البكاء؟ قالت: أبدًا، أو يصير الدمع دمًا، وتتلف نفسي غمًّا قلت: إن هذه آخر ليلة من ليالي الحج، فلو سألت الله عز وجل التوبة مما أنت فيه، رجوت أن يذهب حبه من قلبك.

قالت: يا هذا، عليك بنفسك في طلب رعيتك، فإني قد قدمت رعيتي إلى من لا يجهل بغيتي، وحولت وجهها عني، وأقبلت على بكائها وشعرها، ولم يكن بها قولي ووعظي.

* وعن عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال: قرأت في سيرة العجم أن أردشير لما استوثق له أمره، وأقر له بالطاعة ملوك الطوائف، حاصر ملك السريانية وكان متحصنًا في مدينة يقال لها الخصر، فحاصره فلم يقدر على فتحها، حتى رقت بنت الملك يومًا على الحصن فرأت أردشير فهويته فنزلت فأخذت بنشابة، فكتبت عليها: إن أنت شرطت لي أن تتزوجني دللتك على موضع تفتح به المدينة بأيسر الحيلة وأخف المؤنة، ثم رمت بالنشابة نحو أردشير فقرأها وأخذ نشابة فكتب عليها: لك الوفاء بما سألتني، ثم ألقاها إليها، فدلته على الموضع فأرسل إليها فافتتحها، فدخل وأهل المدينة غارون لا يشعرون، فقتل الملك وأكثر القتل فيها وتزوجها فبينما هي ذات ليلة على فراشه أنكرت مكانها حتى سهرت أكثر ليلتها، فقال لها: مالك؟ قالت: أنكرت فراشي، فنظروا تحت الفراش، فإذا تحته طاقة آس قد أثرت في جلدها، فتعجب من رقة بشرتها، فقال لها: ما كان أبوك يغذيك؟ قالت: كان أكثر غذائي عنده الشهد والمخ والزبدة.

فقال لها: ما أحد بالغًا منك في الحباء مبلغ أبيك، وإن كان جزاؤه عندك على جهد إحسانه مع لطف قرابته وعظم حقه، إساءتك إليه. ما أنا بآمن مثل ذلك منك، ثم أمر بأن تعقد قرونها بذنب فرس شديد الجرح جموح، ثم يجري، ففعل ذلك بها حتى تساقطت عضوًا عضوًا.

وعن الهيثم قال: حدثني رجل من بجيلة، عن مشيخة قومه، أن عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، رأى المرأة من تيم الرباب، يقال لها قطام وكانت من أجمل النساء، ترى رأى الخوارج، قد قتل قومها على هذا الرأي يوم النهروان، فلما أبصرها عشقها فخطبها فقالت: لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف، وقتل علي بن أبي طالب، فتزوجها على ذلك، فلما بنى بها قالت له يا هذا قد فرغت فافرغ، فخرج متلبسًا سلاحه، وخرجت قطام، فضربت له قبة في المسجد، وخرج علي يقول: الصلاة الصلاة، فأتبعه عبد الرحمن فضربه بالسيف على قرن رأسه، فقال الشاعر:

لم أر مهرًا ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام بينا غير معجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وقتل علي بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وعن أبي القاسم بهلول بن أبي طالب القاضي بباب الشام، قال: كنت أعمل مع صاحب الشرطة ببغداد فأخرج لصوص من الحبس، واستأذن معز الدولة في قتلهم وصلبهم عند الجسر، فأذن لهم فصلبهم عشاء وكانوا عشرين رجلًا ووكل بهم جماعة، فكنت فيهم، والرئيس علينا فلان، وقالوا: كنا عند خشبهم بقية يومكم وليلتكم، حتى إذا كانوا من غد ضربت أعناقهم. فبتنا ونمنا فاحتال بعض اللصوص في أن قطع الحبل ونزل من الخشبة فما انتبهنا إلا من صوت وقوعه

وعدوه فعدا رئيسنا وأنا خلفه، فما لحقناه، وخفنا أن يتشوش الرجالة الباقون فيفلت إنسان آخر، فرجعنا مسرعين وجلسنا مغمومين نفكر ماذا نعمل، فقال رئيسنا إن صاحب الشرطة لا يقبل عثرة ولا يقبل عذرًا، ويقع له أنني قد أخذت من اللص مالًا وأطلقته، فيضربني للتقرير فلا أقر، فيقع له أني أجلد فيمر الضرب علي إلي أن أتلف، فما الرأي؟

فقلت له: نهرب. قال فمن أين نعيش؟ فقلت: هذا نصف الليل، ولم يعلم بما جرى أحد، فقد سلمت إلينا عشرين رجلًا وهؤلاء عشرون، فإنه ما أثبت حلاهم.

فقال: هذا صواب، فقمنا نطوف، وسلكنا طريق الجسر لنعبر إلى الجانب الغربي فرأينا في أسفل كرسي الجسر رجلًا يبول، فعدلنا إليه، فقبضنا عليه فصاح يا قوم ما لكم أنا ملاح صعدت من سميريتي أبول، وهذه سميريتي، وأومأ إليها، أي شيء بيني وبينكم؟ فضربنا وقلنا: أنت اللص الذي هرب من الخشبة، وجئنا به ورقيناه إلى الخشبة وصلبناه مكان الهارب، وهو يصيح طول الليل ويبكي، فتقطعت له قلوبنا رحمة له، وقلنا مظلوم ولكن ما الحيلة! فلما كان من الغد ركب صاحب الشرطة، واجتمع الناس، وجاء ليضرب أعناق القوم، فصاح به الملاح: بوقوفك بين يدي الله داع بي واسمع كلامي، فلست من اللصوص الذين أخرجتهم وأمرت بصلبهم، وأنا مظلوم وقد وقعت بي حيلة، فأنزله وقال: ما قصتك؟ فشرح له حديثه على حقيقته، فدعا بنا وقال ما هذا الرجل؟ فقلنا: ما نعرف ما يقول؟ سلمت إلينا عشرين رجلًا وهؤلاء عشرون. فقال: قد أخذتم من اللص دراهم وأطلقتموه واعترضتم من الطريق رجلًا غريبًا فأخذتموه. فقلنا ما فعلنا هذا، واللص الذي سلمت إلينا هو هذا، فضرب أعناق الجماعة وترك

الملاح، وقال: هاتوا السجانين والبوابين، فجاؤوا، فقال هذا من جملة العشرين الذين أخرجناهم؟ فتأملوه بأجمعهم، فقالوا: لا.

ففكر ثم أمر بإطلاقه، ثم قال هاتوه إليَّ، فرددناه، فقال: اشرح لي قصتك فأعاد عليه الحديث، فقال له: في نصف الليل أيش كنت تعمل في ذلك الموضع؟ فقال: كنت قد بِتُّ في سميريتي فأخذتني بولة فصعدت أبول، قال ففكر ساعة ثم قال له اصدقني أمرك على الحقيقة حتى أطلقك، وأي شيء كنت تعمل هناك، حتى أطلقك؟! فلم يخبره بغير ذلك. قال: وكان في رسمه أنه إذا أراد يقرر إنسان قرره وهو قائم بين يديه، ووراءه جماعة بمقارع، فإذا حَكَّ رأسه ضرب المقرر واحدة عظيمة، فيقول هو للذي ضربه: قطع الله يديك ورجليك يا فاعل يا صانع، من أمرك بضربه؟ ولم ضربته؟ تقدم يا هذا لا بأس عليك، اصدق وقد نجوت. فإن أقر وإلا حَكَّ رأسه ثانية وثالثة، أبدا على هذا، وكذا كانت عادته في جميع الجناة!

فلما أطال عليه الملاح، حَكَّ رأسه فضرب قفاه بعض القائمين بمقرعة عظيمة، فصاح صياحًا شديدًا، فقال هو: من أمرك بهذا؟ يا فاعل يا صانع قطع الله يديك. ثم قال للملاح: اصدق وانج بنفسك، فقال له الملاح: الله شاهد عليك، أني آمن على نفسي وأعضائي حتى أصدق؟ قال له نعم.

فقال: أنا رجل ملاح أعمل في المشرعة الفلانية، يعرفني جيراني بالستر، كنت قد سرحت سميريتي البارحة بعد العتمة أتفرج في القمر، فنزل خادم من دار لا أعرفها، فصاح: يا ملاح، فتقدمت، فسلم إلي امرأة حسنة ومعها صبيتان، وأعطاني درهمًا صحيحًا، وقال: احمل هؤلاء إلى باب الشماسية، فصاعدت بهم قطعة من الطريق، فكشفت المرأة عن وجهها، فإذا هي من أحسن الناس وجهًا

كالقمر، فاشتهيتها فعلقت مجاديفي في الدرنوك، وأخرجت السفينة إلى وسط دجلة، وتقدمت إلى المرأة فراودتها عن نفسها فأخذت تصيح، فقلت: والله لئن صحت لأغرقنك الساعة. فسكتت وأخذت تمانعني عن نفسها، فاجتهدت بأن أقدر عليها فما قدرت.

فقلت لها: من هاتان الصبيتان منك؟ فقالت: بناتي، فقلت لها: أيما أحب إليك؟ تمكنيني من نفسك أو أغرق هذه؟ وقبضت على واحدة منهما. فقالت: أما أنا فلا أطيعك فاعمل ما شئت، فرميت إحدى الصبيتين في الماء، فضربت فاها وصحت معها: والله لا أطلقتك ولو قتلتيني، ليشتبه ذلك على من عساه يسمع الصياح في الليل، فسكتت وأقبلت تبكي، فتركتها ساعة، ثم قلت لها: دعيني وإلا أغرقت الأخرى. فقالت: والله لا فعلت، فأخذت الصبية الأخرى، فرميت بها إلى الماء، فصاحت وصحت معها، ثم قلت لها: ما بقي إلا أن أقتلك أنت، فدعيني وإلا قتلتك، وأخذتها ورفعت يديها لأرمي بها إلى الماء فقالت: أدعك. فرددتها إلى السميرية، فمكنتني من نفسها فوطأتها، وَسِرْتُ لأمضي بها إلى المشرعة، فقلت: هذه الساعة تصعد إلى دارها وإلى الموضع الذي تأوي إليه، فتنذر بي فَأُوخَذُ وأُقْتَلُ، وليس الوجه إلا إغراقها، فجمعت يديها ورجليها ورميت بها في الماء فغرقت، ففكرت فيما ارتكبته وما جنيته فندمت، وكنت كرجل كان سكرانًا فأفاق، فقلت: أي شيء أعمل؟ ليس إلا أن أنحدر في سميرتي هذه إلى البصرة وأغوص في أنهارها، فلا أعرف، فانحدرت، فلما صرت حذاء الجسر أخذتني بطني، فصعدت لأتمسح وأعود إلى سميريتي، فقبض عَلَيَّ هؤلاء، فقال له صاحب الشرطة متطايًا، فأي معاملة بين مثلك وبيني، انصرف بسلام! فظن بجهالته أن ذلك حقيقة، فولى يمشي لينصرف، فصاح به: يا فتى، مثل هذا.

فرجع، فقال: خذوه فأخذوه، فقال: اقطعوا يده. فقال: يا سيدي تقطع يدي؟! أليس قد أمنتني؟ فقال: يا كلب أمان لمثلك؟! قد قتلت ثلاثة أنفس وزنيت، وأخفت السبيل. قال: فقطعت يداه ورجلاه، ثم ضربت عنقه، وأحرق جسده في مكانه[(١)].

* وأُتِي عمر بن الخطاب يومًا بفتى أمرد قد وجد قتيلًا على وجه الطريق، فسأل عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل، فشق ذلك على عمر، وقال: اللهم أظفرني بقاتله، حتى إذا كان رأس الحول أو قريبًا من ذلك، وجد مولود ملقى بموضع القتيل فأتى به عم، فقال: ظفرت بدم القتيل إن شاء الله، فدفع الصبي إلى امرأة وقال لها: قومي بشأنه وخذي منا نفقته، وانظري من يأخذه منك، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه على صدرها فأعلميني بمكانها، فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة: إن سيدتي بعثتني إليك لتبعثي بالصبي لتراه وترده إليك، فقالت: نعم اذهبي به إليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها، فلما رأته أخذته فقبلته وضمته إلى صدرها، فإذا هي بنت شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، فأخبرت عمر خبر المرأة، فاشتمل عمر على سيفه، ثم أقبل إلى منزلها فوجد أباها على باب داره، فقال: يا أبا فلان، ما فعلت ابنتك فلانة؟ قال: يا أمير المؤمنين جزاها الله خيرًا هي من أعرف الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها، فقال عمر: قد أحببت أن أدخل إليها فأزيدها رغبة في الخير، وأحثها على ذلك. فقال: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين، امكث مكانك حتى أرجع إليك، فاستأذن لعمر، فلما دخل عمر أمر كل من كان عندها فخرج، وبقيت هي وعمر في البيت وليس

(١) انظر «ذم الهوى» مرجع سابق (ص/ ٣٥٨- ٣٦٠).

معهما أحد، فكشف عن السيف وقال: لتصدقيني، وكان عمر لا يكذب. فقالت: على رسلك يا أمير المؤمنين والله لأصدقن، إن عجوزًا كانت تدخل عليَّ فاتخذتها أمًّا وكانت تقوم من أمري ما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت فأمضت بذلك حينًا، ثم إنها قالت: يا بنية إنه قد عرض لي سفر ولي بنت في موضع أتخوف عليها فيه أن تضيع، وقد أحببتُ أن أضمها إليك حتى أرجع من سفري.

فعمدت إلى ابن لها شاب أمرد فهيأته كهيئة الجارية لا أشك أنه جارية؛ فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية، حتى أغفلني يومًا وأنا نائمة، فما شعرت حتى علاني، وخالطني فمددتُ يدي إلى شفرة كانت إلى جنبي فقتلته، ثم أمرت به فألقي حيث رأيت، فاشتملت منه علي هذا الفتى، فلما وضعته ألقيته في موضع أبيه فهذا والله.

فقال عمر: صدقت بارك الله فيك ثم أوصاها ووعظها ودعا لها، وقال لأبيها: بارك الله لك في ابنتك فنعم الابنة ابنتك، فقال الشيخ: وصاك الله يا أمير المؤمنين وجزاك الله خيرًا من رعيتك [١].

ومن ضحايا العشق

كعب بن مالك الشاعر

وهو كعب بن مالك الشاعر الملقب بالمخبل، وهو من بني لؤي بن شماس، وكان عنده ابنة عم له يقال لها: أم عمرو، وكان لها مائلًا، وبها معجبًا، فنظر إليها متجردة من ثيابها، فقال لها: يا أم عمرو، هل تعرفين أجمل منك وأكمل؟

قالت: نعم أختي ميلاء، قال لها: فإني أشتهي أن أراها. فقالت: إن علمت

(١) ذم الهوى (ص/ ٣٧٤، ٣٧٥).

بمكانك لم تجئ، ولكني أحتال وأحضرها، ففعلت ذلك، فلما حضرت ورآها علقها وغلبت على قلبه، ووجدت هي به كوجده بها.

فأخبرت أم عمرو بشأنهما، وصادفتهما وهما يتحدثان، فانصرفت إلى إخوتها وهم سبعة، فقالت: إما أن تزوجوا هذا الرجل من ميلاء، وتفرقوا بيني وبينه، وإما أن تغيبوها عني، فلما وقف على ذلك، هرب إلى الشام، وأنشأ يقول:

أفي كل يومٍ أنت من بارح الهوى ... إلى الشم من أعلام ميلاء ناظر

وكان مقيمًا بالحجاز، فروى هذا البيت رجل من أهل الشام، ثم خرج إلى الحجاز لحاجة له، فاجتاز بأم عمرو وميلاء، فاستدلَّ أم عمروٍ على الطريق، فقالت: يا ميلاء صفي له الطريق، فلما سمع ذكر ميلاء ذكر الأعرابي وأنشد البيت الذي أخذه عنه، فارتاحت ميلاء ورحَّبَتْ بالرجل، وقالت له: اجلس حتى يجيء إخوتي فيكرموك، ويوقفوك على الطريق، فلما جاؤوا وأخبرتهم ميلاء بما سمعت منه، وقد كانوا يحبون أن يعرفوا خبر كعب فعرفهم أنه نزل عليه، وسمع هذا الشعر منه وشعرًا آخر، فقالوا: أنشدناه فأنشدهم:

خليليَّ قد رُضْت الأمور وقستها ... بِنَفْسِي وبالفتيان كل مكان

فلم أخف لومًا للصديق ولم أجد ... خليًّا ولا ذا البثِّ يستويان

من الناس إنسانان ديني عليهما ... مليان لولا الناس قد قضياني

منوعان ظلامان لا ينصفانني ... بد لهما والحسن قد خلباني

خليليَّ أما أم عمرو فمنهما ... وأما عن الأخرى فلا تسلاني

بلينا بهجرانٍ ولم نر مثلنا ... من الناس إنسانين يهتجران

أشد مصافاة وأبعد عن قلي ... وأعصى لواشٍ حين يكتنفان

يبين طرفانا الذي في ضميرنا ... إذا استعجمت بالمنطق الشفتان

فوالله ما أدري أكل ذوي الهوى ... على ما بنا أم نحن مبتليان

وكنا كريمي معشرٍ حُمَّ بيننا ... هوى فحفظناه بكل صيان

نذود النفوس الحائمات عن الهوى ... وهُنَّ بأعناق إليه ثوان

فأكرموا الرجل، ووقفوه على الطريق، وخرجوا إلى الشام إلى كعب بن مالك فأقدموه، فلما دخل الحيَّ جلس ناحية فرأى مجمعًا للحي وغُلَيِّمًا، فدعا الغليم فقال له: من أبوك؟ فقال كعب بن مالك، وقد كان خلف ابنه صغيرًا فعرفه، فقال: ما هذا الجمع؟

فقال: لخالتي ميلاء ماتت الساعة، فراعه ذلك وقام منه وقعد، وشهق شهقة فمات، فدفنت ميلاء ثم دفن إلى جانب قبرها[1].

من ضحايا العشق

وضاح اليمن

عن أبي مسهر رحمه الله قال:

كان وضاح اليمن نشأ هو وأم البنين صغيرين، فأحبها وأحبته، وكان لا يصبر عنها، حتى إذا بلغت حجبت عنه، فطال بهما البلاء، فحج الوليد بن عبد الملك فبلغه جمال أم البنين وأدبها، فتزوجها ونقلها إلى الشام.

قال: فذهب عقل وضاح عليها، وجعل يذوب وينحل، فلما طال عليه البلاء ذهب إلى الشام، فجعل يطوف بقصر الوليد بن عبد الملك كل يوم، لا يجد حيلة حتى رأى يومًا جارية صفراء، فلم يزل حتى أنس بها.

(١) انظر «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون (٦/ ١٥٤).

فقال لها: هل تعرفين أم البنين.

فقالت: إنك تسأل عن مولاتي، فقال: إنها لابنة عمي، وإنها لتسر بمكاني وبموضعي، فلو أخبرتها، قالت إني أخبرها.

فمضت الجارية فأخبرت أم البنين، فقالت: ويلك أوحَيٌّ هو؟ قالت: نعم. قالت: قولي له: كن مكانك حتى يأتيك رسولي، فلن أدع الاحتيال لك، فاحتالت إلى أن أدخلته إليها في صندوق فمكث عندها حينًا، فإذا أمنت أخرجته فقعد معها، وإذا خافت عين الرقيب أدخلته الصندوق فأهدي للوليد بن عبد الملك يومًا جوهر، فقال لبعض خدمه: خذ هذا الجوهر فامض به إلى أم البنين، وقل لها: أهدي هذا إلى أمير المؤمنين، فوجه به إليك، فدخل الخادم من غير استئذان ووضاح معها، فلمحه ولم تشعر أم البنين، فبادر إلى الصندوق فدخله، فأدى الخادم الرسالة إليها، وقال لها:

هبي لي من هذا الجوهر حجرًا؟ فقالت: لا أم لك، وما تصنع أنت بهذا؟!

فخرج وهو عليها حنق، فجاء الوليد فأخبره الخبر، ووصف له الصندوق الذي رآه دخله، فقال له: كذبت لا أم لك، ثم نهض الوليد مسرعًا فدخل إليها، وهي في ذلك البيت، وفيه صناديق عداد.

فجاء حتى جلس على ذلك الصندوق الذي وصف له الخادم، فقال لها: يا أم البنين، هبي لي صندوقًا من صناديقك هذه؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، هي وأنا لك.

فقال: لا أريد غير هذا الصندوق الذي تحتي. قالت: يا أمير المؤمنين، إن فيه شيئًا من أمور النساء، قال: ما أريد غيره. قالت: هو لك.

فأمر به فحمل، ودعا بغلامين فأمرهما بحفر بئر، فحفرا حتى إذا بلغ الماء وضع

فمه على الصندوق وقال: أيها الصندوق: إنه قد بلغنا عنك شيء، فإن كان حقًّا فقد دفنا خبرك ودرسنا أثرك، وإن كان كذبًا فما علينا في دفن صندوق من خشب حرج.

ثم أمر به فألقي في الحفرة، وأمر بالخادم فقذف في ذلك المكان فوقه، وطم عليهما جميعًا التراب.

قال: فكانت أم البنين توجد في ذلك المكان تبكي، إلى أن وجدت فوقه مكبوبة على وجهها ميتة[1].

من ضحايا العشق

قيس بن الملوح

هو قيس بن الملوح، وقد اختلف العلماء بالأنساب في اسمه، ونسبه وهو الذي قتله الحب في ليلى بنت مهدي العامرية.

وقد أنكر بعضهم وجوده، وهذا غلط، فإن اشتهار عشقه لليلى أشهر من أن يخفى، وأثبته علماء السير، فأما ليلى فهي بنت مهدي من بني ربيعة، وكانت من أجمل النساء شكلًا وأدبًا.

وقد بدأ أمرهما في الصغر فإنهما كانا صغيرين يرعيان أغنامًا لقومهما، فعلق كل منهما بصاحبه، ولم يزالا على ذلك حتى كبرا، واشتهر أمرهما، فحجبت عنه فزال عقله، فقال:

تعلقت ليلى وهي ذات دؤابة ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم ياليت لنا ... إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

(١) انظر «ذم الهوى» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص/ ٢٩٥ - ٢٩٩).

فاشتد شغفه بها حتى وسوس وتخبل في عقله، فقال:

إني لأجلس في النادي أحدثهم ... فأستفيق وقد غالتني الغول

يهوى بقلبي حديث النفس نحوكم ... حتى يقول جليس أنت مخبول

ثم كان يأتي الحي على غفلة من أهله، فلما كثر ذلك خرج أبو ليلى، ومعه نفر من قومه إلى مروان بن الحكم فشكوا إليه ما أصابهم من قيس بن الملوح، وسألوه الكتاب إلى عامله يمنعه من كلام ليلى، وإن وجده أهل ليلى عندهم يكون دمه هدرًا.

فلما بلغ قيسًا ذلك، قال:

ألا حجبت ليلى وآلى أميرها ... عَليَّ يمينًا جاهدًا لا أزورها

وواعدني فيها رجال أبوهم ... أبي وأبوهم خُشِّنَتْ لي صدورها

على غير شيء غير أني أحبها ... وإن فؤادي عند ليلى أسيرها

فترحل قومها بها، فجاء وبقي يتمرغ في الموضع، ويقول:

أيا حرجات الحي حيث تحملوا ... بذي سلمٍ لاجاد كن ربيع

وخيماتك اللاتي بمسرح اللوى ... بلين بلى لم تبلهن ربوع

وقيل: إن قومه حجوا به، حتى إذا كان بمنى سمع نداءً: يا ليلى فغشي عليه، وبكى أبوه فأفاق يقول:

وداعٍ دعا إذْ نحن بالخيف من منى ... فهيج أطراب الفؤاد ولم يدر

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائرًا كان في صدري

ثم تزوجت ليلى فصار قيس بن الملوح يدور في الفلوات عريانًا ينشد الأشعار، ويأنس بالوحوش ويأكل من بقول الأرض، ثم وجد بعد ذلك ملقى بين

الأحجار ميتًا، فاحتملوه إلى الحي وغسلوه ودفنوه، وبكوا عليه[١].

من ضحايا العشق

غسان بن جهم

قال العلامة العتبي: كان عند خالد بن عبد الله ذات ليلة فقهاء من أهل الكوفة، فيهم أبو حمزة الثمالي، إذ قال خالد: حدثونا بحديث عشق ليس فيه فحش.

فقال أبو حمزة الثمالي: أصلح الله الأمير، زعموا أنه ذكر عند هشام بن عبد الملك غدر النساء وسرعة تزويجهن، فقال هشام: إنه ليبلغني من ذلك العجب.

فقال بعض جلسائه: أحدثك عما بلغني من ذلك، بلغني أن رجلًا من بني يشكر يقال له: غسان بن جهم بن العذافر، كانت تحته ابنة عم له يقال لها: أم عقبة بنت عمرو بن الأبجر، وكان لها محبًّا، وكانت له كذلك، فلما حضره الموت وظن أنه مفارق الدنيا قال ثلاثة أبيات، ثم قال: يا أم عقبة اسمعي ما أقول وأجيبي، فقد تاقت نفسي إلى مسألتك عن نفسك بعد ما يواريني التراب.

فقالت: قل فوالله لا أجيبك بكذب، ولا جعلته آخر حظك مني، فقال وهو يبكي بكاء كاد يمنعه الكلام:

أخبريني ماذا تريدين بعدي ... والذي تضمرين يا أم عقبه

تحفظيني بعد موتي لما قد ... كان من حسن خلق وصحبه

أم تريدين ذا جمال ومال ... وأنا في التراب في سجن غربه

---

(١) انظر «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام» للإمام الذهبي (٣/ ٦٤)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي أيضًا (٤/ ٥)، وكذا انظر «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص/ ٣٠١- ٣١٣).

فأجابته ببكاء وانتحاب:

قد سمعنا الذي تقول وما قد ... خفته يا غسان من أم عقبه
أنا من أحفظ النساء وأرعا ... ه لما قد أوليت من حسن صحبه
سوف أبكيك ما حييت بشجوٍ ... ومراثٍ أقولها وبندبه

قال: **فلما قالت ذلك طابت نفسه، وفي النفس ما فيها، فقال:**

أنا والله واثق منك لكن ... ربما خفت منك غدر النساء
بعد موت الأزواج يا خير من عو ... شر فارعي حقي بحسن الوفاء
إنني قد رجوت أن تحفظي العهـ ... ـد فكوني إن مت عند الرجاء

ثم اعتقل لسانه فلم ينطق حتى مات، فلم تلبث إلا قليلًا حتى خطبت من كل جانب، ورغبت فيها الأزواج، لاجتماع الخصال الفاضلة فيها من العقل والجمال والعفاف والحسب، فقالت مجيبة لهم:

سأحفظ غسانًا على بعد داره ... وأرعاه حتى نلتقي يوم نحشر
وإني لفي شغلٍ عن الناس كلهم ... فكفوا فما مثلي بمن مات يغدر
سأبلي عليه ما حييت بعبرة ... تجول على الخدين مني فتكثر

فيئس الناس منها حينًا، فلما مرت بها الأيام نسيت عهده، وقالت من مات فقد فات، فأجابت بعض خطابها فتزوجها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها جاءها غسان في النوم، وقد أغفت فقال:

غَدَرْتِ ولم ترعي لبعلك حرمةً ... ولم تعرفي حقًّا ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولًا حفاظًا لصاحبٍ ... حَلَفْتِ له يومًا ولم تنجزي وعدا
غَدَرْتِ به لما ثوى في ضريحه ... كذلك يُنْسَى كل من سكن اللحدا

فلما قال هذه الأبيات انتبهت مرتاعة مستحيية منه، كأنه بات معها في جانب البيت، وأنكر ذلك منها من حضرها من نسائها، فقلن: ما لك؟ وما حالك؟ وما دهاك؟ فقالت: ما ترك غسان بعده في الحياة أربًا، ولا بعده في الحياة سرور ورغبة، أتاني في منامي الساعة، فأنشدني هذه الأبيات، وأنشدتها وهي تبكي بدمع غزير، وانتحاب شديد، فلما سمعن ذلك منها أخذن بها في حديث آخر لتنسى ما هي فيه، فتغافلتهن، ثم قامت فلم يدركنها حتى ذبحت نفسها حياءً مما كادت تركب بعده من الغدر به والنسيان لعهده[1].

من ضحايا العشق

حبيشة بنت حبيش

حبيشة بنت حبيش إحدى بني عامر بن عبد مناة بن كنانة، كانت تهوى ابن عمها، عبد الله بن علقمة ويهواها، تواردا في الهوى وهما طفلان، وبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني عامر بن عبد مناة، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوه وإلا قاتلهم، فصبحهم خالد بالغميصاء وقد سمعوا به فخافوه، وكانوا قتلوا أخاه الفاكه بن الوليد، وعمه الفاكه بن المغيرة في الجاهلية، وكانوا من أشد حي في كنانة بأسًا، وكانوا يسمون لعقة الدم، فلما صبحهم خالد ومعه بنو سليم، وكانت بنو سليم تطلبهم بمالك بن خالد بن صخر الشريد وإخوته كرز وعمرو والحارث، وكانوا قتلوهم في موطن واحد، فلما صبحهم خالد في ذلك اليوم، ورأوا معه بني سليم زادهم ذلك نفورًا، فقال لهم خالد: أسلموا، فقالوا: نحن قوم مسلمون.

(١) انظر «ذم الهوى» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص/ ٤٢٩).

قال:فألقوا سلاحكم وانزلوا، قالوا: لا والله ما نلقي سلاحنا، ولا نحن لك، ولا لمن معك آمنين.

قال خالد:فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا، فنزلت فرقة منهم فأسرهم، وتفرق بقية القوم فرقتين، فأصعدت فرقة وسفلت أخرى، فبعث خالد جندًا في أثر ظعن مصعدةٍ يسوق بهن فتية، فقال: أدركوا أولئك، فخرجوا في أثرهم، فلما أدركوهم وقف لهم غلام شاب على الطريق، فجعل يقاتلهم ويرتجز ويقول:

أرخين أذيال المروط وارتعن ... مشي حييات كن لم يفزعن

إن يمنع اليوم نساء تمنعه

فقاتلهم قليلًا فقتلوه، ومضوا حتى لحقن الظعن، فخرج إليهم غلام كأنه الأول فجعل يقاتلهم ويقول:

أقسم ما إن خادرٌ ذو لبده ... يزأر بين أيكة ووهده

يفرس شبان الرجال وحده ... بأصدق الغداة منا نجده

فقتلوه وأدركوا الظعن فأخذوهن، فإذا فيهن غلام وضيء به صفرة في لونه كالمنهوك، ربطوه بحبلٍ وقدموه ليقتلوه، فقال لهم: هل لكم في خير؟

قالوا:وما هو؟!

قال:تدركون بي الظعن أسفل الوادي ثم تقتلوني، فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمي حبيش عند نفاد العيش، فأقبلت عليه جارية حسناء بيضاء وقالت: وأنت فأسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء.

قال:سلام عليك دهرًا، وإن بنت عصرًا، قال: وأنت سلام عليك عشرًا، وشفعًا تترى، وثلاثًا وترًا، فقال:

إن يقتلوني يا حبيش فلم يدع ... هواك لهم من سوى غلة الصدر

فقالت:

وأنت فلا تبعد فنعم أخو الهوى جميل العفاف والمودة في ستر

وقال لها:

ألم يك حقًّا أن ينول عاشق تكلف أدلاج السرى والودائق

فقالت: بلى والله فقال:

فلا ذنب لي قد قلت إذا نحن جيرة أثيبي بود قبل إحدى الصفائق

أثيب بودي قبل أن تشحط النوى وينأى الخليط بالحبيب المفارق

قال: فضربوا عنقه، فتقتحم الجارية من خدرها حتى أهوت نحوه فالتقمت فاه، فنزعوا منها رأسه، وإنها لتنشع بنفسها حتى ماتت مكانها[١].

من ضحايا العشق

فتى بني تميم

يروي أبو مسكين رحمه الله فيقول[٢]:

ضَلَّتْ ناقة لفتى من تميم، فخرج إلى حي من بني شيبان ينشدها فإنه لكذلك إذ بصر بجارية كأنها الشمس حسنًا وجمالًا، فعشقها عشقًا مبرحًا، فرجع إلى قومه وقد ذهب عقله، فما تمالك أن رجع إلى حيهم، فلما هدأ الليل قال: لعلي أسكن بالنظر إليها بعض ما بي، فأتاها وهي جالسة وإخوتها نيام حولها، فقال لها:

يا قرة عيني قد والله أذهب الشوق عقلي وكدَّر علي عيشي، فقالت: امضِ إلى حالك وإلا نبهت إخوتي فقتلوك، فقال لها: إن القتل أهون عليَّ من الذي أنا فيه.

(١) انظر «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون (٦/ ١٥٧ - ١٥٨).

(٢) انظر «ذم الهوى» لأبي الفرج ابن الجوزي (ص/ ٤٣٧، ٤٣٨).

قالت: وهل يكون شيء أشد من القتل؟!

قال:نعم ما أنا فيه من حبك. قالت له: فما تشاء؟ قال: أمكنيني من يدك حتى أضعها على قلبي، ولك عهد الله عز وجل أني أرجع، ففعلت، فرجع، فلما كانت القابلة عاد فوجدها على مثل حالها، فقالت له كقولها الأول، فلما فعل ذلك وقع في قلبها منه كهيئة النار، فأقبلت تلقاه كل ليلة فشاهده إخوتها، فقالوا: ما لهذا الكلب قد أطال المكث في هذا الجبل وهو يتخطانا؟

فقعدوا لطلبه في ليلتهم تلك، فأرسلت إليه أن القوم يريدونك فكن على حذرٍ، وإياك والغفلة، فجاءت سحابة فحالت بينهم وبين طلبهم: ثم انجلت السحابة وطلع القمر، فتطيبت الجارية ونشرت شعرها وأعجبت بنفسها، واشتهت أن يراها على تلك الحالة فقالت لصديقة لها، قد كانت أطلعتها على شأنها: يا فلانة أسعديني على المضي إليه.

فخرجتا تريدانه وهو على الجبل خائف من الطالب، فبصر بشخصين يسيران في ضوء القمر، فلم يشك أنهما من الطالبين، فانتزع سهمًا فما أخطأ قلب صاحبته، فسقطت لوجهها مضرجة بدمها، فلم تزل تضطرب حتى ماتت فبهت شاخصًا ينظر إليها، ثم أنشأ يقول:

نعق الغراب بما كرهـ ـت ولا إزالة للقدر

تبكي وأنت قتلتها فاصبر وإلا فانتحر

ثم جمع نبله فجعل يجأ -يطعن- بها أوداجه- عروق عنقه- حتى قتل نفسه.

* * *

من ضحايا العشق

مات على الكفر

قال أبو الحسن علي بن عبيد الله الزاغوني:

يحكى أن رجلًا اجتاز بباب امرأة نصرانية فرآها فهويها من وقته، وزاد الأمر به حتى غلب على عقله، فحمل إلى المارستان، وكان له صديق يتردد إليه، ويترسل بينه وبينها، ثم زاد الأمر به فقالت أمه لصديقه، إني أجيء إليه ولا يكلمني، فقال: تعالي معي. فأتت معه، فقال له: إن صاحبتك قد بعثت إليك برسالةٍ، فقال: كيف؟

فقال: هذه أمك تؤدي رسالتها، فجعلت أمه تحدثه عنها بشيء من الكذب، ثم إنه زاد الأمر عليه، ونزل به الموت، فقال لصديقه:

قد جاء الأجل، وحان الوقت، وما لقيت صاحبتي في الدنيا، وأنا أريد أن ألقاها في الآخرة، فقال له: كيف تصنع؟

قال: أرجع عن دين محمدٍ، وأقول عيسى ومريم والصليب أعظم! فقال ذلك، ومات[1] !

من ضحايا العشق

قتلها وقتل أمها

روى العتبي عن أبيه قال:

كان رجل من العرب تحت ابنة عم له، وكان لها عاشقًا وكانت امرأة جميلة، وكان من عشقه لها أنه كان يقعد في دهليزه مع ندمائه.

(١) انظر «ذم الهوى» لأبي الفرج ابن الجوزي (٣٥٣، ٣٥٤).

ثم يدخل ساعة بعد ساعة ينظر إليها، ثم يرجع إلى أصحابه عشقًا لها، ففطن لها ابن عم لها، فاكترى دارًا إلى جنبه، ثم لم يزل يراسلها حتى أجابته إلى ما أراد فاحتالت وتدلت إليه، ودخل الزوج كعادته لينظر إليها فلم يرها، فقال لأمها: أين فلانة؟ فقالت تقضي حاجة، فطلبها في الموضع فلم يجدها فإذا هي قد تدلت، وهو ينظر إليها، فقال لها، ما وراءك؟ والله لتصدقيني، قالت: والله لأصدقنك، من الأمر كيت، وكيت، فأقرت له، فَسَلَّ السيف فضرب عنقها، ثم قتل أمها، وهرب، وأنشد يقول:

يا طلعة طلع الحمام عليها ... وجنت لها ثمر الردى بيديها[1]

من ضحايا العشق

عبده بن عبد الرحيم

هو عبده بن عبد الرحيم قبحه الله تعالى، ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيرًا في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون محاصرين بلدة من بلاد الروم، إذْ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟

فقالت: أن تتنصر، وتصعد إلي، فأجابها إلى ذلك، فما أراع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه، وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا:

يا فلان، ما فعل القرآن معك؟!

ما فعل صيامك؟!

---

(١) المرجع السابق (ص/ ٣٦١، ٣٦٢).

ما فعلت صلاتك؟!

ما فعل قرآنك؟!

ما فعل علمك؟!

ما فعل جهادك؟!

فقال: اعلموا أني أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد صار لي فيهم مال وولد!!

توفي ذلك المرتد القبيح في سنة ثمان وسبعين ومائتين لعنه الله[2].

من ضحايا العشق

حبابة ويزيد

روى موسى بن جعفر أن يزيد بن عبد الملك بينا هو مع حبابة أسر الناس بها، حذفها بحبة رمان، أو بعنبة وهي تضحك، فوقعت في فيها فشرقت فماتت!

فأقامت عنده في البيت حتى جيفت أو كادت تجيف، ثم خرج فدفنها فأقام أيامًا، ثم خرج حتى وقف على قبرها، فقال:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبا فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

ثم رجع، فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه.

وروى علي بن عمروس فقال: إن يزيد بن عبد الملك دخل يومًا بعد موت حبابة، وكان لها عاشقًا إلى خزانتها ومقاصيرها، فطاف بها ومعه جارية من

(١) سورة «الحجر»: (٢،٣).

(٢) انظر «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير (١١/ ٦٢).

جواريها، فتمثلت الجارية:

كفى حزنًا بالوالـه الصبِّ أن يرى منـازل مـن يهـوى معطلـة قفـرا

فصاح صيحة وخر مغشيًّا عليه فلم يفق إلى أن مضى من الليل هوى، فلم يزل باقي ليلته باكيًا، فلما كان اليوم الثاني وقد انفرد في بيت يبكي عليها جاؤوا إليه فوجدوه ميتًا[١].

أيها العاصي: معاصيك تضعفك أمام نفسك

عقوبات المعاصي[٢]: ومن أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل، وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره، وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفًا بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من آثر هذه على هذه، كما أن أسفههم من عكس الأمر، والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين، فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبه، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنًا بالمرض، فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه

(١) انظر «ذم الهوى» (ص/ ٤٩١).

(٢) انظر «الداء والدواء» لابن القيم (ص/ ١٠٣ - ١٠٥) بتحقيقي.

شيئًا والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها فما الظن بها؟

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف، أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأمارة، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتًا لا يرتجى معه حياة، فهذا ميت في الدنيا، ميت في البرزخ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط.

والمقصود: أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه، والتضرع والتذلل والإنكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا ينحبس القلب واللسان على الذكر، بل إن ذكر أو دعا، ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: «لا إله إلا الله» فقال: آه آه لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله». فقال: شاه، رخ، غلبتك ثم قضى، وقيل

لآخر: قل: «لا إله إلا الله» فقال:

يـا رُب قائلـة يومًـا وقـد تعبـت كيـف الطريـق إلى حمـام منجـاب؟[1]

ثم قضى.

وقيل لآخر: قل: «لا إله إلا الله» فجعل يهذي بالغناء، ويقول: تاتنا تنتا، حتى قضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقـول. لم أدع معـصية إلا ارتكبتهـا، ثـم قضى ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني ومـا أعـرف أن صـليت لله صـلاة؟ ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول. وقضى.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها.

وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موتـه، فجعـل يقـول: لله، فلـس لله، فلس لله، حتى قضي.

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلـوا يلقنونـه «لا إله إلا الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة. هذا مشتري جيد، هـذه كـذا، حتـى قضى.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبرًا؟ والذي يخفى علـيهم مـن أحـوال المحتضرين أعظم وأعظم، فإذا كان العبـد في حـال حـضور ذهنـه وقوتـه وكـمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن بـه

---

(١) انظر أيضًا «التذكرة» للقرطبي (٣٥)، وانظر كتابنا «ويحك أيها العاصي» (ص/ ٨٦- ٨٨).

عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال. فمن ترى يسلم عن ذلك؟ فهناك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه، وكان أمره فرطًا؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته، أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾[2] كما قيل:

يا آمنا مع قبيح الفعل منه أهل ... أتاك توقيع أمن أنت تملكه؟

جمعت شيئين: أمنًا، واتباع هوى ... هذا، وإحداهما في المرء تهلكه

والمحسنون على درب المخاوف قد ... سارُوا، وذلك درب لست تسلكه

فرطت في الزرع وقت البذر من سفه ... فكيف عند حصاد الناس تدركه

هذا، وأعجب شيء فيك زهدك في ... دار البقاء بعيش سوف تتركه

من السفيه إذًا بالله؟ أنت، أم الـ ... ـمغبون في البيع غبنًا سوف تدركه؟

---

(١) سورة «إبراهيم»: (٢٧).

(٢) سورة «القلم»: (٣٩، ٤٠).

الذين آثروا الآلام على لَذَّةِ الوصال الحرام[١]

هذا باب إنما يدخل منه رجلان:

أحدهما: من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفوتين، واختار أسهل العقوبتين.

والثاني: رجل غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢] فاختار السجن على الفاحشة ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان، وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[٣]، ولهذا كان من دعائه: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»**، وكانت أكثر يمينه؛ **«لا ومقلب القلوب»** وهو الذي أنزل عليه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[٤]، وقد جرت سنة الله تعالى

---

(١) المرجع السابق (٣٦١- ٣٦٥) بتصرف واختصار وتحقيق.

(٢) سورة «يوسف»: (٣٢، ٣٣).

(٣) سورة «الإسراء»: (٧٤).

(٤) سورة «الأنفال»: (٢٤).

في خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالى لا يضيع ما تحمل عبده لأجله.

وكل من خرج عن شيء منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ما هو أجل منه، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوضهم عن أبدانهم التي بذلوها لله أبدانَ طير خضر جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش[1]. ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم.

وقال حصين بن عبد الرحمن: بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب ﷺ، وكان عمر يتفقده إذا غاب، فعشقته امرأة من أهل المدينة، فذكرت ذلك لبعض نسائها، فقالت: أنا أحتال لك من إدخاله عليك فقعدت له في الطريق، فلما مَرَّ بها قالت له: إني امرأة كبيرة السن ولي شاة لا أستطيع أن أحلبها، فلو دخلت فحلبتها لي، وكانوا أرغب شيء في الخير، فدخل فلم يَرَ شاة، فقالت: اجلس حتى آتيك بها، فإذا المرأة قد طلعت عليه، فلما رأى ذلك عمد إلى محراب في البيت فقعد فيه فأرادته عن نفسه فأبى وقال: اتقي الله أيتها المرأة، فجعلت لا تكف عنه ولا تلتفت إلى قوله، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاءوا فقالت: إن هذا دخل علي يريدني عن نفسي، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه، وأوثقوه، فلما صلى عمر الغداة فقده، فبينا هو كذلك إذْ جاءوا به في وثاق، فلما رآه عمر قال: اللهم لا تخلف ظني به. قال: ما لكم؟ قالوا: استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه وأوثقناه فقال عمر ﷺ:

---

(١) الحديث: رواه مسلم في «صحيحه» (١٨٨٧)، والترمذي في «سننه» (٣٠١١)، وابن ماجه (٢٨٠١)، والدارمي (٢٤١٠).

اصدقني. فأخبره بالقصة على وجهها، فقال له عمر ﷺ: أتعرف العجوز؟ فقال: نعم إن رأيتها عرفتها، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهن فجاء بهن فعرضهن، فلم يعرفها فيهن، حتى مَرَّتْ به العجوز فقال: هذه يا أمير المؤمنين، فرفع عمر عليها الدرة وقال: اصدقيني، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى. فقال عمر: الحمد لله الذي جعل فينا شبيه يوسف[1].

وقال مصعب بن عثمان: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهًا فدخلت عليه امرأة بيته، فسألته نفسه فامتنع عليها، فقالت: إذن أفضحك، فخرج هاربًا عن منزله وتركها فيه.

وقال جابر بن نوح: كنت بالمدينة جالسًا عند رجل في حاجة، فمر بنا شيخ حسن الوجه حسن الثياب، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال: يا أبا محمد اسأل الله أن يعظم أجرك، وأن يربط على قلبك بالصبر، فقال الشيخ:

وكان يميني في الوغي ومساعدي ... فأصبحت قد خانت يميني ذراعها

وقد صرت حيرانًا من الثكل باهتًا ... أخا كلفٍ ضاقت علي رباعها

فقال له الرجل: أبشر فإن الصبر معول المؤمن، وإني لأرجو أن لا يحرمك الله الأجر على مصيبتك. فقلت له: من هذا الشيخ؟ فقال: رجل منا من الأنصار، فقلت: وما قصته؟ قال: أصيب بابنه وكان به بارًّا قد كفاه جميع ما يعنيه، ومنيته عجب، قلت: وما كانت؟ قال: أحبته امرأة فأرسلت إليه تشكو حبه وتسأل الزيارة، وكان لها زوج فألحت عليه، فأفشى ذلك إلى صديق له، فقال له: لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك، فأمسك، وأرسلت

(١) من قوله سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ الآية سورة «يوسف»: (٢٣).

إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب في تهييجه، فعملت لها في ذلك، فبينا هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرف واختلط، فقام مسرعًا فصلى واستعاذ والأمر يشتد، فقال: يا أبتِ أدركني بقيد، فقال: يا بني ما قصتك؟ فحدثه بالقصة، فقام وقيده وأدخله بيتًا، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ثم هدأ فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره.

مَنْ تَرَكَ شيئًا لله عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ

من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه[١]، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة[٢] فعوضه الله أن مكنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة سائلة راغبة في الوصل الحلال فتزوجها، فلما دخل بها قال: هذا خير مما كنت تريدين، فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى في عباده قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس، سَخَّرَ الله له الريح يسير على متنها حيث أراد، ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها، ولو اتقى الله السارق وترك سرقة

---

(١) انظر «روضة المحبين» لابن قيم الجوزية (٣٥١- ٣٥٦) بتصرف واختصار وتحقيق.

(٢) من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ...﴾ الآية سورة «يوسف»: (٣٣).

المال المعصوم لله لآتاه الله مثله حلالًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1] فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حرامًا لله لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالًا.

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى: بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة فإذا جارية حسناء عليها ثياب سواد، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها:

قد كنت أحسب أن الشمس واحدة ... والبدر في منظر بالحسن موصوف

حتى رأيتك في أثواب ثاكلة ... سودٍ وصدغك فوق الخد معطوف

فرحت والقلب مني هائم دنف ... والكبد حرى ودمع العين مزروف

ردي الجواب ففيه الشكر واغتنمي ... وصل المحب الذي بالحب مشغوف

ورمى بالرقعة إليها، فلما قرأتها كتبت:

إن كنت ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسبٍ ... إن الشريف بغض الطرف معروف

إن الزناة أناس لا خلاق لهم ... فاعلم بأنك يوم الدين موقوف

واقطع رجاك لحاك الله من رجل ... فإن قلبي عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال: أليس امرأة تكون أشجع منك؟ ثم تاب ولبس مدرعة من الصوف والتجأ إلى الحرم، فبينا هو في الطواف يومًا وإذا بتلك الجارية عليها درع من صوف فقالت له: ما أليق هذا بالشريف، هل لك في المباح؟ فقال: قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه، والآن قد شغلني حبه عن حب غيره،

---

(١) سورة «الطلاق»: (٢- ٣).

فقالت له: أحسنت: ثم طافت وهي تنشد:

فطفنا فلاحت في الطواف لوائحٌ غنينا بها عن كل مرأى ومسمع

* وقال الحسن البصري: كانت امرأة بغي قد فاقت أهل عصرها في الحسن لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار، وإن رجلًا أبصرها فأعجبته، فذهب فعمل بيديه وعالج فجمع مائة دينار، فجاء فقال: إنك قد أعجبتني فانطلقت فعملت بيدي وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت: ادفعها إلى القهرمان حتى ينقدها ويزنها، فلما فعل قالت: ادخل، وكان لها بيت منجد وسرير من ذهب فقالت: هلم لك، فلما جلس منها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدي الله فأخذته رعدة وطفئت شهوته فقال: اتركيني لأخرج ولك المائة دينار، فقالت: ما بدا لك وقد رأيتني كما زعمت فأعجبتك فذهبت فعالجت وكدحت حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت عليَّ فعلت الذي فعلت؟ فقال: ما حملني على ذلك إلا الفرق من الله، وذكرت مقامي بين يديه، قالت: إن كنت صادقًا فمالي زوج غيرك قال: ذريني لأخرج قالت: لا إلا أن تجعل لي عهدًا أن تتزوجني فقال: لا حتى أخرج، قالت: عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوجني، قال: لعل، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده، وارتحلت المرأة بدنياها نادمة على ما كان منها حتى قدمت بلده، فسألت عن اسمه ومنزله فدلت عليه، فقيل له: الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك، فلما رآها شهق شهقة فمات، فأسقط في يدها فقالت: أما هذا فقد فاتني، أما له من قريب؟ قيل: بلى أخوه رجل فقير، فقالت: إني أتزوجك حبًّا لأخيك. قال: فتزوجته فولدت له سبعة أبناء[1].

---

(١) انظر «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن قيم الجوزية (ص/ ٣٥٢، ٣٥٣).

وقال يحيى بن عامر التيمي[١]: خرج رجل من الحي حاجًّا فورد بعض المياه ليلًا فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها، فأعرض عنها فقالت له: هلم إليَّ فَلِمَ تعرض عني؟ فقال: إني أخاف الله رب العالمين، فتجلبت ثم قالت: هبت والله مهابًا. إن أولى من شركك في الهيبة لمن أراد أن يشركك في المعصية، ثم ولت فتبعها فدخلت بعض خيام الأعراب قال: فلما أصبحت أتيت رجلًا من القوم فسألته عنها وقلت: فتاة صفتها كذا وكذا فقال: هي والله ابنتي، فقلت: هل أنت مزوجي بها؟ فقال: على الأكفاء فمن أنت؟ فقلت؟ رجل من تيم، قال: كفء كريم، فما رمت حتى تزوجتها ودخلت بها، ثم قلت: جهزوها إلى قدومي من الحج، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة، وها هي ذي، ولي منها بنون وبنات، قال: فقلت لها: ويحك ما كان تعرضك لي حينئذٍ؟ فقالت: يا هذا ليس للنساء خير من الأزواج، فلا تعجبن من امرأة تقول هويت، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان هو هواها.

* وقال الحسن بن زيد[٢]: ولينا بديار مصر رجل فوجد على بعض عماله فحبسه وقيده، فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته فكتبت إليه:

أيها الرامي بعينيه ... وفي الطرف الحتوف

إن ترد وصلًا فقد أمـ ... ـكنك الظبي الألوف

فأجابها الفتى:

إن ترني زاني العيـ ... ـنين فالفرج عفيف

ليس إلا النظر الفا ... تر والشعر الظريف

---

(١) المرجع السابق (ص/ ٣٥٣).

(٢) المرجع السابق (ص/ ٣٥٤، ٣٥٥).

فأجابته:

قـــد أردنـــاك فألفيـــ ـــناك إنســـانًا عفيفـــا

فتأبيـــت فـــلا زلـــ ـــت لقيـــديك حليفـــا

فأجابها:

مـــا تأبيـــت لأني كنـــت للظبـــي عيوفـــا

غـــير أني خفـــت ربـــا كـــان بي بـــرًّا لطيفـــا

فذاع الشعر وبلغت القصة الوالي فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه.

* وذكر أن رجلًا أحب امرأة وأحبته، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال: إن أجلي ليس بيدي، وأجلك ليس بيدك فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيين فقالت: صدقت فتابا وحسنت حالهما وتزوجت به.

* وذكر الحسن عن عمر ﷺ قال: كان شاب على عهد عمر بن الخطاب ﷺ ملازمًا للمسجد والعبادة، فهويته جارية فحدث نفسه بها، ثم إنه تذكر وأبصر فشهق شهقة فغشي عليه منها، فجاء عم له فحمله إلى بيته، فلما أفاق قال: يا عم انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له: ما جزاء من خاف مقام ربه؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال: لك جنتان[1].

انتبه الغناء والموسيقى من أسباب العشق المهلك[2]

ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء[3] والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة،

(١) من قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ سورة «الرحمن»: (٤٦).

(٢) انظر «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٠، ١٩١) بتحقيقي -دار المنار، وفياض.

(٣) استمدها المصنف - رحمه الله، من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً -

الذي يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنا، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى. كاد به الشيطان النفوس المبطلة وحسنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورًا، فلو رأيتهم عند ذاك السماع وقد خشعت منهم الأصوات وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم تكسر المخانيث[1] والنسوان ويحق لهم ذلك وقد خالط خماره النفوس ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق وأثواب تشقق وأموال في غير طاعة الله تنفق حتى إذا عمل السكر فيهم عمله وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزًا وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا، فطورا يجعلهم كالحمير حول المدار.

وتارة كالذباب ترقص وسيط الديار، فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام ويا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام[2].

قضوا حياتهم لذة وطربا واتخذوا دينهم لهوًا ولعبا، مزامير الشيطان أحب إليهم

-﴿وَتَصْدِيَةً ...﴾ سورة «الأنفال» (٣٥) المكاء: الصفير والتصدية: التصفيق هكذا روى عن علي وعن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وكذا مجاهد والضحاك وقتادة وقال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت الحرام عراة تصفر وتصفق. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤) ط. دار الأندلس: بيروت.

(١) المخانيث: مفردها مخنث، وهو من يتشبه بالنساء في خلقتهم أو حركاتهم أو كلامهم ولذلك صنف البخاري باب تحت اسم إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت قال ﷺ: «أخرجوا المخنثين من بيوتكم» رواه البخاري، وأبو داود، وابن ماجه في السنن.

(٢) يشير المصنف -رحمه الله- إلى حلقات الذكر للطرقية والتي يتراقصون فيها ويسمونها ذكرًا هدانا وإياهم الله إلى الطريق القويم.

من استماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكنًا ولا أزعج له قاطنًا ولا أثار فيه وجدًا ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زندًا، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت فيا أيها الفاتن المفتون والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون هلا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن؟! وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد وهذه الأحوال السنيات عند تلاوة السور والآيات، ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه ويميل إلى ما يشاكله والجنسية علة الضم قدرًا وشرعًا، والمشاكلة سبب الميل عقلًا وطبعًا، فمن أين هذا الإخاء والنسب لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللًا:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

ولقد أحسن القائل:

تلى الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساهٍ لاهي

وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأجل الله

دف ومزمار ونغمة شادن ... فمتى رأيت عبادة بملاهي؟

ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي

سمعوا له رعدًا وبرقًا إذ حوى ... زجرًا وتخويفًا بفعل مناهي

---

(١) سورة الكهف: (٥٠).

ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ذبحها المتناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه عند الجهول الساهي؟
إن لم يكن خمر الجسور فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى النسوان عند ملاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
ألا قل لهم قول عبد ... نصوح وحق النصيحة أن تُسْتَمَع[1] ؟
متى علم الناس في ديننا ... بأن الغناء سنة تتبع؟
وأن يأكل المرء أكل الحمار ... ويرقص في الجمع حتى يَقَع
وقالوا : سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك البهائم إن أشبعت ... يرقصها ربها والشَّبَع
ويسكره الناي ثم الغنا ... ويس لو تليت مَا انْصَدَع
فيا للعقول ويا للنهي ... ألا منكر منكم لْيَدَع
تهان مساجدنا بالسماع ... وتكرم عن مثل ذاك البيع

وقال آخر وأحسن ما شاء :

ذهب الرجال وحال دون مجالهم ... زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم ... ساروا ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعاً وتقشفوا ... كتقشف الأقطاب والأبدال[2]

---

(١) المرجع السابق (ص/ ١٩٧- ٢٠٠) بتحقيقي.

(٢) قال ابن تيمية – رحمه الله- زعم بعض الناس أن في الأرض ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا يسمونهم «النجباء» فينقى منهم سبعون هم «النقباء» ومنهم أربعون، هم «الأبدال» ومنهم سبعة، هم «الأقطاب»=

قطعوا طريق السالكين وغوروا ... سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى ... وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت : قال الله قال رسوله ... همزوك همز المنكر المتغالي
أو قلت : قد قال الصحابة والأول ... تبعوهم في القول والأعمال
أو قلت : قال الآل آل المصطفى ... صلى عليه الله أفضل آل
أو قلت : قال الشافعي : وأحمد ... وأبو حنيفة والإمام العالي
أو قلت : قال صحابهم من بعدهم ... فالكل عندهم كشبه خيال
ويقول : قلبي قال لي عن سره ... عن سر سري عن صفا أحوالي
عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي ... عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صفو وقتي عن حقيقة مشهدي ... عن سر ذاتي عن صفات فعالي
دعوى إذا حققتها ألفيتها ... ألقاب زور لفقت بمحال
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا ... بظواهر الجهال والضلال
جعلوا المراد فتحًا وألفاظ الخنا ... شطحًا وصالوا صولة الإدلال
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم ... نبذ المسافر فضلة الأكال
جعلوا السماع مطية لهواهم ... وغلوا فقالوا فيه كل محال
هو طاعة هو قربة هو ... سنة صدقوا لذاك الشيخ ذي الإضلال
شيخ قديم صادهم بتحيل ... حتى أجابوا دعوة المحتال
هجروا له القرآن والأخبار ... والآثار إذ شهدت لهم بضلال

=ومنهم أربعة، هم «الأوتاد» ومنهم واحد هو «الغوث» وأنه مقيم بمكة... وقال ابن تيمية: وهذا كفر صريح يستتاب منه صاحبه، وإلا قتل..

ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى ... من أوجه سبع لهم بتوال

تالله ما ظفر العدو بمثلها ... من مثلهم واخيبة الآمال

نصب الحبال لهم فلم يقعوا بها ... فأتى بذا الشرك المحيط الغالي

فإذا بهم وسط العرين ممزقى ... الأثواب والأديان والأحوال

لا يسمعون سوى الذي يهوونه ... شغلًا به عن سائر الأشغال

ودعوا إلى ذات اليمين فأعرضوا ... عنها وسار القوم ذات شمال

خروا على القرآن عند سماعه ... صمًّا وعميانًا ذوي إهمال

وإذا تلا القاري عليهم سورة ... فأطالها عدوه في الأثقال

ويقول قائلهم : أطلت وليس ذا ... عشر فخفف أنت ذو إملال

هذا وكم لغو وكم صخب وكم ... ضحك بلا أدب ولا إجمال

حتى إذا قام السماع لديهم ... خشعت له الأصوات بالإجلال

وامتدت الأعناق تسمع وحي ... ذاك الشيخ من مترنم قوال

وتحركت تلك الرؤوس وهزها ... طرب وأشواق لنيل وصال

فهنا لك الأشواق والأشجان ... والأحوال لا أهلًا بذي الأحوال

تالله لو كانوا صحاة أبصروا ... ماذا دهاهم من قبيح فعال

لكنما سكر السماع أشد ... من سكر المدام وذا بلا إشكال

فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ... نالت من الخسران كل منال

يا أمة لعبت بدين نبيها ... كتلاعب الصبيان في الأوحال

أشمتموا أهل الكتاب بدينكم ... والله لن يرضوا بذي الأفعال

كـــم ذا نعـــير مـــنهم بفـــريقكم ... سرًّا وجهـــرا عنـــد كـــل جـــدال!
قـــالوا لنـــا : ديـــن عبـــادة أهلـــه ... هـــذا الـــسماع فـــذاك ديـــن محـــال
بـــل لا تجـــيء شريعـــة بجـــوازه ... فـــسلوا الـــشرائع تكتفـــوا بـــسؤال
لـــو قلتمـــوا فـــسق ومعـــصية وتـــزيين ... مـــــن الـــــشيطان للأنـــــذال
ليـــصد عـــن وحـــي الإلـــه ودينـــه ... وينـــال فيـــه حيلـــة المحتـــال
كنـــا شـــهدنا أن ذا ديـــن أتـــى ... بـــالحق ديـــن الرســـل لا بـــضلال
والله مـــنهم قـــد ســـمعنا ذا إلى الآذ ... ان مـــــن أفـــــواهم بمقـــــال
وتمـــام ذاك القـــول بالحيـــل التـــي ... فـــسخت عقـــود الـــدين فـــسخ فـــصال
جعلتـــه كـــالثوب المهلهـــل نـــسجه ... فيـــه تفـــصله مـــن الأوصـــال
مـــا شـــئت مـــن مكـــر ومـــن خـــدع ... ومـــن حيـــل وتلبـــيس بـــلا إقـــلال
فاحتـــل عـــلى إســـقاط كـــل فريـــضة ... وعـــلى حـــرام الله بـــالإحلال
واحتـــل عـــلى المظلـــوم يقلـــب ظالمًـــا ... وعـــلى المظلـــوم، بعيـــد تلـــك الحـــال
واقلـــب وحـــول فالتحيـــل كلـــه ... في القلـــب والتحويـــل ذو إعـــمال
إن كنـــت تفهـــم ذا ظفـــرت بكـــل مـــا ... تبغـــي مـــن الأفعـــال والأقـــوال
واحتـــل عـــلى شرب المـــدام وســـمها ... غـــير اســـمها واللفـــظ ذو إجمـــال[1]
واحتل على أكـل الربـا واهجـر شـنا ... عـــة لفظـــه واحتـــل عـــلى الأبـــدال
واحتل عـلى الـوطء الحـرام ولا تقـل ... هـــذا زنـــا وانكـــح رخـــى البـــال
واحتـل عـلى حـل العقـود وفـسخها ... بعـــد اللـــزوم وذاك ذو إشـــكال

---

(١) يشير المصنف لحديث: «يشرب ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها»: صحيح -رواه النسائي، وراجع صحيح الجامع (٨٠ ٩٢)، وفي الصحيحة (١/ ١٣٨).

إلا عـلى المحتـال فهـو طبيبهـا ... يـا محنـة الأديـان بالمحتـال

واحتل على نقض الوقوف وعودها ... طلقـًا ولا تستحي مـن إبطـال

فكـر وقـدر ثـم فـصل بعـد ذا ... فـإذا غلبـت فلـج في الإشـكال

واحتـل عـلى الميراث فانزعـه م الـو ... راث ثـم أبلـع جميـع المـال

قـد أثبتـوا نسبًا وحـصرًا فـيكم ... حتـى تحـوز الإرث للأمـوال

واعمـد إلى تلـك الـشهادة واجعـل ... الإبطـال همـك تحـظ بالإبطـال

فالحـصر إثبـات ونفـي غـير ... معلـوم وهـذا موضـع الإشـكال

واحتـل عـلى مـال اليتـيم فإنـه ... رزق هنـي مـن ضـعيف الحـال

لا سـوطه تخـشى ولا مـن سـيفه ... والقـول قولـك في نفـاذ المـال

واحتـل عـلى أكـل الوقـوف فإنهـا ... مثـل الـسوائب ربـة الإهمـال

فـأبو حنيفـة عنـده هـي باطـل ... في الأصـل لم تحـتج إلى إبطـال

فالمـال مـال ضـائع أربابـه ... هلكـوا فخـذ منـه بـلا مكيـال

وإذا تـصح بحكـم قـاض عـادل ... فـشروطها صـارت إلى اضـمحلال

قـد عطـل النـاس الـشروط وأهملـوا ... مقـصودها فالكـل في إهمـال

وتمـام ذاك قـضاتنا وشـهودنا ... فاسـأل بهـم ذا خـبرة بالحـال

أما الشهود فهـم عـدول عـن طريـق ... العـدل في الأقـوال والأفعـال

زورًا وتنميقـًا وكتمانـًا ... وتلبيسًـا وإسرافـًا بأخـذ نـوال

ينـسى شـهادته ويحلـف إنـه ... نـاس لهـا والقلـب ذو إغفـال

فـإذا رأى المنقـوش قـال : ذكرتهـا ... يـا للمـذكر جئـت بالآمـال

ويقول قائلهم : أخوض النار في ... نزر يسير ذاك عين خبال
ثقل لي الميزان إني خائض ... للمنكبين أجر بالأغلال
أما القضاة فقد تواتر عنهم ... ما قد سمعت فلا تفه بمقال
ماذا تقول لمن يقول : حكمت أنك ... فاسق أو كافر في الحال؟
فإذا استغثت أغثت بالجلد الذي ... قد طرقوه كمثل طرق نعال
فيقول طق فتقول : قط فتعارضا ... ويكون قول الجلد ذا إعمال
فأجارك الرحمن من ضرب ومن ... عرض ومن كذب وسوء مقال
هذا ونسبة ذاك أجمعه إلى ... دين الرسول وذا من الأهوال
حاشا رسول الله يحكم بالهوى ... والجهل تلك حكومة الضلال
والله لو عرضت عليه كلها ... لاجتثها بالنقض والإبطال
إلا التي منها يوافق حكمه ... فهو الذي يلقاه بالإقبال
أحكامه عدل وحق كلها ... في رحمة ومصالح وحلال
شهدت عقول الخلق قاطبة بما ... في حكمه من صحة وكمال
فإذا أتت أحكامه ألفيتها ... وفق العقول تزيل كل عقال
حتى يقول السامعون لحكمه : ... ما بعد هذا الحق غير ضلال
لله أحكام الرسول وعدلها ... بين العباد ونورها المتلالي
كانت بها في الأرض أعظم رحمة ... والناس في سعد وفي إقبال
أحكامهم تجري على وجه السدا ... د وحالهم في ذاك أحسن حال
أمنا وعزا في هدى وتراحم ... وتواصل ومحبة وجلال

فتغـــيرت أعمالهـــم وتبـــدلت ... أحـــوالهم بـــالنقص بعـــد كـــمال
لـــو كـــان ديـــن الله فـــيهم قائمـــاً ... لـــرأيتهم في أحـــسن الأحـــوال
وإذا همـــوا حكمـــوا بحكـــم جـــائر ... حكمـــوا لمنكـــره بكـــل وبـــال
قـــالوا : أتنكـــر حكـــم شرع محمـــد؟ ... حاشـــا لـــذا الـــشرع الـــشريف العـــالي
عجـت فـروج النـاس ثـم حقـوقهم ... لله بـــــالبكرات والآصـــــال
كـــم تـــستحل بكـــل حكـــم باطـــل ... لا يرتـــــضيه ربنـــــا المتعـــــالي
والكل في قعر الجحيم سـوى الـذي ... يقـــضي بـــدين الله لا لنـــوال
أو مـــا ســـمعت بـــأن ثلثـــيهم غـــدا[1] ... في النـــار في ذاك الزمـــان الخـــالي؟
وزماننـــا هـــذا فربـــك عـــالم ... هـــل فيـــه ذاك الثلـــث أم هـــو خـــالي؟

دَوَاءُ الدَّاءِ الْقَتَّال

ودواء هذا الداء القتَّال: أن يعرف أن ما ابتلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولًا ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

(١) يشير المصنف إلى النصارى، قلت: والصحيح أن نقول: نصارى، ولا نقول إنهم مسيحيون؛ لأن المسيحي هو من يتبع المسيح ﷺ وهو بريء منهم، والقرآن سماهم نصارى في قوله الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ...﴾ وفي قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ...﴾ وحديث: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه...»: صحيح أخرجه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩)، (٤٧٧٥، ٦٥٩٩) ومسلم (٢٢/ ٢٦٥٨).

(٢) سورة «يوسف»: (٢٤).

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا أخلص، وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران، أمر علمي وأمر عملي، فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

والثاني: عذاب قلبه به، فإن من أحب شيئًا غير الله عذب به ولابد، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيًا في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا حذر الفراق

فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاقي

والعشق، وإن استعذبه صاحبه، فهو من أعظم عذاب القلب.

---

(١) سورة «يوسف»: (٢٤).

الثالث: أن قلبه أسير في قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب كما قال بعض هؤلاء:

ملكت فؤادي بالقطيعة والجفا ... وأنت خليّ البال تلهو وتلعب
فيعيش العاشق عيش الأسير الموثق ... وعيش الخلي عيش المسيب المطلق
طليق برأي العين وهو أسير ... عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يُرى في صورة الحي غاديا ... وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه ... فليس له حتى الممات حضور

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له، وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب، وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية واستولى عليه، لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده، وبعد منه وليه، ومن لا سعادة ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه أفسد الذهن

وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها، وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها مشاهد بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضربه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل:

قالوا: جننت بمن تهوى، فقلت لهم: العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها، إما إفسادًا معنويًّا أو صوريًّا، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين، والأذن، واللسان، فيرى القبيح حسنًا منه ومن معشوقه، فالحب يعمى ويصم، فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العزل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو به، كما قيل:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في

الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وأما فساد الحواس ظاهرًا فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو المعروف من أخبار من قتلهم العشق.

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد لحمًا على عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة، بحيث يستولي المعشوق على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحب أول ما يكون لجاجة ... يأتي بها وتسوقه الأقدار

حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى ... جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى، كما قيل:

وعش خاليًا فالحب أوله عنّي ... وأوسطه سقم، وآخره قتل

وقال الآخر:

ولع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

والذنب له، فهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر «يداك أوكتا، وفوك نفخ»[١].

الجمال نعمة توجب شكرًا لا قبحًا

اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٢]. وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يعطى مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة، وإن كان أسود أو غير جميل، ولاسيما إذا رزق حظًّا من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسنه.

وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل، فقيل لها في ذلك، فقالت: إنها تحسن الوجه وأنا أحب أن يحسن وجهي، ومما يدل على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر، أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه.

فصل: وأما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[٣] قالوا: هو الصوت

---

(١) المرجع السابق (ص/ ٢٣٧- ٢٤١) بتحقيقي.

(٢) الحديث: رواه أحمد في «مسنده» (٧/ ٤٨٥)، ومسلم في «صحيحه» «كتاب البر والصلة» (٨/ ٣٣) وابن ماجه في «سننه»، كتاب الزهد (٣/ ٤٨٢).

(٣) سورة «فاطر»: (١).

الحسن، والصورة الحسنة، والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفطورة على استحسانه.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قالوا: يا رسول الله الرجل يحب أن تكون نعله حسنة وثوبه حسنًا، أفذلك من الكبر؟ فقال: «**لا إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[(١)].

فبطر الحق: جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس: النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم، ولا بأس بهذا إذا كان لله، وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراءً واستصغارًا منه لهم، فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة، وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكرًا، فإن شكره بتقواه وصيانته، ازداد جمالًا على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قلبه له شيئًا ظاهرًا في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحًا وشينًا ينفر عنه من رآه، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحًا وشينًا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

يا حسن الوجه توق الخنا ... لا تبدلن الزين بالشين

ويا قبيح الوجه كن محسنًا ... لا تجمعن بين قبيحين

وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرآة، فإن رأى صورته

(١) الحديث: رواه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٥١)، ومسلم في «صحيحه» «كتاب الإيمان» (١/ ١٤٧)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٨).

حسنة لم يشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل.

ولما كان الجمال من حيث هو محبوبًا للنفوس، معظمًا في القلوب، لم يبعث الله نبيًّا إلا جميل الصورة، حسن الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان النبي ﷺ أجمل خلق الله، وأحسنهم وجهًا كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سئل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا. بل مثل القمر[(١)].

وفي صفته ﷺ: كأن الشمس تجري في وجهه، يقول واصفه: لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقال ربيعة الجرشي: قسم الحسن نصفين: فبين سارة ويوسف نصف الحسن، ونصف الحسن بين سائر الناس، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه رأى يوسف ليلة الإسراء وقد أعطي شطر الحسن[(٢)]، وكان رسول الله. يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه حسن الاسم، وكان يقول: «**إذا أبردتم إليَّ بريدًا فليكن حسن الوجه حسن الاسم**»[(٣)].

ويذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان ينتظر نفرًا من أصحابه على الباب، فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته، ثم خرج إليهم، فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: «**نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال**»[(٤)].

---

(١) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٣٥٥٢).

(٢) الحديث: رواه البخاري في «صحيحه» (٣٨٨٧)، ومسلم في «صحيحه» «كتاب الإيمان» (١/ ٢٥٩).

(٣) الحديث: رواه البزار، والطبراني في الأوسط، وانظر «الصحيحة» (١١٨٦).

(٤) الحديث ورد بلفظ: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق....**» الحديث. رواه أحمد (١/ ٤٥١)،=

أيها العاصي! أنت في سجن الشيطان

إن العاصي دائمًا في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حالًا من أسير أسره أعدى عدو له ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات، وكلما نزل استوحشته الآفات، وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه، ولا بد وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم وهي أبعد من الراعي.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله[1].

=ومسلم «كتاب الإيمان» (١/ ١٤٧) وغيرهما.

(١) انظر: الداء والدواء لابن القيم الجوزية. بتحقيقي [ص ٩١، ٩٢] دار المنار وفياض.

أيها العاصي: معاصيك توجب القطيعة بينك وبين ربك

ومن أعظم عقوباتها[١]: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر، فأي: فلاح، وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرفة عين، ولابد له منه، ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه، وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٢] يقول سبحانه لعباده أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له، تكريمًا له وتشريفًا، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن

---

(١) المرجع السابق [٩٤-٩٥] بتحقيقي.

(٢) سورة الكهف: (٥٠).

المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال، وهذا لو لم يكن عدو الملك عدوًّا لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟ ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[١] كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[٢] فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلًا.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أَنِّي عَادَيْتُ إبليس إِذْ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة.

أَيُّهَا العاصي: مَعَاصِيكَ تُنْسِيكَ نَفْسَكَ حَتَّى تُهْلِكَهَا

ومن عقوباتها[٣]: أنها تنسي العبد نفسه، وإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه فأي شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ

(١) سورة الكهف: (٥٠).

(٢) سورة الكهف: (٥٠).

(٣) الجواب الكافي [ص/ ١١٧، ١١٨] بتحقيقي.

أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[١]، فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[٢].

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد: إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم. وأما إنساؤه نفسه: فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكل به، ينسيه ذلك جميعه، فلا يخطره بباله، ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضًا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها، فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضًا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضَيَّعَهَا، ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه

(١) سورة الحشر (١٩).

(٢) سورة التوبة: (٦٧).

غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

طويت الصحف وجفّت الأقلام

يا إخوان الغفلة تيقظوا، يا مقيمين على الذنوب انتهوا، واتعظوا. فبالله أخبروني: من أسوأ حالًا ممن استعبده هواه؟ أم من أخسر صفقة ممن باع آخرته بدنياه؟ فما للغفلة قد شملت قلوبكم؟ وما للجهالة قد سترت عنكم عيوبكم؟ أما ترون صوارم الموت بينكم لامعة، وقوارعه بكم واقعة، وطلائعه عليكم طالعة، وفجائعه لعذركم قاطعة، وسهامه فيكم نافذة، وأحكامه بنواصيكم آخذة؟ فحتى متى؟ وإلى متى؟ وعلام التخلف والمقام؟ أتطمعون في بقاء الأبد؟ كلا، والواحد الصمد إن الموت لبالرصد، ولا يبقى على والد ولا ولد، فجدوا، رحمكم الله، في خدمة مولاكم، وأقلعوا عن الذنوب فلعله يتولاكم.

ما للغافل إلى كم ينام؟ أما توقظ الليالي والأيام؟ أين مكان القصور والخيام؟ دار والله عليهم كأس الحمام فالتقطهم الموت كما يلتقط الحب والحمام.

ما لمخلوق فيها دوام، طويت الصحف، وجفت الأقلام، وأنشدوا:

دعوني على نفسي أنوح وأندب ... بدمع غزير وَاكِفٍ يتصبب

دعوني على نفسي أنوح لأنني ... أخاف على نفسي الضعيفة تعطب

فمن لي إذا نادى المنادي بمن عصى ... إلى أين ألجأ أم إلى أَيْنَ أذهب؟

فيا طول حزني ثم يا طول حسرتي ... إذا كنت في نار الجحيم أعذب!

وقد ظهرت تلك القبائح كلها ... وقد قرب الميزان والنار تلهب

ولكنني أرجو الإله لَعَلَّهُ ... بِحُسْنِ رجائي فيه يَتَوَهَّبُ[1]

---

(١) انظر «بحر الدموع» [ص/ ٣٧، ٣٨].

يَا مَنْ سَوّفَ بالمتاب حتَّى شاب

يا من سوف بالمتاب حتى شاب، يا من ضيع في الغفلة أيام الشباب، يا مطرودًا بذنوبه عن الباب، إذا كنت في الشباب غافلًا، وفي المشيب مسوفًا، متى تقف بالباب؟ كم عوملت على الوفاء؟ ما هكذا فعل الأحباب، الظاهر منك عامر، والباطن- ويحك- خراب، كم عصيان، كم مخالفة، كم رياء، كم حجاب، ولي طيب العمر في الخطايا، يا ترى تعود إلى الصواب؟! ما بعد الشيب لهو، كيف يجمل بالشيخ التصاب؟ أنت لو قَدَّمْتَ في متقادم عمرك الطاعة، لخفف عنك الحساب، كيف والعمر ولى في الغفلة وفي طلب الأسباب؟ إذا أنذرك المشيب بـ الرحلة، ولم تقدم الزاد ماذا يكون الجواب؟!. ليت شعري أهل المعاصي كيف عيشهم يطيب ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[1].

أفنيت عمرك في اللعب، وغيرك فاز بالمقصود، وأنت منه بعيد، غيرك على الجادة، وأنت من الشهوات في أوجال وتنكيد، ترى متى يقال: فلان استقال ورجع؟ يا له من وقت سعيد، متى تخرج من الهوى وترجع إلى مولاك العزيز الحميد، يا مسكين! لوعاينت قلق التائبين وتململ الخائفين من هول الوعيد، جعلوا قرة أعينهم في الصلاة، والزكاة، والتزهيد، وأهل الحرمان ضيعوا الشباب في الغفلة والشيب في الحرص والأمل المديد، لا بالشباب انتفعت، ولا عند المشيب ارتجعت، يا ضيعة الشباب والمشيب: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[2].

---

(١) سورة «سبأ» (٥١).

(٢) سورة «سبأ»: (٥١).

أفق من غفلتك يا سكران

إلى كم تمادى في غرور وغفلة ... وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى ... بملء السما والأرض أية ضيعة
أترضى من العيش الرغيد وعيشه ... مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة
فيا درة بين المزابل ألقيت ... وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
أفانٍ ببـاقٍ تشتريه سفاهة ... وسُخْطًا برضوانٍ ونارًا بجنة
أأنت صديق أم عدوٌّ لنفسه ... فإنك ترميها بكل مصيبة
ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما ... فعلت لمستهم لها بعض رحمة
لقد بعتها هونًا عليك رخيصة ... وكانت بهذا منك غير حقيقة
كلفت بها دنيا كثيرٍ غرورها ... تقابلنا في نصحها في الخديعة
عليك بما يجدي عليك من التُّقى ... فإنك في سهو عظيم وغفلة
تصلي بلا قلب صلاة بمثلها ... يكون الفتى مستوجبًا للعقوبة
تخاطبه إياك نعبد مقبلًا ... على غيره فيها لغير ضرورة
فويلك تدري من تناجيه معرضًا ... وبين يدي من تنحني غير مخبت
أيا عاملًا للنار جسمك لين ... فجربه تمرينًا بحر الظهيرة
ودربه في لسع الزنابير تجتري ... على نهش حيات هناك عظيمة
فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذي ... دعاك إلى إسخاط رب البرية
تبارزه بالمنكرات عشية ... وتصبح في أثواب نسك وعفة
تسيء به ظنًّا وتحسن تارة ... على حسب ما يقضي الهوى بالقضية

بِشَارَاتُ أَوْلِيَاء الرَّحْمَن

بشارات للمسلمين والمسلمات، للمؤمنين والمؤمنات، للمحسنين والمحسنات، للصَّالحين والصَّالحات، للموحدين والموحدات من المخبتين، الأتقياء، الأنقياء، الأبرار، الأطهار، الأخيار، ولم لا؟ والله جل وعلا يقول: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[١]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٢]، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[٣]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾[٤]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٦]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[٧]، ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٨]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[١٠]، ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١١].

- وبشارات للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟

(١) سورة «الكهف»: (٢).
(٢) سورة «الشورى»: (٢٣).
(٣) سورة «التوبه»: (٢١).
(٤) سورة «البقرة»: (٢٥).
(٥) سورة «البقرة»: (٢٢٣).
(٦) سورة «يونس»: (٢).
(٧) سورة «الحج»: (٣٤).
(٨) سورة «الحج»: (٣٧).
(٩) سورة «الأحزاب»: (٤٧).
(١٠) سورة «الزمر»: (١٧).
(١١) سورة «الصف»: (١٣).

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[1].

وبشارات للقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَالْقَٰنِتِينَ وَالْقَٰنِتَٰتِ وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَٰتِ وَالصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰبِرَٰتِ وَالْخَٰشِعِينَ وَالْخَٰشِعَٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ وَالصَّآئِمِينَ وَالصَّٰٓئِمَٰتِ وَالْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2].

وبشارات لهؤلاء الصابرين الذين ابتلوا بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَٰلِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[3].

وبشارات لعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا، وهم الذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، وهم الذين يستعيذون بالله من جهنم ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا

---

(١) سورة «فصلت»: (٣٠-٣٢).

(٢) سورة «الأحزاب»: (٣٥).

(٣) سورة «البقرة»: (١٥٥ - ١٥٧).

﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّو۟ا بِٱللَّغْوِ مَرُّو۟ا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُو۟ا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّو۟ا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُو۟ا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[1].

وبشارات لمن حسنت خاتمتهم، ورضي عنهم ربهم، من الشهداء والصالحين، وحسن الخاتمة بشارة ويالها من بشارة.

حسن الخاتمة

إن الشارع الحكيم قد جعل علامات بينات يُستَدَلُّ بها على حسن الخاتمة- كتبها الله لنا بفضله ومنته- فأيما امرئ مات بإحداها كانت بشارة له، ويالها من بشارة[2].

الأولى: نطقه بالشهادة عند الموت، وفيه أحاديث:

١- «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**».أخرجه الحاكم وغيره بسند حسن عن معاذ.

٢- وعن طلحة بن عبيد الله- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «.. **إني لأعلم كلمة**

---

(١) سورة «الفرقان»: (٦٣-٧٦).

(٢) انظر «أحكام الجنائز» للألباني [ص/ ٣٤-٤٣] بتصرف.

لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفس الله عنه كربته، قال: فقال عمر: إني لأعلم ما هي! قال: وما هي؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمةٍ أمر بها عَمَّهُ عند الموت: لا إله إلا الله؟ قال طلحة: صدقت، هي والله هي»[(١)].

الثانية: الموت برشح الجبين. لحديث: «موت المؤمن بعرق الجبين»[(٢)].

الثالثة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها، لقوله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة، أو ليلة الجمعة، إلا وقاه الله فتنة القبر»[(٣)].

الرابعة: الموت بالطاعون- لحديث: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[(٤)].

الخامسة: الموت بداء البطن، لحديث: «.. ومن مات في البطن فهو شهيد».

رواه مسلم وغيره، ولحديث: «من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره» رواه أحمد (٤/ ٢٦٢) بسند صحيح، والترمذي (٢/ ١٦٠) وحسنه، والنسائي (١/ ٢٨٩)، وغيرهم.

السادسة والسابعة: الموت بالغرق والهدم، لقوله ﷺ: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله »[(٥)].

الثامنة: موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها، لحديث: «... والمرأة يقتلها ولدها

---

(١) الحديث: أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٨٤) بسند صحيح، وابن حبان (٢) بنحوه، والحاكم (١/ ٣٥٠، ٣٥١) والزيادة له، وقال: «صحيح على شرطهما» ووافقه الذهبي.

(٢) الحديث: رواه أحمد (٥/ ٣٥٧، ٣٦٠) والسياق له، والنسائي (١/ ٢٥٩)، والترمذي (٢/ ١٢٨) وحسنه، وابن ماجه (١/ ٤٤٣/ ٤٤٤)، وابن حبان (٧٣٠)، والحاكم (١/ ٣٦١) وقال: صحيح على شرط «مسلم»، و«الطيالسي» (٨٠٨).

(٣) الحديث: رواه أحمد (٦٥٨٢-٦٦٤٦).

(٤) الحديث: رواه البخاري (١٠/ ١٥٦-١٥٧)، وأحمد (٣/ ١٥٠، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٥٨، ٢٦٥)، وغيرهما.

(٥) الحديث: رواه البخاري (٦/ ٣٣-٣٤)، ومسلم (٦/ ٥١)، وأحمد (٢/ ٣٢٥، ٥٣٣)، والترمذي (٢/ ١٥٩).

جمعاء شهادة، (يجرها ولدها بسرره إلى الجنة)»[١].

التاسعة والعاشرة: الموت بالحرق، وذات الجنب، لحديث: «...وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، ....الحديث»[٢].

الحادية عشر: الموت بداء السُّلّ، لقوله ﷺ: «...والسُّلُّ شهادة، ...»[٣].

الثانية عشر: الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه، لقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد»[٤].

الثالثة عشر، والرابعة عشر: الموت في سبيل الدفاع عن الدين والنفس، لحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد»[٥].

الخامسة عشر: الموت مرابطًا في سبيل الله، لحديث: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان».

رواه مسلم (٦/ ٥١)، وأحمد (٥/ ٤٤٠، ٤٤١)، والنسائي (٢/ ٦٣)، وغيرهم.

السادسة عشر: الموت على عمل صالح، لقوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله ابتغاء مرضاة الله ختم له بها دخل الجنة، ومن صام يومًا ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل

(١) الحديث: رواه أحمد (٤/ ٢٠١-٥/ ٣٢٣)، والدَّارمي (٢/ ٢٠٨)، والطيالسي (٥٨٢).

(٢) الحديث: رواه مالك (١/ ٢٣٢-٢٣٣)، وأبو داود (٢/ ٢٦)، والنسائي (١/ ٢٦١)، وابن ماجه (٢/ ١٨٥، ١٨٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١٦١٦-موارد)، والحاكم (١/ ٣٥٢)، وأحمد (٥/ ٤٤٦).

(٣) الحديث: قال في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣١٧-٥/ ٣٠١): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه مندل بن علي وقال الألباني: لكن يشهد له حديث راشد بن حبيش.

(٤) الحديث: رواه البخاري (٥/ ٩٣)، ومسلم (١/ ٨٧)، وأحمد (٦٨١٦، ٦٨٢٣، ٦٨٢٩)، وغيرهم.

(٥) رواه أحمد (١٦٥٢، ١٦٥٣)، وأبو داود (٢/ ٢٧٥)، وغيرهما.

الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة»[١].

السابعة عشر: الموت غازيًا في سبيل الله، لحديث: «... من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد..... الحديث»[٢]

الثامنة عشر: الاستشهاد في ساحة القتال، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ...﴾ [آل عمران: ١٦٩]. ولحديث: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويحلّى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه»[٣].

نماذج لبعض مَنْ حَسُنَتْ خَاتِمَتُهُم
بِشَارَاتُ الشُّهَدَاء والصَّالِحِين

العمر موسم تنافس فيه المتنافسون، وسابق إليه المتسابقون، وربح فيه عباد الله الصالحون، وأحرز قصب السبق فيه المجاهدون، الذين أخلصوا لله دينهم، وأسهروا ليلهم، وأظمأوا نهارهم، حتى فازوا بمرضاة رَبِّ العالمين.

وتجلت حكمة الله في حكمه ورحمته في خلقه وعدله في قضائه حين فرض القتال على المؤمنين في محكم كتابه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ...﴾ الآية[٤]. ثم رغب فيه، وحث عليه، إزالة لهذا الكره عن نفوس

---

(١) الحديث: رواه أحمد (٥/ ٣٩١) عن حذيفة بسند صحيح، وقال المنذري (٢/ ٦١): «لا بأس به».

(٢) الحديث: رواه مسلم (٦/ ٥١)، وأحمد (٢/ ٥٢٢).

(٣) الحديث: رواه أحمد (٤/ ١٣١) بسند صحيح، (٤/ ٢٠٠) من حديث عبادة، ومن حديث قيس الجزامي، وإسنادهما صحيح، والترمذي (٣/ ١٧) وصححه، وابن ماجه (٢/ ١٨٤).

(٤) سورة «البقرة»: (٢١٦).

أوليائه، وناداهم بأحب أوصافهم إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ...﴾ الآية[1].

ولما سمع تجار الآخرة هذا النداء الرباني، قاموا يزحفون إليه بلا توانٍ، حتى جاءهم داعي الحق يدفعهم إلى مبادرة تسليم الثمن الذي ليس لهم، وأخذ يذكرهم بما سبق قدمًا في الأزل بموجب إيمانهم من عقد البيع مع ربهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ...﴾ الآية[2].

فعرفوا أن النفس ليست لهم فقد باعوها، وسارعوا بتسليمها لصاحبها ليردها إليهم أحسن ما تكون وأحوج ما يكونون إليها[3].

يقول ابن القيم: (هم جند الله الذين يقيم بهم دينه، ويدفع بهم بأس أعدائه، ويحفظ بهم بيضة الإسلام، ويحمي بهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله، ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا ...).

ومما يجب اعتقاده: أن الأجل محتوم، وأن الرزق مقسوم، وأن ما أخطأ لا يصيب، وأن سهم المنية لكل أحد مصيب، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن ما قدر أزلًا لا يخشى فيه الفوت، وأن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الري الأعظم في شرب كؤوس الحتوف، وأن من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار، ومن أنفق دينارًا كتب بسبعمائة، وفي رواية بسبعمائة ألف دينار، وأن الشهداء حقًّا

---

(١) سورة «الصف»: (١٠-١٢).

(٢) سورة «التوبة»: (١١١).

(٣) انظر مقدمة مشارع الأشواق (١/ ٧، ٨) بتصرف.

عند الله من الأحياء، وأن أرواحهم في جوف طير خضر تتبوأ من الجنة حيث تشاء، وأن الشهيد يغفر له من جميع ذنوبه وخطاياه، وأنه يشفع في سبعين من أهل بيته، ومن والاه، وأنه آمن يوم القيامة من الفزع الأكبر، وأنه لا يجد كرب الموت ولا هول المحشر.

نماذج من هؤلاء

بسم الله رب الغلام:

عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني، وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلامًا لأعلمه السحر، فدفع إليه غلامًا كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، قال: فبينما هو ذات يوم إذْ أتى على دابةٍ فظيعة عظيمة قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر، قال: فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني: أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء، ويشفيهم، وكان للملك جليس، فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحدًا إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوتُ

الله فشفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك. من رَدَّ عليك بصرك فقال: ربي. فقال: أنا؟ قال: لا ربي وربك الله، قال: أولك ربٌّ غيري؟ قال: نعم ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الغلام، فبعث إليه، فقال: أي بني: بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحدًا إنما يشفي الله عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه أيضًا بالعذاب، فلم يزل به حتى دلَّ على الراهب، فأتى بالراهب، فقال: ارجع عن دينك؟ فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه إلى الأرض وقال للغلام، ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فدهدهوه، فذهبوا به، فلما علوا به إلى الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فأغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفينهم بما شئت، فغرقوا أجمعين، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو: قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جزع، وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل، ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في

صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك، فخدت فيها الأخاديد، وأضرمث فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه، فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[1].

فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا (الجنة)

عن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» قال عمير ابن الحمام: يا رسول الله: جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخ بخ؟ فقال رسول ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن ثم قال: إن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياةٌ طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[2].

يَا أَبَتِ إِنَّهَا الْجَنَّة

عن سليمان بن أبان، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر، أراد سعد بن خيثمة وأبوه أن يخرجا جميعًا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فأمرهما أن يخرج أحدهما، فاستهما،

---

(١) الحديث: رواه أحمد في مسنده، ومسلم في «صحيحه» (٣٠٠٥).

(٢) الحديث: رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٠١).

فخرج سهم سعد، فقال أبوه: آثرني بها يا بني، فقال سعد: يا أبت إنها الجنة، لو كان غيرها آثرتك به، فخرج سعد مع النبي ﷺ، فقتل يوم بدر، ثم قتل خيثمة من العام المقبل يوم أحد[١].

أقرأ عليكم السلام

وعن أبي بكر بن أبي موسى قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف، فقام رجلٌ رث الهيئة، فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فَضَرَبَ به حتى قُتِلَ»**[٢].

غَسَّلَتْهُ الْمَلائِكَةُ

وعن يحيى بن عباد بن عبد الله عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال[٣]: **سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل (حنظلة بن أبي عامر) بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة»** يعني حنظلة.

فسألوا صاحبته فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله ﷺ: **«لذلك غسلته الملائكة»**.

---

(١) انظر سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣/ ٢٣٢) بسند حسن.

(٢) الحديث: رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٠٢).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٩/ ٨٤) - (٦٩٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٠٤) وانظر «الصحيحة» (٣٢٦).

وعن أبي هريرة ﷺ قال:

«إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها فكان إذا تفرقوا عنها ظللتها الملائكة فقالت:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]

فكشف لها عن بيتها في الجنة»[2].

فَإِنَّ اللهَ يَرْزُقُكِ الشَّهَادَةَ

ذهبت أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث بن نوفل الأنصارية إلى رسول الله ﷺ لما غزا بدرًا فقالت: يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك، فأمرض مرضاكم، وأداوي جرحاكم، ولعل الله أن يرزقني شهادة.

فقال ﷺ: «قري في بيتك، فإن الله عز وجل يرزقك الشهادة».

فكانت تسمى الشهيدة، وقد استأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في دارها مؤذنًا، فأذن لها، وكانت دبرت غلامًا وجارية، فقاما إليها بالليل فغمياها بقطيفة لها حتى ماتت، وذهبا.

فأتى عمر بن الخطاب فقيل له: إن أم ورقة قد قتلها غلامها وجاريتها وهربا...، فقام عمر في الناس فقال: إن رسول الله ﷺ كان يزور أم ورقة ويقول: «انطلقوا نزور الشهيدة» وإن فلانة جاريتها وفلانًا غلامها غمياها ثم هربا، فلا يؤويهما أحد، ومن وجدهما فليأت بهما، فأتى بهما، فأمر بصلبهما، فكانا أول مصلوبين بالمدينة[3].

---

(١) سورة «التحريم»: (١١).

(٢) انظر «الصحيحة» (٢٥٠٨).

(٣) الحديث: رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٠٥)، وأبو داود في «سننه» (٥٩١).

«صَبْرًا آل ياسر فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ»

وسمية بنت خباط. مولاة أبي حذيفة بن المغيرة...، والدة عمار بن ياسر، كانت سابعة سبعة في الإسلام، عذبها أبو جهل على الإسلام، وهي تأبى غيره، حتى طعنها أبو جهل -لعنه الله- في قبلها بحربة فماتت.

وكان رسول الله ﷺ يمر بعمار وأمه وأبيه وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة فيقول: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن مجاهد قال: أول شهيدة في الإسلام سمية والدة عمار بن ياسر، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة، ولما قتل أبو جهل يوم بدر قال النبي ﷺ: «قتل الله قاتل أمك»[1].

نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنِّي أُقْتَل

بعد أن استشهد زوجها عكرمة بن أبي جهل ﷺ اعتدت أم حكيم زوجته أربعة أشهر وعشرًا، وكان يزيد بن أبي سفيان يخطبها، وكان أيضًا خالد بن سعيد بن العاص يعرض لها في خطبتها، فخطبت إلى خالد بن سعيد، فتزوجها على أربعمائة دينار، فلما نزل المسلمون في موقعة مرج الصفر، وكان خالد قد شهد أجنادين، وفحل ومرج الصفر أراد أن يدخل بأم حكيم، فقالت له: لو أخرت الدخول حتى يهزم الله هذه المجموعة؟

فقال: إن نفسي تحدثني أنِّي أقتل، فدخل بها عند القنطرة، ثم أصبح فأولم عليها ودعا أصحابه على طعام، فما فرغوا من الطعام حتى صفت الروم صفوفها صفوفًا

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٨٨)، و«الدلائل» للبيهقي (٢/ ٢٨٢)، وغيرهما.

خلف صفوف، ووقع القتال، وبرز خالد بن سعيد فقاتل حتى قتل، وشدت أم حكيم عليها ثيابها وتبدت وإن عليها أثر الخلوق، فاقتتلوا أشد القتال على النهر، وصبر الفريقان جميعًا، وقتلت أم حكيم يومئذٍ سبعة من الروم بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد معرسًا بها.

فِيك وَفِي رَسُولِكَ

عبد الله بن جحش، الصحابي الجليل، هو حامل أول لواء عقد في الإسلام، وأول مغنم قسم في الإسلام، شهد بدرًا فلما كان قبيل يوم أحد قال لسعد بن أبي وقاص: ألا تأتي فندعو؟

قال سعد: نعم.

قال سعد: فخلونا في ناحية، ثم دعا سعد ربه فقال: يا رب: إذا التقينا بالعدو غدًا فلقِّني رجلًا شديدًا بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، قال: فَأَمَّنَ عبد الله بن جحشٍ، ثم قال: اللهم ارزقني رجلًا شديدًا حرده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: يا عبد الله في من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد: فكانت دعوة عبد الله خيرًا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلق في خيط.

وفي رواية عن سعيد بن المسيب أن عبد الله بن جحش قال: اللهم أقسم عليك أن ألقى العدوَّ غدًا فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي، أو أذني، أو جميعًا.. ثم تسألني: فيم ذلك؟ فأقول: فيك.

قال سعيد بن المسيب: فإني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله[١].

ثَبَتَ على الْحَقِّ حَتَّى قُطِّعَ عُضْوًا عُضْوًا

بعث رسول الله ﷺ برسالة إلى مسيلمة الكذاب باليمامة، وحمل رسالة النبي حبيب ابن زيد بن عاصم المازني النجاري الأنصاري، فأخذه مسيلمة الكذاب - لعنه الله -، فجعل يقول له: أتشهد أن محمدًا رسول الله.

فيقول حبيب: نعم!

فيقول مسيلمة: أفتشهد أني رسول الله؟

فيقول حبيب: لا أسمع.

فجعل مسيلمة يقطعه عضوًا عضوًا حتى مات في يده، لا يزيده على ذلك؛ إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن به وصلى عليه، وإذا ذكر له مسيلمة قال: لا أسمع.

وكانت أمه نسيبة بن كعب رضي الله عنها من المجاهدات الصابرات، فنذرت أن لا يصيبها غسل حتى يقتل مسيلمة، فلما كان يوم اليمامة خرجت نسيبة رضي الله عنها ومعها ابنها عبد الله بن زيد، فقطعت يدها رضي الله عنها في تلك المعركة، أما ابنها عبد الله بن زيد فهو الذي ضرب مسيلمة الكذاب بسيفه مع وحشي فقتلاه معًا[٢].

هَذَا مِنِّي وأَنَا مِنْهُ

كانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيمٌ لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا؟

فجاء جليبيب إلى النبي ﷺ فعرض عليه التزويج، فقال جليبيب: يا رسول الله

(١) انظر «السنن الكبرى» للبيهقي (١٢٥٤٩).

(٢) انظر «نساء صالحات» للمؤلف [ص/ ٧٨- ٧٩] طبعة خاصة- دار النور.

تجدني كاسدًا. فقال ﷺ: «**لكنك لست عند الله بكاسد**».

ثم قال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: «**زوجني ابنتك**».

فقال الرجل: نعم وكرامة يا رسول الله، ونعمة عين.

فقال ﷺ: «**إني لست أريدها لنفسي**».

قال: فلمن يا رسول الله؟!

قال ﷺ: «**لجليبيب**».

فقال: يا رسول الله أشاور أمها.

فأتى أمها فقال: رسول الله يخطب ابنتك؟

فقالت: نعم ونعمة عين.

فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب.

فقالت: لعمر الله لا نزوجه.

فلما أراد الرجل أن يقوم إلى رسول الله ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها.

فقالت الجارية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

ثم قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟!، ادفعوني فإنه لن يضيعني.

وذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فدعا النبي ﷺ للجارية: «**اللهم صب عليها الخير صبًّا، ولا تجعل عيشها كدًّا كدًّا**».

ولما كانت إحدى غزوات النبي ﷺ ولما أفاء الله عليه بالنصر قال لأصحابه: «**هل تفقدون من أحد؟**».

قالوا: نفقد فلانًا، ونفقد فلانًا.

قال: «انظروا هل تفقدون من أحد؟».

قالوا: لا.

قال: «لكني أفقد جليبيبًا، فاطلبوه في القتلى».

فطلبوه، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله! هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه رسول الله ﷺ فقال:

«هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه» -مرتين أو ثلاثًا- ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه ﷺ غسله. فما كان في الأنصار أيم أنفق منها[1].

خبيب بن عدي[2]

كان مع عاصم بن ثابت ﷺ في يوم الرجيع، وهو الذي عذبه المشركون عذابًا شديدًا ثم قالوا له: أتحب أن محمدًا مكانك، وأنك معافًى في أهلك ومالك، فقال: والله ما أحب أنني معافًى في أهلي ومالي ويشاك محمد ﷺ بشوكة.

وفي ذلك قيل:

أسرت قريشٌ مسلمًا ... فمضى بلا وجلٍ إلى السَّيَّاف

سألوه هل يرضيك أنك سالم ... ولك النبي فدًى من الإتلاف

فأجاب كلَّا! لا سلمت من الردى ... ويصاب أنف محمدٍ برعاف

وكان عاصم بن ثابت ﷺ هو قاتل الحارث بن عامر، يوم بدر، فلما أسر في يوم الرجيع اشتراه بنو الحارث بن عامر، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسًى من بعض بنات الحارث يستحد بها فأعارته، قالت: فغفلت عن

(١) الحديث: رواه أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٢٢).

(٢) مواقف إيمانية (ص/ ٢٤٦- ٢٤٧) والرواية رواه البخاري (٧/ ٣٧٨- ٣٧٩)، وأبو نعيم (١/ ١١٢).

صبي لي فدرج إليه، فأتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك -إن شاء الله تعالى- وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمر، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقًا رزقه الله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصلي ركعتين ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزعًا من الموت لزدت فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو ثم قال: اللهم احصهم عددًا، ثم قال:

ولَسْتُ أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله.

مقتل سعيد بن جبير[1]

لما ولى خالد القسري مكة، جاء بعض أتباع سعيد بن جبير إليه وقالوا له: إن هذا الرجل قدم مكة وإنا والله، لا نأمنه عليك فاستجب لطلبنا، واخرج من هذا البلد، فقال: والله لقد فر [illegible] حتى حرت، أستحي من الله ولقد عزمت على أن أبقى في مكاني هذا وليفعل الله بي ما يشاء لم يكذب خالد ظن السوء الذي ظنه الناس به، فما أن علم بمكان سعيد بن جبير حتى أرسل إليه سرية من جنوده وأمرهم أن يسوقوه مقيدًا إلى الحجاج في مدينة «واسط» فأطبق الجند على بيت الشيخ وألقوا القيد في يديه على مرأى من بعض أصحابه، وآذنوه بالرحيل إلى

(١) انظر «صور من حياة التابعين» (ص/ ٢٨٨)، «والبداية والنهاية» (٩/ ٩٦-٩٨)، «شذرات الذهب» (١/ ١٠٨).

الحجاج، فتلقاهم هادئ النفس مطمئن القلب، ثم التفت إلى أصحابه وقال: ما أراني إلا مقتولًا على يدي ذلك الظالم ولقد كنت أنا وصاحبان لي في ليلة عبادة، فاستشعرنا حلاوة الدعاء فدعونا الله بما دعونا وتضرعنا إليه بما شاء أن نتضرع ثم سألنا الله جل وعز أن يكتب لنا الشهادة وقد رزقها الله لصاحبي كليهما وبقيت أنا أنتظرها.

ثم إنه ما كاد ينتهي من كلامه حتى طلعت عليه بنية صغيرة له، فرأته مقيدًا والجند يسوقونه فتشبثت به وجعلت تبكي وتنشج، فنحاها عنه برفق وقال لها: قولي لأمك يا بنية: إن موعدنا الجنة إن شاء الله ثم مضى.

بلغ الجند بالإمام الحبر العابد الزاهد، التقي النقي الورع مدينة «واسط» وأدخلوه على الحجاج، فما صار عنده نظر إليه في حقد وقال: ما اسمك؟

فقال: سعيد بن جبير.

فقال: بل شقي بن كسير.

فقال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

فقال: ما تقول في محمد؟

قال: تعني محمدًا بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟

فقال: نعم.

قال: سيد ولد آدم، النبي المصطفى.

خير من بقي من البشر وخير من اصطفى...

حمل الرسالة وأدى الأمانة... ونصح لله ولكتابه، ولعامة المسلمين وخاصتهم.

قال: فما تقول في أبي بكر؟

قال: هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ، ذهب حميدًا، وعاش سعيدًا ومضى على

منهاج النبي صلوات الله وسلامه عليه، لم يغير ولم يبدل.

قال: فما تقول في عمر؟

قال: هو الفاروق الذي فرق[١] الله به بين الحق والباطل ولقد مضى على منهاج صاحبيه.... فعاش حميدًا، وقتل شهيدًا.

قال: فما تقول في عثمان؟ قال: هو المجهز لجيش العسرة الحافر بئر رومة المشتري بيتًا في لنفسه في الجنة، صهرُ رسول الله ﷺ على ابنتيه ولقد زوجه النبي بوحي من السماء وهو المقتول ظلمًا. قال: فما تقول في علي؟! قال: ابن عم رسول الله ﷺ وأول من أسلم من الفتيان وهو زوج فاطمة البتول، وأبو الحسن والحسين، سيدي شباب أهل الجنة. قال: فأي خلفاء بني أمية أعجب لك؟

قال: أرضاهم لخالقهم: قال: فأيهم أرضى للخالق؟

قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم. قال: فما تقول فِيَّ؟.

قال: أنت أعلم بنفسك. قال: بل أريد علمك أنت. قال: إذن يسوءك ولا يسرك.

قال: لابد من أن أسمع منك. قال: إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى... تقدم على أمور تريد بها الهيبة، وهي تقحمك في الهلكة..... وتدفعك إلى النار دفعًا.

قال: أما والله لأقتلنك. قال: إذن تفسد علي دنياي، وأفسد عليك آخرتك.

قال: اختر لنفسك أي قتلة شئت. قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاج...

فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة. قال: أفتريد أن أغفر لك؟

---

[١] انظر في هذا المبحث للاستزادة «الجامع المتين في شتى أمور الدين» للمؤلف وشقيقه الشيخ/ محمود الزعبي [ص/ ١٢٢] طبعة خاصة.

قال: إن كان عفوٌ فمن الله تعالى..... أما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

واغتاظ الحجاج وقال: السيف والنطع يا غلام فتبسم سعيد، فقال له الحجاج وما تبسمك؟! قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك، فقال: اقتله يا غلام. فاستقبل القبلة وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فقال: أحرفوا وجهه عن القبلة. فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فقال: كبوه على الأرض. فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ فقال: اذبحوا عدو الله فما رأيت رجلًا أدعى منه لآيات القرآن، فرفع سعيد كفيه وقال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي.

لم يمض على مصرع سعيد بن جبير غير خمسة عشر يومًا حتى حم الحجاج واشتدت عليه وطأة المرض فكان يغفو ساعة ويفيق أخرى... فإذا غفا غفوة صغيرة، استيقظ مذعورًا وهو يصيح هذا سعيد بن جبير آخذ بخناقي.... هذا سعيد بن جبير يقول فيم قتلتني؟ ثم يبكي ويقول مالي ولسعيد بن جبير؟! ردوا عني سعيد بن جبير، فلما قضى نحبه وَوُورِيَ ترابه، رآه بعضهم في الحلم فقال له: ما فعل الله بك في من قتلتهم يا حجاج؟ فقال: قتلني الله بكل امرئ قتلة واحدة وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

مقتل حطيط الزَّيَّات

* حكي أن حطيطًا الزيَّات جيء به إلى الحجاج، فلمَّا دخل عليه قال: أنت حطيط؟

قال: نعم، سل عمَّا بدا لك، فإني عاهدتُ الله عند المقام على ثلاث خصال: إن سُئِلتُ لأصْدَقَنَّ، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيتُ لأشكرنَّ، قال: فما تقول فيَّ؟

قال: أقول: إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة. قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول: إنه أعظم جُرْمًا منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه. قال: فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب. قال: فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه، وشَدُّوه بالحبال، ثم جعلوا يمدُّون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئًا. قال: فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق، قال: أخرجوه فارموا به في السوق، قال جعفر: فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: حطيط، ألك حاجة؟ قال: شربة ماء، فأتوه بشربة ثم مات، وكان ابن ثمان عشرة سنة- رحمه الله[١].

قُبِلَ المهر وزُفَّت العروس

* حكاية أم إبراهيم الهاشمية[٢]- وهي حكاية مشهورة- حكاها جماعة منهم أبو جعفر أحمد ابن جعفر بن اللبان رحمه الله في كتابه المسمى «**تنبيه ذوي الأقدار على مسالك الأبرار**» قال: روي أنه كان بالبصرة نساء عابدات، وكانت منهن أم إبراهيم الهاشمية، فأغار العدو على ثغر من ثغور المسلمين، فانتدب النساء للجهاد، فقام عبد الواحد بن زيد البصري في الناس خطيبًا فحضهم على الجهاد، وكانت أم إبراهيم هذه حاضرة في مجلسه، وتمادى عبد الواحد في كلامه، ثم وصف الحور العين، وذكر ما قيل فيهن، وأنشد في صفة حوراء:

غـــادة ذات دلال ومـــرح ... يجـد الناعـت فيهـا مـا اقـترح

---

(١) انظر «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي- (٢/ ٥١٢-٥١٣) بتحقيقي. ط دار المنار، وفياض.

(٢) انظر «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام» في الجهاد وفضائله- لأبي زكريا أحمد بن إبراهيم بن محمد الدمشقي ثم الدمياطي- المشهور بابن النحاس- [١/ ٢١٥-٢١٨]، وانظر ترجمة أم إبراهيم في «صفة الصفوة» (٣/ ٣٨، ٣٩).

خلقت من كل شيء حسن ... طيب فالليت فيها مطرح
زانها الله بوجه جمعت ... فيه أوصاف غريبات الملح
وبعين كحلها من غُنْجِها ... وَبِخَدٍّ مِسْكُهُ فيه رشح
ناعم تجري على صفحته ... نضرةُ الملك ولألاءُ الفرح
أترى خاطبها يسمعها ... إذ تدير الكأس طورًا والقدح
في رياض مونق نرجسه ... كلما هب له الريح نفح
وهي تدعوه بودٍّ صادقٍ ... ملئ القلب به حتى طفح
يا حبيبًا لست أهوى غيره ... بالخواتيم يتم المُفْتَتَح
لا تكونن كمن جد إلى ... منتهى حاجته ثم جمح
لا فما يخطب مثلي من سها ... إنما يخطب مثلي من ألح

قال: فماج الناس بعضهم في بعض، واضطرب المجلس فوثبت أم إبراهيم من وسط الناس وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد ألست تعرف ولدي إبراهيم، ورؤساء أهل البصرة يخطبونه على بناتهم، وأنا أضن به عليهم، فقد والله أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عرسًا لولدي، فكرر ما ذكرت من حسنها وجمالها، فأخذ عبد الواحد في وصف حوراء، ثم أنشد:

تولد نور من نور وجهها ... فمازج طيب الطيب من خالص العطر
فلو وطئت بالنعل منها على الحصى ... لأعشبت الأقطار من غير ما قطر
ولو شئت عقد الخصر منها عقدته ... كغصن من الريحان ذو ورق خضر
ولو تفلت في البحر شهد رضابها ... لطاب لأهل البحر شرب من البحر
يكاد اختلاس اللحظ يجرح خدها ... بجارح وهم القلب من خارج السر

فاضطرب الناس أكثر فوثبت أم إبراهيم، وقالت لعبد الواحد: يا أبا عبيد! قد والله أعجبتني هذه الجارية، وأنا أرضاها عرسًا لولدي فهل لك أن تزوجه منها وتأخذ مني مهرها عشرة آلاف دينار، ويخرج معك في هذه الغزوة، فلعل الله يرزقه الشهادة، فيكون شفيعًا لي ولأبيه في القيامة؟ فقال لها عبد الواحد: لئن فعلت لتفوزن أنت وولدك، وأبو ولدك، فوزًا عظيمًا، ثم نادت ولدها: يا إبراهيم! فوثب من وسط الناس، وقال لها: لبيك يا أماه، قالت: أي بني أرضيت بهذه الجارية زوجة ببذل مهجتك في سبيله وترك العود في الذنوب؟ فقال الفتى: إي والله يا أماه رضيت أي رضًا، فقالت: اللهم إني أشهدك أني زوجت ولدي هذا من هذه الجارية ببذل مهجته في سبيلك، وترك العود في الذنوب فتقبله مني يا أرحم الراحمين، قال: ثم انصرفت فجاءت بعشرة آلاف دينار، وقالت: يا أبا عبيد! هذا مهر الجارية تجهز به، وجهز الغزاة في سبيل الله، وانصرفت، فابتاعت لولدها فرسًا جيدًا، واستجادت له سلاحًا، فلما خرج عبد الواحد، خرج إبراهيم يعدو، والقراء حوله يقرءون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

قال: فلما أرادت فراق ولدها دفعت إليه كفنًا وحنوطًا وقالت له: أي بني! إذا أردت لقاء العدو فتكفن بهذا الكفن، وتحنط بهذا الحنوط، وإياك أن يراك الله مقصرًا في سبيله، ثم ضمته إلى صدرها، وقبلت بين عينيه، وقالت: يا بني! لا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه في عرصات القيامة، قال عبد الواحد: فلما بلغنا بلاد العدو، ونودي في النفير وبرز الناس للقتال برز إبراهيم في المقدمة، فقتل من العدو خلقًا كثيرًا، ثم اجتمعوا عليه فقتل، قال عبد الواحد: فلما أردنا الرجوع إلى

(١) سورة «التوبة»: (١١١).

البصرة قلت لأصحابي: لا تخبروا أم إبراهيم بخبر ولدها حتى ألقاها بحسن العزاء لئلا تجزع فيذهب أجرها، قال: فلما وصلنا البصرة خرج الناس يتلقوننا، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج، قال عبد الواحد: فلما بصرت بي قالت: يا أبا عبيد هل قبلت مني هديتي فأهنأ، أم ردت علي فأعزى؟ فقلت لها: قد قبلت والله هديتك إن إبراهيم حيٌّ مع الأحياء يرزق، قال: فخرت ساجدة لله شكرًا، وقالت: الحمد لله الذي لم يخيب ظني وتقبل نسكي مني، وانصرفت، فلما كان من الغد أتت إلى مسجد عبد الواحد، فنادته: السلام عليك يا أبا عبيد، بشراك، فقال: لازلت مبشرة بالخير، فقالت له: رأيت البارحة ولدي إبراهيم في روضة حسناء وعليه قبة خضراء، وهو على سرير من اللؤلؤ، وعلى رأسه تاج وإكليل وهو يقول يا أماه! أبشري فقد قبل المهر، وزُفَّت العروس.

يَا أُمَّ الْفَارِسِ الصَّغِيرِ: قَدْ قَبِلَ اللهُ هَدِيَّتَكِ

حكي أنه كان بمدينة رسول الله ﷺ رجل يقال له[1]: أبو قدامة الشامي، وكان قد حبب الله إليه الجهاد في سبيل الله تعالى والغزو إلى بلاد الروم، فجلس يومًا في مسجد رسول الله ﷺ يتحدث مع أصحابه فقالوا له: يا أبا قدامة حدثنا بأعجب ما رأيته في الجهاد قال: نعم، إني دخلت في بعض السنين الرقة أطلب جملًا أشتريه ليحمل سلاحي، فبينا أنا يومًا جالس، إذ دخلت علي امرأة فقالت: يا أبا قدامة سمعتك وأنت تحدث عن الجهاد وتحث عليه وقد رزقت من الشعر ما لم يرزقه غيري من النساء، وقد قصصته وأصلحت منه شكالًا للفرس وعفرته بالتراب لئلا ينظر إليه أحد، وقد أحببت أن تأخذه معك فإذا صرت في بلاد الكفار

(١) انظر «مشارع الأشواق» - مرجع سابق [١/ ٢٨٥-٢٩٠]، وانظر «صفة الصفوة» [٢/ ٢١٨].

وجالت الأبطال ورميت النبال وجردت السيوف وشرعت الأسنة، فإن احتجت إليه وإلا فادفعه إلى من يحتاج إليه ليحضر شعري ويصيبه الغبار في سبيل الله، فأنا امرأة أرملة كان لي زوج وعصبة كلهم قتلوا في سبيل الله ولو كان على جهاد لجاهدت قال: وناولتني الشكال.

وقالت: اعلم يا أبا قدامة أن زوجي لما قتل خلف لي غلًاما من أحسن الشباب وقد تعلم القرآن والفروسية ورمي القوس، وهو قوام بالليل صوام بالنهار، وله من العمر خمس عشرة سنة، وهو غائب في ضيعة خلفها له أبوه فلعله يقدم قبل مسيرك فأوجهه معك هدية إلى الله عز وجل، وأنا أسألك بالله لا تحرمني ما طلبت من الثواب، قال: فأخذت الشكال منها فإذا هو مضفور من شعر رأسها، فقالت: ألقه في بعض رحلك وأنا أنظر إليه ليطمئن قلبي، قال: فطرحته في رحلي وخرجت من الرقة ومعي أصحابي، فلما صرنا عند حصن مسلمة بن عبد الملك إذا بفارس يهتف من ورائي: يا أبا قدامة قف علي قليلًا يرحمك الله فوقفت وقلت لأصحابي: تقدموا أنتم حتى أنظر من هذا، وإذا بالفارس قد دنا مني وعانقني، وقال: الحمد لله الذي لم يحرمني صحبتك ولم يردني خائبًا، قلت: حبيبي أسفر لي عن وجهك، فإن كان يلزم مثلك غزو أمرتك بالمسير، وإن لم يلزمك غزو رددتك، فأسفر عن وجهه فإذا غلام كأنه القمر ليلة البدر وعليه آثار النعمة قلت: حبيبي لك والد؟ قال لا، بل أنا خارج معك أطلب ثأر والدي، لأنه استشهد فلعل الله أن يرزقني الشهادة كما رزق أبي، قلت: حبيبي لك والدة: قال: نعم، قلت: اذهب إليها واستأذنها فإن أذنت وإلا فأقم عندها، فإن طاعتك لها أفضل من الجهاد لأن الجنة تحت ظلال السيوف وتحت أقدام الأمهات.

قال: يا أبا قدامة أما تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا ابن صاحبة الوديعة، ما أسرع

ما نسيت وصية أمي صاحبة الشكال، وأنا إن شاء الله الشهيد ابن الشهيد، سألتك بالله لا تحرمني الغزو معك في سبيل الله، فإني حافظ لكتاب الله، عارف بسنة رسول الله ﷺ عارف بالفروسية والرمي، وما خلفت ورائي أفرس مني، فلا تحقرني لصغر سني، وإن أمي قد أقسمت علي أن لا أرجع، وقالت: يا بني إذا لقيت الكفار فلا تولهم الدبر، وهب نفسك لله واطلب مجاورة الله ومجاورة أبيك مع أخوالك الصالحين في الجنة، فإذا رزقك الله الشهادة فاشفع فيَّ، فإنه قد بلغني أن الشهيد يشفع في سبعين من أهله، ثم ضمتني إلى صدرها، ورفعت رأسها إلى السماء، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي، هذا ولدي، وريحانة قلبي، وثمرة فؤادي سلمته إليك فقربه من أبيه.

قال: فلما سمعت كلام الغلام، بكيت بكاء شديدًا أسفًا على حسنه، وجمال شبابه، ورحمة لقلب والدته، وتعجبًا من صبرها عنه، فقال: يا عم مم بكاؤك؟ إن كنت تبكي لصغر سني، فإن الله يعذب من هو أصغر مني إذا عصاه، قلت: لم أبك لصغر سنك، ولكن أبكي لقلب والدتك، كيف تكون بعدك، قال: فسرنا ونزلنا تلك الليلة، فلما كان الغداة رحلنا، والغلام لا يفتر من ذكر الله تعالى، فتأملته، فإذا هو أفرس منا إذا ركب، وخادمنا إذا نزلنا منزلًا، وصار كلما سرنا يقوى عزمه، ويزداد نشاطه، ويصفو قلبه، وتظهر علامات الفرح عليه.

قال: فلم نزل سائرين حتى أشرفنا على ديار المشركين عند غروب الشمس، فنزلنا فجلس الغلام يطبخ لنا طعامًا لإفطارنا، وكنا صيامًا فغلبه النعاس فنام نومة طويلة، فبينما هو نائم إذ تبسم في نومه، فقلت لأصحابي: ألا ترون إلى ضحك هذا الغلام في نومه؟ فلما استيقظ، قلت: حبيبي رأيتك الساعة تبتسم في منامك ضاحكًا قال: رأيت رؤيا فأعجبتني وأضحكتني، قلت: ما هي؟ قال:

رأيت كأني في روضة خضراء أنيقة، فبينما أنا أجول فيها، إذ رأيت قصرًا من فضة، شرفه من الدر والجوهر، وأبوابه من الذهب، وستوره مرخية، وإذا جوارٍ يرفعن الستور، وجوههن كالأقمار، فلما رأينني، قلن لي: مرحبًا بك، فأردت أن أمد يدي إلى إحداهن، فقالت: لا تعجل ما آن لك، ثم سمعت بعضهن يقلن لبعض: هذا زوج المرضية، فقلن لي: تقدم يرحمك الله، فتقدمت أمامي، فإذا في أعلى القصر غرفة من الذهب الأحمر عليها سرير من الزبرجد الأخضر، قوائمه من الفضة البيضاء، عليه جارية وجهها كأنه الشمس، لولا أن الله ثبت علي بصري لذهب، وذهب عقلي، من حسن الغرفة وبهاء الجارية، قال: فلما رأتني الجارية، قالت: مرحبًا وأهلًا وسهلًا يا ولي الله وحبيبه، أنت لي وأنا لك، فأردت أن أضمها إلى صدري، فقالت: مهلًا لا تعجل، فإنك بعيد من الخنا، وإن الميعاد بيني وبينك غدًا عند صلاة الظهر، فأبشر، قال أبو قدامة: فقلت له: حبيبي رأيت خيرًا وخيرًا يكون.

ثم بتنا متعجبين من منام الغلام، فلما أصبحنا تبادرنا فركبنا خيولنا، فإذا المنادي ينادي يا خيل الله اركبي، وبالجنة أبشري: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[1]، فما كان إلا ساعة وإذا جيش الكفر -خذله الله- قد أقبل كالجواد المنتشر فكان أول من حمل مِنَّا فيهم الغلام، فبدد شملهم وفرق جمعهم، وغاص في وسطهم، فقتل منهم رجالًا وجندل أبطالًا، فلما رأيته كذلك، لحقته فأخذت بعنان فرسه، وقلت: يا حبيبي ارجع فأنت صبي ولا تعرف خدع الحرب، فقال: يا عم! ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾[2]، أتريد أن

---

(١) سورة «التوبة»: (٥١).

(٢) سورة «الأنفال»: (١٥).

أدخل النار.

فبينا هو يكلمني إذ حمل علينا المشركون حملة رجل واحد، فحالوا بيني وبين الغلام ومنعوني منه، واشتغل كل واحد بنفسه، وقتل خلق كثير من المسلمين، فلما افترق الجمعان، إذا القتلى لا يحصون عددًا، فجعلت أجول بفرسي بين القتلى، ودماؤهم تسيل على الأرض، ووجوههم لا تعرف من كثرة الغبار والدماء.

فبينا أنا أجول بين القتلى، إذ أنا بالغلام بين سنابك الخيل، قد علاه التراب وهو يتقلب في دمه ويقول: يا معشر المسلمين، بالله ابعثوا لي عمي أبا قدامة، فأقبلت إليه عندما سمعت صياحه، فلم أعرف وجهه لكثرة الدماء والغبار ودوس الدواب، فقلت: ها أنا أبو قدامة، قال: يا عم صدقت الرؤيا ورب الكعبة، أنا ابن صاحبة الشكال، فعندها رميت بنفسي عليه فقبلت بين عينيه، ومسحت التراب والدم عن محاسنه، وقلت: يا حبيبي لا تنس عمك أبا قدامة اجعله في شفاعتك يوم القيامة، فقال: مثلك لا ينسى، تمسح وجهي بثوبك؟ ثوبي أحق به من ثوبك، دعه يا عم حتى ألقى الله تعالى به، يا عم هذه الحور التي وصفتها لك قائمة على رأسي، تنتظر خروج روحي وتقول لي: عجل فأنا مشتاقة إليك.

بالله يا عم إن ردك الله سالمًا، فتحمل ثيابي هذه المضمخة بالدم لوالدتي المسكينة الثكلى الحزينة، وتسلمها إليها، لتعلم أني لم أضيع وصيتها، ولم أجبن عند لقاء المشركين، واقرأ مني السلام عليها، وقل لها: إن الله قد قبل الهدية التي أهديتها، ولي يا عم أخت صغيرة، لها من العمر عشر سنين، كنت كلما دخلت استقبلتني تسلم عَلَيَّ، وإذا خرجت تكون آخر من يودعني، وإنها ودعتني عند مخرجي هذا، وقالت لي: بالله يا أخي لا تبطئ عنا، فإذا لقيتها فاقرأ عليها مني السلام وقل لها: يقول لك أخوك: الله خليفتي عليك إلى يوم القيامة، ثم تبسم وقال: أشهد أن لا

إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ثم خرجت روحه، فكفناه في ثيابه، وواريناه.

قال أبو قدامة: فلما رجعنا من غزوتنا تلك ودخلنا الرقة، لم تكن لي همة إلا دار أم الغلام، فإذا جارية تشبه الغلام في حسنه وجماله، وهي قائمة بالباب وكل من مَرَّ بها تقول: يا عم من أين جئت؟ فيقول: من الغزاة، فتقول: أما رجع معكم أخي؟ فيقولون: لا نعرفه، فلما سمعتها تقدمت إليها. فقالت لي: يا عم من أين جئت؟ قلت: من الغزو، قالت: أما رجع معكم أخي؟ ثم بكت وقالت: ما بالي أرى الناس يرجعون، وأخي لم يرجع، فغلبتني العبرة، ثم تجلدت خشية على الجارية.

ثم قلت لها: يا جارية قولي لصاحبة المنزل: كلمي أبا قدامة فإنه على الباب، فسمعت المرأة كلامي، فخرجت إليَّ وقد تغير لونها، فسلمت عليها فردت السلام وقالت: أمبشرًا أنت يا أبا قدامة أم معزيًا؟ قلت: بيني لي البشارة من التعزية رحمك الله، قالت: إن كان ولدي رجع سالمًا فأنت معز، وإن كان قتل في سبيل الله فأنت مبشر، فقلت: أبشري فقد قبل الله هديتك فبكت وقالت: قبلها؟ قلت: نعم، فقالت: الحمد لله الذي جعله ذخيرة لي يوم القيامة.

قلت: فما فعلت الجارية أخت الغلام؟ قالت: هي التي كانت تكلمك الساعة، فتقدمت إليّ، فقلت لها: إن أخاك يسلم عليك ويقول لك: الله خليفتي عليك إلى يوم القيامة، فصرخت وخرَّت على وجهها مغشيًّا عليها، فحركتها بعد ساعة، فإذا هي ميتة، فتعجبت من ذلك، ثم سلمت ثياب الغلام التي كانت معي لأمه وودعتها، وانصرفت حزينًا على الغلام والجارية، ومتعجبًا من صبر أمهما.

أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَجَلِي بِأَرْضِ الرُّومِ

عن عبد الله بن محيريز، عن أبيه، أنه كان في بعث الصائفة فمرض مرضًا شديدًا فقال: يا بني احملني فَسِرْ بي إلى أرض الروم، قال: فحملته فلم أزل أسير به وهو يقول: يا بني أسرع بي السير، قلت: يا أبت إنك شاكٍ، قال: يا بني إني أحب أن يكون أجلي بأرض الروم، فما زلت أسير به حتى هلك بأرض حمص.

وفي رواية قال: فلما مات همنى من يصلي عليه، فرأيت على جنازته صفوفًا لا أعرفهم[١].

قال المؤلف عفا الله عنه: محيريز هذا، هو ابن جنادة بن وهب الجمحي، صحابي مشهور، وابنه عبد الله من كبار أئمة التابعين[٢].

انْتَشَرَتْ أَمْعَاؤُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ

وروى ابن المبارك عن مسعر قال: سمعت عون بن عبد الله يحدث أن رجلًا مَرَّ عليه يوم القادسية وقد انتشر قصبه (أي أمعاؤه) فقال لبعض من مَرَّ عليه ضم إليّ منه، لعلِّي أدنو في سبيل الله قيد رمح أو رمحين، قال: فَمَرَّ عليه وقد دنا قيد رمح أو رمحين[٣].

احْفُرُوا لِي قَبْرًا ثُمَّ سَوُّوه

وقال ابن الذهبي الحافظ: روى قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه قال: أَتَيْتُ مصر فرأيتهم قد قفلوا من غزوهم - يعني القسطنطنية - فأخبروني أنه لما كان عند

(١) المرجع السابق (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) انظر «الإصابة» (٣/ ٣٨٨).

(٣) انظر «مشارع الأشواق» مرجع سابق (١/ ٢٣٢).

انقضاء مغزاهم بحيث يراهم العدو احتضر أبو أيوب الأنصاري ﷺ، فقال: إذا قبضت، فلتركبوا الخيل، ثم القوا العدو فيردونكم حتى لا تجدوا متقدمًا فاحفروا لي حينئذ قبرًا ثم ادفنوني، ثم سووه، ولتطأ الخيل والرجال عليه حتى لا يعرف[(١)].

كَانَ يُسْمَعُ مِنْ جَسَدِهِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ

أبو بكر النابلسي[(٢)]

قال أبو ذر الحافظ: سجنه بنو عبيد، وصلبوه على السنة، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي، ويقول: كان يقول وهو يسلخ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[(٣)].

قال ابن الجوزي: أقام جوهر القائد لابن تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجب أن يرمي في الروم سهمًا وفينا تسعة، قال: ما قلت هذا، إذا كان معه عشرة أسهم، وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا فإنكم غيرتم الملة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الألوهية، فشهره ثم ضربه ثم أمر يهوديًّا فسلخه.

قال معمر بن أحمد بن زياد الصوفي: أخبرني الثقة أن أبا بكر سلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يذكر الله ويصبر، حتى بلغ الصدر فرحمه السلاخ، فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه، وأخبرني الثقة أنه كان إمامًا في الحديث والفقه

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٣٢، ٢٣٣)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤١٢).

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١٤٨، ١٤٩)، وانظر «الجزاء من جنس العمل» (ص/ ٣٣٧).

(٣) سورة «الإسراء»: (٥٨).

صائم الدهر، كبير الصولة عند العامة والخاصة، ولما سلخ كان يسمع من جسده قراءة القرآن.

البخاري[١]

لما رجع أبو عبد الله البخاري إلى بخارى، نصبت له القباب على فرسخ من البلد، واستقبله عامة أهل البلد، حتى لم يبق مذكور، ونثر عليه الدراهم والدنانير، فبقي مدة، ثم وقع بينه وبين الأمير، فأمره بالخروج من بخارى، فخرج إلى بيكند.

وقال غنجار في تاريخه: سمعت أحمد بن محمد بن عمر يقول: سمعتُ بكر بن منير يقول: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليّ كتاب الجامع والتاريخ لأسمع منك، فقال محمد بن إسماعيل لرسوله: قل له إني لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضرني في مسجدي أو في داري، فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم قال: فكان سبب الوحشة بينهما.

وقال الحاكم: سمعت محمد بن العباس الضبي يقول: سمعت أبا بكر بن أبي عمرو يقول: كان سبب مفارقة أبي عبد الله البخاري البلد أن خالد بن أحمد خليفة ابن طاهر سأله أن يحضر منزله فيقرأ التاريخ على أولاده فامتنع من ذلك، وقال لا يسعني أن أخص بالسماع قومًا دون قوم آخرين، فاستعان خالد بحريث بن أبي

---

(١) انظر «هدى الساري مقدمة فتح الباري» (ص/ ٧٢٨- ٧٣٠) ط- دار مصر للطباعة، وانظر «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٦٨)، و«تاريخ بغداد» (٢/ ٣٤).

الورقاء وغيره من أهل بخارى حتى تكلموا في مذهبه فنفاه عن البلد قال: فدعا عليهم فقال: اللهم أرهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهاليهم، قال: فأما خالد فلم يَأْتِ عليه إلا أقل من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادى عليه فنودي عليه وهو على أتان وأشخص على أكاف ثم صار عاقبة أمره إلى الذل والحبس، وأما حريث بن أبي الورقاء فإنه ابتلي في أهله فرأى فيها ما يجل عن الوصف، وأما فلان فإنه ابتلي في أولاده فأراه الله فيهم البلايا.

وقال ابن عدي: سمعت عبد القدوس بن عبد الجبار يقول: خرج البخاري إلى خرتنك -قرية من قرى سمرقند- وكان له بها أقرباء فنزل عندهم قال: فسمعته ليلة من الليالي وقد فرغ من صلاة الليل يقول في دعائه: اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك، قال: فما تم الشهر حتى قبضه الله.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه البخاري بخرتنك يقول: إنه أقام أيامًا فمرض حتى وجه إليه رسول من أهل سمرقند يلتمسون منه الخروج إليهم فأجاب وتهيأ للركوب، ولبس خفيه وتعمم، فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها إلى الدابة ليركبها وأنا آخذ بعضده قال: أرسلوني فقد ضعفت فأرسلناه، فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى، ثم سال منه عرق كثير، وكان قد قال لنا: كفنوني في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ففعلنا فلما أدرجناه في أكفانه وصلينا عليه ووضعناه في حفرته فاح من تراب قبره رائحة طيبة كالمسك ودامت أيامًا، وجعل الناس يختلفون إلى القبر أيامًا يأخذون من ترابه إلى أن جعلنا عليه خشبًا مشبكًا.

وقال الخطيب: أخبرنا علي بن أبي حامد في كتابه أخبرنا محمد بن محمد بن مكي

سمعت عبد الواحد بن آدم الطواويسي يقول: رأيت النبي ﷺ في النوم ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت: ما وقوفك هنا يا رسول الله قال: «**انتظر محمد بن إسماعيل**»، قال: فلما كان بعد أيام بلغني موته، فنظرت، فإذا هو قد مات في الساعة التي رأيت فيها النبي ﷺ.

ابن تيمية

* إن شيخ الإسلام ابتلي بلاء شديدًا ولكن السجن لا يحجب نور الإيمان. يقول ابن تيمية: لو يعلمون ما أسدي إلي من الجميل بسجنهم إياي في القلعة، ما كافأتهم عليه بملء القلعة ذهبًا[1].

وجعل يردد قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[2].

وكان -رحمه الله- يقول: ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي، إن معي كتاب الله وسنة نبيه، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن نفوني فنفيي سياحة، وإن سجنوني، فأنا في خلوة مع ربي، إن المحبوس من حبس عن ربه، والأسير من أسره هواه.

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين، أو إحدى وثمانين ختمة، انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] ثم كملت عليه بعد وفاته، وهو مسجى، ودخل عليه حفاظ الحديث لتغسيله، ومنهم الحافظ المزي، وازدحم الخلق على باب القلعة

(١) انظر ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر «الجزاء من جنس العمل» (ص/ ١٠٠، ١٠١)

(٢) سورة «الحديد»: (١٣).

والطرقات، وامتلأ جامع دمشق وصلوا عليه، وحضرها نساء كثير، حزرن بخمسة عشر ألفًا، وأما الرجال؛ فحزروا بستين ألفًا، وأكثر إلى مائتي ألف، وأغلق الناس حوانيتهم، وكانت جنازته ثاني جنازة بعد جنازة إمام أهل السنة، وصدق ابن حنبل حين قال: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز، وما استطاع ساجنوه أن يخرجوا يوم موته؛ خوفًا من بطش العامة بهم، فصاروا هم السجناء في يوم موته، يا لذلهم ويا لعزه!! ويرحم الله من قال يوم موته يرثيه:

بكت السماء عليه يوم فراقه ... أسفًا وجاء الغيث والأمطار

وبكى الشام ومدنه وبقاعه ... حَفَّتْ به من ربه الأنوار

والناس من باك عليه بِحَرَّةٍ ... ودموعهم فوق الخدود غزار

وهم ألوف ليس يحصى جمعهم ... إلا إِلٰهٌ غافر سَتَّار

ما كان إلا شامة في شامنا ... وعليه من تقوى الإله شعار

ويقول الشيخ مجير الدين الخياط الدمشقي، في رثاء ابن تيمية:

خشعت لهيبة نعشك الأبصار ... لما عليه تَبَدَّتِ الأنوار

ولأُمَّةُ الإسلام حول سريره ... سَامٍ إلى رب السماء جوار

كان المهات زفاف عرس حياته ... وبه النفوس مع الدموع تثار

قد كان مغناطيس أفئدة الورى ... أنَّسا ولكن في القليل نَفَار

والناس أمثال الجراد لهم على التـ ... ـابوت منه تهافت ودوار

فكأنه يَعْسُوبُ نحل نحوه ... حيًّا وميتًا للنفوس مطار

يفنى الزمانُ وينقضي وبأحمدٍ ... وحديثه تتحدث السُّمَّار

يرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية، أرادوا محو اسمه من الوجود، وأراد الله أن تتحدث السُّمار بحديثه، سجنوه، فسجنوا هم، وطارت بذكره الأخبار، حرقوا كتبه حتى لا تصل إلى العامة، وتمالأت على ذلك دول وعصور فما كان من أمره؟

لصدقه وإخلاصه؛ ما من صقع، أو نجع، أو كَفْرٍ، إلا وفيه كتب شيخ الإسلام وأتاح الله لها من الانتشار ما لم يتح لغيرها.

لعلَّ الله يَجْمَعُنِي بِهِمَا فِي الْجَنَّةِ

وعن عمران بن خالد قال: حدثتني أم الأسود بنت زيد العدوية وكانت معاذة، وقد أرضعتها قالت: قالت لي معاذة لما قُتِلَ أبو الصهباء، وقُتِلَ ولدها، والله يا بنية ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيذ عيش ولا لروح نسيم، ولكن والله أحب البقاء لأتقرب إلى ربي عز وجل بالوسائل لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولده في الجنة.

وعن روح بن سلمة الوراق قال: سمعت عفيرة العابدة تقول: بلغني أن معاذة العدوية لما احتضرها الموت بكت ثم ضحكت، فقيل لها: مم بكيت ثم ضحكت؟ فمم البكاء ومم الضحك؟ قالت: أما البكاء الذي رأيتم فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء لذلك، وأما الذي رأيتم من تبسمي وضحكي فإني نظرت إلى أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حلتان خضراوان وهو في نفر والله ما رأيت لهم في الدنيا شبهًا فضحكت إليه، ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضًا.

قال: فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة[1].

---

(١) انظر كتابنا «فرسان في ساحات الوغى» [ص/ ٦٢].
طبعة خاصة، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٥، ٢٩٦).

هَكَذَا صِفَةُ الْخَائِفِينَ من الله

قال منصور بن عمار: خرجتُ ذات ليلة، فظننتُ أني قد أصبحت، فإذا عليَّ لَيلٌ، فقعدتُ عند باب صغير، فإذا بصوت شاب يبكي ويقول: وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وقد عصيتك حين عصيتك وما أنا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولا بنظرك مستخف، ولكن سوَّلَت لي نفسي، وغلبتني شقوتي، وغرَّني سترك المرخي عليّ، عصيتك بجهلي، وخالفتك بجهدي، فالآن من عذابك من ينقذني؟ وبحبل من أتصل إن قطعت حبلك عنّي؟ واسوأتاه على ما مضى من أيامي في معصية ربي. يا ويلي! كم أتوب وكم أعود، قد حان لي أن أستحي من ربِّي عزَّ وجلَّ. قال منصور: فلما سمعت كلامه قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ الآية[1].

فسمعتُ صوتًا واضطرابًا شديدًا، فمضيت لحاجتي، فلمَّا أصبحتُ رجعتُ وأنا بجنازة على الباب، وعجوز تذهب وتجيء، فقلت لها: من الميت؟ فقالت: إليك عنّي لا تجدد عليَّ أحزاني، فقلت: إني رجلٌ غريب. فقالت: هذا ولدي، وقد مرَّ بنا البارحة رجلٌ لا جزاه الله خيرًا، فقرأ آية فيها ذكر النار، فلم يَزَل ولدي يضطرب ويبكي حتى مات. قال منصور: هكذا والله صفة الخائفين من الله[2].

* * *

(١) سورة «التحريم»: (٦).

(٢) انظر كتابنا «الخائفون من الله» [ص/ ٣٨] ط الإيمان- المنصورة.

حسن خاتمة

وحكي عن عبد الواحد بن زيد، قال: كنت في مركب، فطرحتنا الريح إلى جزيرة وإذا فيها رجل يعبد صنمًا. فقلنا له يا رجل! من تعبد فأومأ إلى الصنم. فقلنا: إن معنا في المركب من يسوي مثل هذا وليس هذا إلهًا يعبد. قال: فأنتم من تعبدون؟ قلنا: الله قال: وما الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الأحياء والأموات سبيله ، وفي الجنة نعيمه ، وفي النار عقابه، وقد أرسل إلينا رسولاً فأخبر بذلك. قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: وجه إلينا هذا الملك رسولًا كريمًا فأخبر بذلك قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: أدى الرسالة ثم قبضه الله. قال: فما ترك عندكم علامة؟ قلنا: بلى، ترك عندنا كتاب الملك. فقال: أروني كتاب الملك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حسانًا، فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا فقرأنا عليه سورة من القرآن فلم نزل نقرأ ويبكي حتى ختمنا السورة. فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى!ثم أسلم، وحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وسورًا من القرآن حتى إذا جَنَّ الليل وصلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا، قال لنا: يا قوم هذا الإله الذي دللتموني عليه، إذا جنه الليل ينام؟ قلنا: لا يا عبد الله! هو عظيم قيوم لا ينام. قال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام فأعجبنا كلامه فلما قدمنا (عبادان) قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام. فجمعنا له دراهم وأعطيناه. فقال ما هذا؟ قلنا: تنفقها. فقال: لا إله إلا الله! دللتموني على طريق ما سلكتموها، أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنمًا من دونه ولم يضيعني، يضيعني وأنا أعرفه؟! لما كان بعد أيام قيل لي: إنه في الموت- فأتيته، فقلت له: هل من حاجة فقال: قضى حوائجي من جاء بكم إلى جزيرتي. قال عبد الواحد: فحملتني عيني، فنمت عنده، فرأيت مقابر (عبادان) روضة فيها قبة وفي القبة سرير عليه جارية لم أر أحسن منها. فقالت: سألتك بالله إلا ما عجلت به، فقد اشتد شوقي

إليه، فانتبهت، وإذا به قد فارق الدنيا فقمت إليه فغسلته وكفنته ووواريته[١].

أبو ذر صاحب النبي ﷺ

* ذكروا عن امرأة أبي ذر - رضي الله عنه - قالت: لما حضر أبا ذر الوفاة بكيت، قال: ما يبكيك؟ قلت: تموت في فلاة من الأرض وليس لي ثوب أكفنك فيه، قال: لا تبكي وأبشري فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر كنت أنا فيهم: «**ليموتن رجل منكم في فلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين**» وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد هلك في قرية أو جماعة إلا أنا والله ما كذبت ولا كذبت، فأنا ذلك الرجل فأبصري الطريق.

قالت: فقلت: قد ذهب الحاج وانقطع الطريق، فكنت أقوم على كثيب فأنظر فأرجع إليه فأمرضه، فبينما أنا كذلك إذا بنفر على رحالهم فَأَلْحْتُ إليهم بثوبي فأسرعوا إليَّ فقالوا: يا أمة الله ما لك؟ قلت؟ رجل من المسلمين يموت فكفنوه قالوا: ومن هذا؟ قلت: أبو ذر. قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم فأسرعوا حتى دخلوا عليه، وسلموا فرحب بهم. وقال: أبشروا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنفر أنا فيهم: «**ليموتن رجلٌ منكم في فلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين**» وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد هلك في قرية أو جماعة إلا أنا فأنا ذلك الرجل، وأنتم أولئك العصابة ولو كان لي ثوب يسعني كفنًا أو لامرأتي لم أكفن إلا في ثوب لي أو لأهلي، وإني أنشدكم بالله لا يكفنني رجل منكم كان أميرًا أو بريدًا أو عريفًا أو نقيبًا ولم يكن في القوم إلا قد أصاب ذلك، أو بعض ذلك إلا رجل من الأنصار، فقال يا عم أنا أكفنك، فإني لم أصب شيئًا مما ذكرت، أكفنك في ردائي هذا وفي ثوبين أو في عباءتين من غزل أمي.

---

(١) انظر كتاب «التوابين» لابن قدامة - بتحقيق - الشيخ - محمود الزغبي - ط. المنار، وفياض [ص/ ١٩٣ - ١٩٤]، وانظر رحلة حزينة - للشيخ/ محمود الزغبي أيضًا - ط الإيمان [ص/ ٥٢-٥٣].

قال: أنت تكفنني، فاشتدت عليه السكرات فمات، فكفنه الأنصاري في النفر الذين شهدوه وكلهم من أهل الدين فرجعوا مسرورين بما سمعوا منه [١].

عطية بن خلف

وقيل: إنه كان بمصر رجل تاجر في التمر يقال له: عطية بن خلف وكان من أهل الثروة ثم افتقر، ولم يبق له سوى ثوب يستر عورته، فلما كان يوم عاشوراء صلى الصبح في جامع عمرو بن العاص ومن عادته أن يخرج بعد الصلاة ليمشي في الطرق فترة ومشى يدعو الله فجاءته امرأة ومعها أطفال أيتام فقالت: يا سيدي سألتك بالله إلا ما فرجت عني وآثرتني بشيء أستعين به على قوت هؤلاء الأطفال، فقد مات أبوهم وما ترك لهم شيئًا وأنا شريفة ولا أعرف أحدًا أقصده وما خرجت في هذا اليوم إلا لضرورة، فقال الرجل في نفسه: أنا لا أملك شيئًا وليس عندي غير هذا الثوب الوحيد وإن خلعته انكشفت عورتي وإن رددتها فأي عذر لي عند الله ورسوله، فقال لها: اذهبي معي حتى أعطيك شيئًا فذهبت معه إلى منزله فأوقفها على الباب ودخل وخلع ثوبه وائتزر بخلق كانت عنده ثم ناولها الثوب من شق الباب، فقالت: ألبسك الله من ثياب الجنة ولا أحوجك بعد الليلة، فتوضأ وصلى لله ثم نام، فرأى في المنام حوراء لم ير الراءون أحسن منها وناولته حلة من حلل الجنة وأطعمته من فاكهة الجنة، فلما استيقظ الرجل بكى كثيرًا ورفع يديه إلى السماء وقال: إلهي لقد أريتني ما عندك فخذني إليك فخر الرجل ميتًا رحمه الله [٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٥٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٤٠١، ٤٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٥٤٧٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» بنحوه وراجع المنتخب (٥/ ١٥٧)، وانظر «تنبيه الغافلين» للسمرقندي - بتحقيقي [ص/ ٤٤٣-٤٤٥].

(٢) انظر الروض [ص/ ٢١٣-٢١٤]، وكتابنا «الخائفون من الله» [ص/ ٥٢، ٥٣].

عوَّضني الرِّضَا بِمَا أَنَا فِيهِ

وقيل[١]: جلس عبد الله بن مشرف وزير هارون الرشيد بين يديه فقال يا أمير المؤمنين: لو استغاث بك رجل في ردِّ عبد له هرب إليك أما كنت ترده إليه؟ فبكى الرشيد ومن حضره وقال هذا رجل قد نجا من بيننا وعند جلوسه نظر إليه ثم خلى سبيله فخرج من وقته محرمًا يقول لبيك اللهم لبيك، فلقيه سفيان الثوري فسلم عليه وقال يا عبد الله ما الذي عوضك الله عما تركت؟ فقال: يا سفيان عوضني الرضا بما أنا فيه. فلما بلغ شيوخ الحرم قدومه خرجوا للسلام عليه، فرأوا شعثه وجهده فقالوا له كيف رأيت عبادة مولاك؟ قال: قدرت فجئت أسعى على رأسي ثم أخذ في البكاء فقيل له: وما هذا البكاء؟ فقال شفيع قدمته لعله يقبل، فلما وقع بصره على البيت شهق شهقة ومات رحمه الله تعالى.

قَاتِلْ يا بُنيَّ حتَّى أَحْتَسِبَكَ

روى ابن أبي شيبة بإسناده عن ثابت البناني أن صِلَةَ بن أَشْيَم كان في غزاة له ومعه ابن له: فقال له: أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم أبوه فَقُتِل، فاجتمعت النساء، فقامت امرأته معاذة العدوية فقالت للنساء: مرحبًا إن كنتن جئتن لتهنئتي مرحبًا بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن[٢].

كُنْتُ أَشْتَهِي مَوْتَهُ

وعن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدى عشرة فمات

---

(١) انظر «الخائفون من الله» [ص/ ٥٨].

(٢) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٩٥)، ومواقف إيمانية [ص/ ٣٠٨].

فذهبت أعزيه فيه، فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا، قال فقلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي قد أنجب ولقنته الحديث والفقه؟!

قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم وكان اليوم يومًا حارًّا شديدًا حره، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إليَّ وقال: ليس أنت أبي، قلت: فأي شيء أنتم؟ فقال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا، وخلفنا آبائنا، فنستقبلهم نسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته[1].

أم عقيل

قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي البادية، فضللنا الطريق فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدناها، فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: من أنتم، قلنا: قوم ضلوا عن الطريق أتيناكم فأنسنا بكم فقالت: يا هؤلاء، ولوا وجوهكم عني حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل ففعلنا، فألقت لنا مسحًا، فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردها، إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها فقال: يا أم عقيل أعظم الله أجرك في عقيل. قالت: ويحك! مات ابني؟ قال: نعم، قالت، وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشًا فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم من يحسن من كتاب الله

---

(١) انظر «تسلية أهل المصائب» [ص-٣٣] ومواقف إيمانية [ص/ ٣١٠].

شيئًا؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ علي من كتاب الله آيات أتعزى بها. قلت: يقول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

قالت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: آلله إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صَفَّت قدميها وصلَّت ركعات، ثم قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون عند الله أحتسب عقيلًا، - تقول ذلك ثلاثًا- اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني به[2].

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيَّ

قال الشاب التائب ما ملخصه: مَرَّ عشرون خريفًا من عمري وأنا في ظلام دامس، أتخبط خبط العشواء، لا أحس للدنيا طعمًا، المال كثير، أخلائي كثيرون، ماذا ينقصني؟ في نفسي جوعة وفي صدري ضيق، ماذا يشبع تلك الجوعة، ومن ذا يشرح هذا الضيق؟ لم تشبع نفسي قط، معازف لم تشرح صدري، على العكس تمامًا، فالجوعة زادت، والضيق ازداد، بدَّلت أخلائي، سافرت وعدت، سهرت كثيرًا وشربت، لهوت كثيرًا وتعبت، والجوعة دائمًا تزداد والضيق كذلك، أحسست كأني مسجون في دنياي، وأن الأرض برحابتها ضاقت، فكرت كثيرًا وطويلًا، وأخيرًا ظهر الحل..... الآن سأشعر بالراحة، هذه سكيني بيدي تلمع باسمة راضية عن هذا الحل، الناس هجوع والأهل نيام.. لم يبق سوى لحظات وأعيش ساعات الراحة..

لكن وأنا في تلك اللحظات وسكيني في يدي تقترب من قلبي الميت، جاء من أقصى

---

(١) سورة «البقرة» (١٥٥-١٥٧).

(٢) «المنحة» الشيخ/ الشقيري [ص/ ٢٠٨، ٢٠٩]، ومواقف إيمانية [ص/ ٣١١، ٣١٢].

الصمت صوت يسعى ويقول: الله أكبر.. الله أكبر.. سقطت سكيني من يدي، وتحرك قلبي الميت وكأنه كان بغيبوبة، واستيقظ بعد طول سبات، ويح نفسي ماذا جد؟ أغريب هذا الصوت؟ عشرون خريفًا تسمعه، أما أحسست معناه إلا الآن! وشرعت أحقق رغبة نفسي بإجابة هذا الصوت... أخذت وضوءًا وبدأت وضوئي أسلت الماء على وجهي المرهق.. فارتاح وأراح براحته نفسي، وخرجت إلى الشارع متجهًا نحو المسجد... والكون مخيف بهدوئه... لا صوت يعلو... ولا ضوضاء... دخلت المسجد مع تثويب صلاة الفجر، وقفت في الصف مع الناس... طراز من الناس لم أعهده بحياتي... وجوه بيضاء يشع منها نور، ونفوس طيبة مرتاحة.

تقدم بين الناس إمام أقبل عليهم بوجهه يحثهم على تسوية الصف، وشرعت أصلي خلفه... ونفسي مرتاحة، وصدري مشروح، بدأ يقرأ آيات وأنا أنصت، في تلك اللحظات نزلت دمعة أحسست ملوحتها، وشعرت بلسعتها، أجهشت ببكاء صادق، صنع في نفسي أزيزًا كأزيز المرجل، فنزل الدمع غزيرًا، وسال على خدي، وسقى أرضًا جدباء في قلبي الميت فأحيا بهذا الدمع- بعد كلام الله- موت فؤادي، كان بمعية هذا المغيث صوت الرعد، رعد الرحمة، صوت نحيبي وبكائي من خشية رب الناس[1].

قصة تائب

* يقول التائب: كنت أتمايل طربًا، وأترنح يمنة ويسرة، وأصرخ بكل صوتي وأنا أتناول مع «الشلة» الكأس تلو الكأس، وأستمع إلى صوت «مايكل جاكسون» في ذلك المكان الموبوء، والمليء بالشياطين الذي يسمونه «الديسكو».

---

(١) «مواقف إيمانية» الأخ الدكتور / أحمد فريد (٤٠١- ٤٠٢).

كان ذلك في بلد عربي.. أهرب إليه كلما شجعني رفيق أو صديق فأصرف فيه مالي وصحتي.. وأبتعد عن أولادي وأهلي... وأرتكب أعمالًا عندما أتذكرها ترتعد فرائصي، ويتملكني شعور بالحزن والأسى لكن تأثير الشيطان عليَّ كان أكبر من شعوري بالندم والتعب. استمرت هذه الحال، وانطلق بي هوى النفس إلى أبعد من ذلك البلد العربي، وأصبحت من عشاق أكثر من عاصمة أوروبية، وهناك أجد الفجور (بشكل مكشوف وسهل ومرن).

وفي يوم من أيام أواخر شهر شعبان أشار علي أحد الأصدقاء بأن نسافر إلى «بانكوك» وقد عرض علي تذكرة مجانية، وإقامة مجانية أيضًا، ففرحت بذلك العرض، وحزمت حقائبي وغادرنا إلى «بانكوك» حيث عشت فيها انحلالًا لم أعشه طوال حياتي.

وفي ليلة حمراء اجتمعت أنا وصديقي في أحد أماكن الفجور، وفقدنا في تلك الليلة عقولنا، حتى خرجنا ونحن نترنح، وفي طريقنا إلى الفندق الذي نسكن فيه أصيب صديقي بحالة إعياء شديدة، ولم أكن في حالة عقلية تسمح لي بمساعدته، لكني كنت أغالب نفسي، فأوقفت سيارة أجرة حملتني إلى الفندق.

وفي الفندق... استدعيت الطبيب على عجل، وأثنائها كان صديقي يتقيأ دمًا، فأفقت من حالتي الرثة، وجاء الطبيب ونقل صديقي إلى المستشفى، وبعد ثلاثة أيام من العلاج في المركز عدنا إلى أهلينا وحالة صديقي الصحية تزداد سوءًا، وبعد يوم من وصولنا إلى المستشفى ولم يبق على دخول رمضان غير أربعة أيام. وفي ذات مساء ذهبت لزيارة صديقي في المستشفى، وقبل أن أصل إلى غرفته لاحظت حركة غريبة، والقسم الذي فيه صديقي «مقلوب» على رأسه... وقفت على الباب فإذا بصراخ وعويل. لقد مات صاحبي لتوه بعد نزيف داخلي عنيف، فبكيت، وخرجت من

المستشفى، وأنا أتخيل أنني أنا ذلك الإنسان الذي ضاعت حياته وانتهت في غمضة عين، وشهقت في البكاء وأنا أتوب إلى الله وأنا أستقبل رمضان بالعبادة، والاعتكاف، والصيام، وقراءة القرآن، خرجت من حياة الفسق والمجون إلى حياة شعرت فيها بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار، وقد كنت بعيدًا عن ذلك أستمرئ المجون والفجور حتى قضى صديقي نحبه أمامي فأسأل الله أن يتوب عليّ[1].

مَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي؟!

يقول صاحب القصة: كنا ثلاثة من الأصدقاء، يجمع بيننا الطيش والعبث، كلا بل أربعة فقد كان الشيطان رابعًا، فكنا نذهب لاصطياد الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ونستدرجهن إلى المزارع البعيدة، وهناك تفاجأ بأننا قد تحولنا إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن، بعد أن ماتت قلوبنا، ومات فينا الإحساس، هكذا كانت أيامنا ولياليا في المزارع.. في المخيمات والسيارات وعلى الشاطئ إلى أن جاء اليوم الذي لا أنساه وذهبنا كالمعتاد للمزرعة، كان كل شيء جاهزًا الفريسة لكل واحد منا... الشراب الملعون... شيء واحد نسيناه هو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء طعام العشاء بسيارته، كانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق... ومرت الساعات دون أن يعود، وفي العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتي أبحث عنه، وفي الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانبي الطريق وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي والنار تلتهمها وهي مقلوبة على أحد جانبيها أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحم تمامًا ولكن كان لا يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينه وأخذ

[1] «العائدون إلى الله» [ص/ ١٦٢، ١٦٣].

يهذي: النار... النار، فقررت أن أحمله بسيارتي وأسرع به إلى المستشفى ولكنه قال بصوت باك: لا فائدة لن أصل، فخنقتني الدموع، وأنا أرى صديقي يموت أمامي وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له؟ نظرت إليه بدهشة وسألته: من هو؟ قال بصوت كأنه قادم من بئر عميق: الله أحسست بالرعب يجتاح جسدي ومشاعري، وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوية ولفظ آخر أنفاسه ومضت الأيام... لكن صورة صديقي الراحل وهو يصرخ والنار تلتهمه... ماذا أقول له؟ .... ماذا أقول له؟

ووجدت نفسي أتساءل: وأنا... ماذا أقول له؟ فاضت عيناي واعترتني رعشة غريبة... وفي نفس الوقت سمعت المؤذن ينادي لصلاة الفجر: الله أكبر، فأحسست أنه نداء خاص بي، يدعوني لإسدال الستار على فترة مظلمة من حياتي... يدعوني إلى طريق النور والهداية، فاغتسلت وتوضأت، وطهرت جسدي من الرذيلة التي غرقت فيها لسنوات، وأديت الصلاة ومن يومها لم تفتني فريضة[1].

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

لمح أحد الشيوخ شابين في العشرين من عمرهما أو تزيد قليلًا في المطار، مسافرين إلى بلد من البلاد التي يسافر إليها الشباب للمتعة المحرمة، استوقف الشيخ الشابين بعد أن ألقى عليهما التحية، ووجه إليهما نصيحة مؤثرة وموعظة بليغة، وكان مما قاله لهما: «ما ظنكما لو حدث خلل في الطائرة ولقيتما حتفكما وأنتما على هذه النية قد عزمتما على مبارزة الجبار- جل جلاله- فبأي وجه ستقابلان ربكما يوم القيامة؟ وذرفت عينا هذين الشابين، ورق قلبهما لموعظة الشيخ، وقاما فورًا بتمزيق تذاكر السفر، وقالا: يا شيخ، لقد كذبنا على أهلينا، وقلنا لهم: إننا ذاهبان إلى مكة أو جدة، فكيف الخلاص؟ وماذا نقول لهم؟ وكان مع

(١) انظر «أخي الشاب إلى أين تسير؟» (١٠-١٢) محمد أمين مرزا علم.

الشيخ أحد طلابه: فقال: اذهبا مع أخيكما هذا وسوف يتولى إصلاح شأنكما، ومضى الشابان مع صاحبهما، وقد عزما على أن يبيتا عنده أسبوعًا كاملًا، ومن ثم يعودا إلى أهلهما.

وفي تلك الليلة وفي بيت ذلك الشاب- تلميذ الشيخ- ألقى أحد الدعاة كلمة مؤثرة زادت من حماسهما، وبعدها عزم الشابان على الذهاب إلى مكة لأداء العمرة، وهكذا أرادا شيئًا وأراد الله شيئًا آخر، فكان ما أراده الله عز وجل. وفي الصباح، وبعد أن أدى الجميع صلاة الفجر، انطلق الثلاثة صوب مكة- شرفها الله- بعد أن أحرموا.

وفي الطريق.. كانت النهاية.. وفي الطريق كانت الخاتمة.. وفي الطريق كان الانتقال إلى الدار الآخرة[١]. فقد وقع لهم حادث مروع ذهبوا جميعًا ضحيته، فاختلطت دماؤهم الزكية بحطام الزجاج المتناثر، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت الحطام وهم يرددون تلك الكلمات الخالدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك... إلخ»[٢].

وأخيرًا: طَهِّرْ سِرَّكَ وَرَاقِبْ مَنْ يَرَاكَ

أيها الغافل[٣]: راقب من يراك في كل حالٍ، وطهر سرك فهو عليم بما يخطر بالبال، إلى متى تميل مع الزخارف وإلى كم ترغب لسماع الملاهي والمعازف والمحرمات؟ أما آن لك أن تجالس صاحب الدين والصلاح العاكف على عمله يقطع ليله بالقيام حتى الصباح ونهاره بالصيام لا يمل ولا يتوانى رجاء الفوز بالأرباح وأنت في غمرة هواك مفتونًا في الانهماك بدنياك، وكأنى بك وقد هجم عليك ما بدد شملك وأوهن قواك وافترسك من بين أهلك وعشيرتك وأخلائك، وتخلى عنك خليلك وأصدقاؤك لا يستطيعون رد ما نزل بك ولا تجد

(١) «العائدون إلى الله» (١٣٩-١٤٠).

(٢) انظر السابق.

(٣) انظر موارد الظمآن: (٢٠٦، ٢٠٧).

له كاشفًا، فانتبه ما دام جسمك صحيحًا والعمل منك في إمكان.

«وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ»[١]

قال بعض العلماء على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢] كشفت لنا هذه الآية الشريفة عن سُنةٍ من سنن الله تعالى: وهي أن من غفل عن تذكر الله فنسيه وألهته دنياه عن العمل للدار الآخرة أنساه الله نفسه التي بين جنبيه، فلا يسعى لما فيه نفعها ولا يأخذ في أسباب سعادتها وإصلاحها وما يكملها ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول بها إلى الفساد والدمار والهلاكِ، وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم. ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم وضيعوها وأضاعوا حظها من الله وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع المغبون ويظهر ذلك عند الموت ويتجلى ذلك يوم التغابن يوم ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾[٣]، إنها لحسرة على كل ذي غفلةٍ دونها كل حسرةٍ هؤلاء هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

وأما الرابحون فهم الذين أنار الله قلوبهم للحق فعرفوا الدنيا وقيمتها وقالوا ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها فكيف ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة.

---

(١) انظر «موارد الظمآن» (ص/ ١٣٢ - ١٣٥).

(٢) سورة الحشر: (١٩).

(٣) سورة «الأنعام»: (١٥٨).

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[1] وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ هؤلاء هم الكيسون الذين علموا حقيقة الدنيا كما علموا قلة لبثهم فيها وأن لهم دارًا غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء اتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما يشترون قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وفي هذا المعنى يقول عمر ﷺ: إنما الدنيا أمل مخترم أي منتقض وبلاغ إلى دار غيرها وسير إلى الموت ليس فيه تعريج، فرحم الله امرأً أفكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه وتاب إلى ربه إلى أن قال: إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية للسقم، وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد عن السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة، إن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه. ومن العجب العجاب أن العبد يسعى بنفسه في هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد في حرمانها من حظوظها وشرفها وهو يزعم أنه يسعى في حفظها ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها وهو يزعم أنه يسعى في صلاحها، وكان بعض السلف يقول في خطبته: ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه مكرم لها ومذل لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها وكفى بالمرء جهلًا أن يكون مع عدوه لنفسه يبلغ منها بفعله ما لا يبلغه منها عدوه.

مَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِن جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِن نَفْسِهِ

فالعاقل هو الذي يعمل مجدًا لآخرته ولا ينسيه نصيبه من الدنيا حظه من الآخرة

---

(١) سورة «يونس»: (٤٥).

(٢) سورة «الصف»: (١٠، ١١).

عاملًا بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾[1] ولو أنه تأمل قليلًا لوجد أن لذائذ الدنيا متولدة من آلامها، فمثلًا لذة الطعام لا تتحقق إلا بألم الجوع، ولذة الشراب لابد أن يسبقها حرقة العطش، ولذة النوم لا يجد الإنسان لها شوقًا إلا بعد أن يضنيه التعب الشديد، وهناك نوع آخر من الحكمة غفل عنه الكثيرون من الناس وهو أنها بمثابة براطيل تحمل الإنسان على قوامه وبقاء حياته فلذة الطعام تدفعه إلى أن لا يهمل جسمه من الغذاء ولولا ما جعل الله من لذة النكاح لانقرض النوع الإنساني من الوجود ولما وجدنا دابة تدب على وجه الأرض ولا طائر يطير في السماء، وكذلك فرحة الأم بطفلها تنسيها آلام الحمل والوحم والولادة والتعب والنصب والرضاع والسهر الطويل في التمريض مِمَّا يقض مضجعها وينسيها نفسها، فسبحان الحكيم العليم الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

وقال الشيخ الواسطي في بعض رسائله: إذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قلبه شاهدًا من ذكر الآخرة، يريد فناء الدنيا وزوالها وبقاء الآخرة ودوامها، فيزهده في الفاني ويرغبه في الباقي، فيبدأ في السير والسلوك في طريق الآخرة، وأول السير فيها تصحيح التوبة، والتوبة لا تتم إلا بالمحاسبة ورعاية الجوارح السبعة: العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل، وكفها عن جميع المحارم والمكاره والفضول هذا أحد شطري الدين ويبقى الشطر الآخر وهو: القيام بالأوامر فتحقيق الشطر الأول وهو ترك المناهي من قلبه وقالبه. أما القالب فلا يعصي الله بجارحة من جوارحه ومتى زل أو أخطأ تاب؛ وأما القلب فتتقي منه الموبقات المهلكات مثل: الرياء والعجب والكبر والحسد والبغض لغير الله وحب الدنيا ورد الحق واستثقاله والازدراء بالخلق ومقتهم، وغير ذلك من الكبائر القلبية التي هي في مقابلة الكبائر القالبية من شرب الخمر والزنا والقذف وغير

---

(١) سورة «القصص»: (٧٧).

ذلك فهذه كبائر ظاهرة وتلك كبائر باطنة، وكلاهما ضرر.

قال: فمن انطوى على شيء من الكبائر الباطنية ولم يتب حبط عمله بدليل: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» وجاء بقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا فأشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[١].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢].

فَمَتَى تُنَقِّى القلب من مثل هذه الخبائث والرذائل طَهُرَ وسَكَنَتْ فيه الرحمة في مكان البغض، والتواضع في مقابلة الكبر، والنصيحة في مقابلة الغش، والإخلاص في مقابلة الرياء، ورؤية المنة في مقابلة العجب ورؤية النفس، فعند ذلك تزكوا الأعمال وتصعد إلى الله تعالى ويطهر القلب ويبقى محلًّا لنظر الحق بمشيئة الله ومعونته، فهذا أحد شطري الدين وهو رعاية الجوارح السبعة عن المآثم والمحارم، وإنما تصلح وتطهر برعاية القلب وطهارته من الموبقات والجرائم ومعنى الموبقات: المهلكات. اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله:

والقلوب ثلاثة: قلب خال من الإيمان وجميع الخير فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهواء فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطالع فالحرب دول وسجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان.

(٢) سورة الكهف: (١١٠).

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان وانقشعت عنه حجب الشهوات وأقلعت عنه الظلمات فلنوره في صدره إشراق ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حُرِسَت بالنجوم فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق[١].

وأخيرًا: أيها العاصي
تذكر الموت وسوء الخاتمة[٢]

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]. تذكر أيها العاصي! أن هادم اللذات ومفرق الجماعات قد يهجم عليك وأنت متلبس بمعصية تسخط الله تعالى منك، فالمرء في العادة يموت على ما عاش عليه، ويبعث يوم القيامة على ما مات عليه، ففي حال السياق والتفاف الساق لا يتذكر الإنسان حال موته إلا ما كان مشغولًا به حال حياته، وما كان قلبه متعلقًا به حال جولاته وخلواته، لذلك تبرز في حال النزع كثير من الفضائح، ويخرج العبد من الدنيا وقد تبدلت فيه الأقوال، وانكشف ستر الله عليه في أصعب الأحوال، لذلك جاء في الذكر الحكيم عن الرحمن الرحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]. أي: أطيعوه فلا تعصوه، واشكروه ولا تكفروه، واذكروه ولا تنسوه، ولازموا طاعته فهي حبل النجاة من سوء الخاتمة، فالمداومة على الطاعات بريد الموت على الإيمان.

لذلك يحضنا رسولنا الكريم ﷺ إلى المبادرة بالطاعات وزيادة الحسنات قبل

---

(١) انظر موارد الظمآن مرجع سابق (ص/ ٢٠٧-وما بعدها بتصرف).

(٢) راجع كتاب أيها العاصي تذكر/ عبد اللطيف هاجس، دار الأندلس.

هجوم الطوارق والعوارض فيقول: «**بادروا بالأعمال الصالحة سبعًا: فهل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا أو غنًى مطغيًا أو مرضًا مفسدًا أو هرمًا مفندًا أو موتًا مجهزًا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر**»[(١)]. وقد وعد الله تعالى الذين خلط الإيمان بشاشة قلوبهم واستقاموا على منهاج ربهم، ولم يروغوا روغان الثعلب، فيعملون بما وافق هواهم ويتركون ما خالفه بالتثبيت والتأييد، يوم تتخلى عنهم كل القوى ويصبحون مرتهنون بأعمالهم مجزيون بأفعالهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند مواطن الهلكة ومنها الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ على ما أمامكم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلفكم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[(٢)].

أما الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب، وقدموا بأيديهم سيئات تنوء بحملها الجبال، فإن الله قد توعدهم بالإضلال، يوم يكونون أحوج ما يكونون للتثبيت والنصرة؟ والجزاء من جنس العمل، فمن نصر الله على نفسه حال قوته كان جزاؤه أن ينصره الله على عدوه حال ضعفه وفقره وحاجته ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[(٣)].

ومن كان الشيطان مستوليًا عليه، وقد تمكن منه في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه وفطنته، واستعمله فيما يريد منه من المعاصي والذنوب، فكيف الظن به عند سقوط قواه وانشغال قلبه بما هو فيه من ألم النزع والسكرات، وشدة الألم والكربات، وقد جمع الشيطان له كل قواه، وجلب عليه بخيله ورجله، وحشد عليه بجميع من يقدر عليه، لينال منه غرضه، ونادى في أعوانه وزبانيته: عليكم به، فإنه إن فاتكم لم تدركوه فإن هذا هو آخر العمل؟ فأهون ما يكون عليه الشيطان في ذلك الوقت وأضعف ما يكون

(١) الحديث: ضعيف أخرجه الترمذي رقم [٣٠٦] عن أبي هريرة، والحاكم في «المستدرك» وضعفه الشيخ الألباني وراجع «السلسلة الضعيفة» رقم [١٦٦٦].

(٢) سورة فصلت: آية (٣٠).

(٣) سورة الرحمن: آية (٦٠).

وهو في تلك الحالة، فهل ترى يسلم عند ذلك؟! هنالك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾..

ولا تسأل عن هالك كيف هلك؟ إنما سل من نجا؟ كيف نجا؟ ولا يهلك إلا هالك.

وقد سمعنا كثيرًا من القصص عمن ساءت خاتمتهم، وخابت عاقبتهم في حال قولهم وانصرام أمرهم، فكان في حالهم عبرة وفي قصصهم ذكرى. والكيس من دان نفسه، وعمل للموت وما بعده، فكن يا عبد الله من المعتبرين ولا تكن أنت عبرة لمن خلفك من الناس أجمعين. فهذا شابٌّ كان في مقتبل عمره وريعان شبابه كان معرضًا عن الله، غافلًا عن خالقه ومولاه، وقع له حادث سيارة وكان مضرجًا بدمائه، في حالة سيئة يرثى له، فاقترب منه أحد الناس فوجده في حالة النزع يعاني من سكرات الموت، فأراد أن يذكره بالشهادة فلعله يختم له بخاتمة السعادة كما ندب إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**»[1]. «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[2].

فقال الرجل: قل: لا إله إلا الله: فرفع ذلك الشاب المصاب رأسه وكان دمه يثعب وقال بلهجة عالية: «ما صليت ولا بصلي.. روح الله يلعن دينك»!!! ثم قضى نحبه وهلك. فتأمل رحمني الله وإياك، ووقانا الخاتمة بما ختم له مع أنه لم يأمره بالصلاة ومات على هذه الكلمة الكفرية. فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

وذلك شاب آخر حصل له حادث، فجاء أحد المسلمين فوجده يعاني من شدة الموت والنزع، وأحس به وكأنه يتمزق من شدة وعذاب الألم، وذكره بالشهادة فأجابه بعد إلحاح: أنا في سقر .. أنا في سقر .. ومات عليها. فسأل الرجل عن

---

(١) راجع صحيح سنن ابن ماجه (١١٨٥) عن أبي هريرة.

(٢) الحديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند [٥/ ٢٤٧]، وأبو داود في سننه [٣/ ٤٨٦]، كتاب الجنائز [١٥] «ح» [٣١١٦]، والحاكم في «المستدرك» [١/ ٣٥١] وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه الشيخ الألباني. وراجع: الإرواء برقم [٦٨٧]، والمشكاة برقم [١٦٢١].

أهل الميت حتى دُلَّ عليهم فسألهم عن خبره فقالوا: إنه كان لا يصلي، وصدق الله حين أخبر عن المجرمين ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[١].

* وروي عن عجوز قد بلغت من العمر عتيًّا كانت تقع في أعراض الناس وتغتابهم وتأكل في لحومهم، وقف ابنها بجوار رأسها يذكرها الشهادة عند احتضارها، فردت عليه بعد أن كررها على سمعها مرارًا وقالت: والله يا بني إنها أثقل عليَّ من الجبال الراسيات. فلا حول ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

* ويذكر أن شابًّا كان في حال السياق، يغني ويدندن ويردد أغنية: هل رأى الحب سكارى مثلنا. ومات!!! عاش عليها ومات عليها وسيبعث يوم القيامة عليها. يوم يبعث الله الشهيد دمه يثعب. اللون لون الدم والريح ريح المسك[٢] «ويبعث الله المحرم بالنسك ملبيًا»[٣] وهو يردد: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك، وهذا العاصي يبعث وهو يردد: هل رأى الحب سكارى؟!

فتأمل أيها العاصي- متى جاءه الموت وعلى أي حال أتاه وكلنا ينتظر الموت-:

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض من سماع الغنا
وكم قلت: يا قوم أنتم على ... شفا جرف ما به من بنا
شفا جرف تحته هوة ... إلى درك، كم به من عنا
وتكرار ذا النصح منا لهم ... لنعذر فيهم إلى ربنا
فلما استهانوا بتنبيهنا ... رجعنا إلى الله في أمرنا
فعشنا على سنة المصطفى ... وماتوا على تنتنا تنتنا

---

(١) سورة المدثر: (٤٢، ٤٣).

(٢) راجع: صحيح سنن ابن ماجه (٢٥٠٣).

(٣) راجع: صحيح سنن ابن ماجه (٢٢٥٤).

هذا ولا ندري كيف يكون حالنا حين يأتينا الموت، ترى هل يأتي على طاعة تقربنا إلى الله؟ أم على معصية تبعدنا عن الله؟!!

والموت باب كل الناس داخله فيا ليت شعري بعد الموت ما الدار؟

نسأل الله جل وعلا حسن الخاتمة.

هذا والحمد لله رب العالمين

خادم السنة المطهرة/ أبو عمر

الشيخ/ محمد بن عبد الملك الزغبي

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.
٢ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
٣ - صحيح مسلم بشرح النووي.
٤ - مسند أحمد تحقيق/ أحمد شاكر.
٥ - سنن أبي داود.
٦ - سنن الترمذي.
٧ - سنن النسائي.
٨ - سنن ابن ماجه.
٩ - السلسلة الصحيحة للألباني.
١٠ - صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.
١١ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
١٢ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
١٣ - سير أعلام النبلاء للذهبي.
١٤ - تاريخ الإسلام للذهبي.
١٥ - الكبائر للذهبي.
١٦ - البداية والنهاية لابن كثير.
١٧ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - لأبي الفرج ابن الجوزي.
١٨ - صفة الصفوة - لابن الجوزي.
١٩ - بحر الدموع - لابن الجوزي.
٢٠ - صيد الخاطر - لابن الجوزي.
٢١ - ذم الهوى - لابن الجوزي.
٢٢ - تلبيس إبليس - لابن الجوزي.
٢٣ - الداء والدواء - لابن قيم الجوزية - بتحقيقي.
٢٤ - الفوائد - لابن قيم الجوزية - بتحقيقي.
٢٥ - إغاثة اللهفان - لابن قيم الجوزية - بتحقيقي.
٢٦ - روضة المحبين - لابن قيم الجوزية.
٢٧ - شذرات الذهب - لابن العماد.
٢٨ - التذكرة - للقرطبي.
٢٩ - التذكرة الحمدونية - لابن حمدون.
٣٠ - إحياء علوم الدين - لأبي حامد الغزالي - بتحقيقي.
٣١ - مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق - للدمياطي المشهور بابن النحاس -

بتحقيق. ودراسة/ إدريس محمد علي، ومحمد خالد اسطنبولي – دار البشائر.

٣٢- رياض الصالحين- للنووي- تحقيق الأرناؤوط.

٣٣- اعتلال القلوب- للخرائطي. ٣٤- أحكام الجنائز وبدعها – للألباني.

٣٥- مجابو الدعاء لابن أبي الدنيا تحقيق/ مجدي السيد إبراهيم مكتبة القرآن.

٣٦- الجزاء من جنس العمل- د/ سيد عفاني- دار العفاني.

٣٧- التخويف من سوء الخاتمة – مجدي السيد- التوفيقية.

٣٨- رحلة حزينة / محمود الزغبي- مكتبة الإيمان.

٣٩- السنن المهجورة والبدع المشهورة / أحمد الزغبي – دار الحكمة.

٤٠- التوابين- لابن قدامة- تحقيق/ محمود الزغبي- دار المنار، وفياض.

٤١- الواعظ الصامت- للمؤلف. ٤٢- الجامع المتين- للمؤلف.

٤٣- صرخة إلى العصاة- للمؤلف. ٤٤- الخائفون من الله- للمؤلف.

٤٥- أيها العاصي تذكر- للغامدي.

٤٦- الدنيا وضحاياها وكيفية النجاة منها- للمؤلف.

٤٧- عُدْ إلى الله أيها العاصي – للمؤلف.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
مقدمة	٥
ما هذه السكرة وأنتم صاحون؟!	٧
حسرات عليك يا فريسة الهوى والشيطان	٧
فَرَّقُوا دينهم وكانوا شيعًا	٩
تلبيس إبليس على الخوارج ونماذج من سوء خاتمة بعضهم	١٣
تلبيس إبليس على الرافضة	١٩
تلبيس إبليس على الباطنية	٢٢
من جرائم الباطنية	٢٣
نماذج من سوء خاتمة بعض الباطنية	٢٥
الخبيث صاحب الزنج	٢٧
الشيطان بابك الخرمي	٣٠
تلبيس إبليس على أدعياء الزهد	٣٢
نماذج من هؤلاء وسوء خاتمتهم الحارث الكذاب	٣٣
الحلاج عقيدته، وسوء خاتمته	٣٦
أشياء من حيل الحلاج	٤٢
صفة مقتل الحلاج	٤٨
احذر.. سوء الخاتمة	٥٥
نماذج لبعض من ساءت خاتمتهم جزاء قتلة الحسين ﷺ	٥٦
قتل شيخ على ردته	٦٠
خَرَّ ميتًا	٦١
اسْوَدَّ وَجْهُهُ	٦١
اضطرب حتى مات	٦٢
قتله ولده	٦٢
من ضحايا الشيطان صديق منصور بن عمار	٦٣
احذروا	٦٤
من ضحايا الشيطان أحمد بن يحيى وقع في الإلحاد	٦٥

الموضـــــــوع	الصفحة
من ضحايا الشيطان ابن الخشكري	٦٦
عاقبة الظلم	٦٧
يا منَ غرَّه طُولُ تماديه	٧٢
يَا عَبْدَ هَوَاه: اذْكُر مَا قَدَّمَتْ يَدَاك	٧٤
قَلْبُكَ فِي سَهْوٍ وَلَهْوٍ وَغَفْلَةٍ	٧٥
استيقظ يا مغرورًا بالأماني	٧٦
ضحايا الهوى والعشق كم مِنْ نَظْرَةٍ حقيرة زَلَّتْ بِهَا الأقدام؟!!!	٧٨
إِمَّا سُرُورٌ ونعيمٌ وإِمَّا همومٌ وغمومٌ	٧٨
أَشْقِ البدنَ بنعيمِ الرُّوحِ	٨٠
أيها العاصي! احذر هذا الباب المهلك	٨١
مَنَاظَرَةٌ بين القلبِ والعينِ في الْهَوَى	٨٤
احذر.. أن تَتَّفِقَ الشُّبْهَةُ والشَّهْوَةُ	٨٩
الصَّبْرُ عن الشَّهْوَةِ أفضل	٩٣
خُذْ لنفسك نُورًا تَسْتَضِيءُ به	٩٣
ذَمُّ الهوى والشَّهَوَات	٩٥
الهوى يهوي بصاحبه	٩٧
مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة	١١١
مَا فُتِنَ بِهِ الْعُشَّاقُ	١١٣
أَضْرَارُ الْعِشْقِ	١١٥
نماذج مِمَّن أَضَرَّ بهم الْعِشْقُ	١١٦
ومن ضحايا العشق كعب بن مالك الشاعر	١٢٦
من ضحايا العشق وضاح اليمن	١٢٨
من ضحايا العشق قيس بن الملوح	١٣٠
من ضحايا العشق غسان بن جهم	١٣٢
من ضحايا العشق حبيشة بنت حبيش	١٣٤
من ضحايا العشق فتى بني تميم	١٣٦
من ضحايا العشق مات على الكفر	١٣٨
من ضحايا العشق قتلها وقتل أمها	١٣٨
من ضحايا العشق عبده بن عبد الرحيم	١٣٩

الموضـــــــوع	الصفحة
من ضحايا العشق حبابة ويزيد	١٤٠
أيها العاصي: معاصيك تضعفك أمام نفسك	١٤١
الذين آثروا الآلام على لَذَّةِ الوصال الحرام	١٤٥
مَنْ تَركَ شيئًا لله عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ	١٤٨
انتبه الغناء والموسيقى من أسباب العشق المهلك	١٥٢
دَوَاءُ الدَّاءِ الْقَتَّال	١٦١
الجمال نعمة توجب شكرًا لا قبحًا	١٦٦
أيها العاصي! أنت في سجن الشيطان	١٦٩
أيها العاصي: معاصيك توجب القطيعة بينك وبين ربك	١٧٠
أَيُّهَا العاصي: مَعَاصِيكَ تُنْسِيكَ نَفْسَكَ حَتَّى تُهْلِكَهَا	١٧١
طويت الصحف وجفّت الأقلام	١٧٣
يَا مَنْ سَوّفَ بالمتاب حتَّى شاب	١٧٤
أفق من غفلتك يا سكران	١٧٥
بِشَارَاتُ أَوْلِيَاء الرَّحْمَن	١٧٦
حسن الخاتمة	١٧٨
نماذج لبعض مَنْ حَسُنَتْ خَاتِمَتُهُم بِشَاراتُ الشُّهَدَاء والصَّالِحِين	١٨١
نماذج من هؤلاء	١٨٣
فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا (الجنة)	١٨٥
يَا أَبَتِ إِنَّهَا الْجَنَّة	١٨٥
أقرأ عليكم السلام	١٨٦
غَسَّلَتْهُ الْمَلائِكَةُ	١٨٦
فَإِنَّ اللهَ يَرْزُقُكَ الشَّهَادَةَ	١٨٧
«صَبْرًا آل ياسر فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ»	١٨٨
نَفْسِي تُحَدِّثُنِي أَنِّي أُقْتَل	١٨٨
فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ	١٨٩
ثَبَتَ على الْحَقِّ حَتَّى قُطِّعَ عُضْوًا عُضْوًا	١٩٠
هَذَا مِنِّي وأَنَا مِنْهُ	١٩٠
خبيب بن عدي	١٩٢
مقتل سعيد بن جبير	١٩٣

الموضـــــــوع الصفحة

مقتل حطيط الزَّيَّات ١٩٦
قُبِلَ المهر وزُفَّت العروس ١٩٧
يَا أُمَّ الْفَارِسِ الصَّغِيرِ: قَدْ قَبِلَ اللهُ هَدِيَّتَكِ ٢٠٠
أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَجَلِي بِأَرْضِ الرُّومِ ٢٠٦
انْتَشَرَتْ أَمْعَاؤُهُ فِي سَبِيلِ الله ٢٠٦
احْفُرُوا لِي قَبْرًا ثُمَّ سُّووه ٢٠٦
كَانَ يُسْمَعُ مِنْ جَسدِهِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أبو بكر النابلسي ٢٠٧
البخاري ٢٠٨
ابن تيمية ٢١٠
لعلَّ الله يَجْمَعُنِي بِهَا فِي الْجَنَّةِ ٢١٢
هَكَذَا صِفَةُ الْخَائِفِينَ من الله ٢١٣
حسن خاتمة ٢١٤
أبو ذر صاحب النبي ﷺ ٢١٥
عطية بن خلف ٢١٦
عوَّضنِي الرِّضَا بِمَا أَنَا فِيهِ ٢١٧
قَاتِلْ يا بُنيَّ حتَّى أَحْتَسِبَكَ ٢١٧
كُنْتُ أَشْتَهِي مَوْتَهُ ٢١٧
أم عقيل ٢١٨
أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيَّ ٢١٩
قصة تائب ٢٢٠
مَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي؟! ٢٢٢
لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ٢٢٣
وأخيرًا: طَهِّرْ سِرَّكَ وَرَاقِبْ مَنْ يَرَاكَ ٢٢٤
وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ ٢٢٥
وأخيرًا: أيها العاصي تذكر الموت وسوء الخاتمة ٢٢٩
المصادر والمراجع ٢٣٤
فهرس الموضوعات ٢٣٦

* * *